مطلوب عريسٌ!

غير ممل!

النسخة الرقمية المكملة

رواية

عارف فكري

مطلوب عريس غير ممل!

رواية

عارف فكري

عزيزي القاريء... عزيزتي القارئة

أقترح عليكما التسجيل في مدونتى، حيث ستُنشر عليها روايات جديدة، على شكل حلقات أسبوعية، تصدر في موعد محدد، وستكوت روايات متنوعة بين الرعب، والرومانسية، والغموض، والمغامرة، والفانتازيا، وستكون بصيغ متعددة للقراءة: PDF، Epub، Kindle

رابط مدونتى: اضغط هنا

الفصل الأول

هل هناك سبب مقنع يجعلني أقوم بتدوين تفاصيل حياتي؟

أعلم أنني لستُ شخصية شهيرة في الفن أو الأدب أو السياسة، لكنني أملك تجربة فريدة تستحق فعلًا أن تُدوَّن، ولا تظنوا أني مجرد فتاة محبطة، مكتئبة، لا تثق في البشر!

الحق أنني أندهش من فكرة أن يُعرّي المرء نفسه على الورق، أن يُخرج مكنوناته للناس!

هذا أشبه بأن يخرج المرء أفكاره، وهواجسه، وخطاياه على الملأ!

حتى من يزعمون بأنهم ينشرون كل دقائق حياتهم بصدق، أزعم أنا الأخرى بأنهم يبالغون قليلًا. لا بُدَّ من منطقة مظلمة يكتنفها الظلام، وتحلق في سماواتها الرمادية سحب الضباب. الإنسان أعقد من أن يتم اختزاله في كتاب مذكرات. أنا مجرد فتاة عادية، فارس أحلامها هو بطوط، حيث أعلق له بوسترًا ضخمًا على جدار حجرتي!

الحقيقة أنني أعتزّ بذكرياتي، بأصدقائي، بالتفاصيل الدقيقة التي تؤكد هوّيتي وشخصيتي.

لكن ربما . وقد صدق حدسي فيما بعد . يحدث لي وللآخرين ما يستحق التسجيل والتدوين.

لهذا عرجتُ على مكتبة الأدوات المدرسية القريبة من المنزل، واشتريتُ مفكرة ضخمة ذات غلاف سميك يحمل صورة محفورة لبطلي المحبوب بطوط!

أحب تلك الشخصية الكارتونية التي تحمل من سمات البشر الكثير: نزق، وطيش، وغباء بسيط ومركب. إنه الأقرب لقلبي. من محاسن الصدف أن زيزي (والمفترض أنها حبيبة بطوط الأبدية) لديها مفكرة أيضًا، وتبدأ حديثها بجملة لطيفة، يروق لي أن أستخدمها هنا:

مفكرتي العزيزة...

كنتُ أعلم بأن أحلام اليقظة كافية لتدمير أية فتاة تظن بأن فارس أحلامها سيأتي حتمًا على حصانه الأبيض حاملًا فتاته معه؛ ليذهب معها إلى مملكة الأساطير التي أتى منها.

كنتُ أستمع إلى هذه الخزعبلات من رفيقاتي بالمرحلة الثانوية، وكنتُ ألمح في حقائبهن روايات عبير، وزهور، وكم مِنْ مرة أجدُ إحداهن تدمع عيناها في تأثر، وتتنهد في حرقة.

لا أقصد القول بأنني كنتُ مختلفة عنهن، لكنني كنتُ أطرح تساؤلًا منطقيًا: "ألا توجد فتيات في تلك المملكة الخيالية تصلح لذلك الفارس، أم أن الحال قد ضاقت به حتى يفكر فينا نحنُ الأرضيات الفانيات؟!"

ما أن أطرح هذا السؤال، حتى يرمقنني في غضبٍ؛ يجعلني أنطوي على نفسي بضيق، وكأنني دُستُ فتيلًا مدمرًا، أو اقتحمتُ-بوقاحة-منطقة محرمة!

كانت تساؤلاتي تمنحني شهرة بأنني فتاة ذكية، وكان هذا يجذب الفتيان في المرحلة الثانوية .وهي مرحلة المراهقة المعقدة التي يصعب

فيها الحصول على مشاعر نقية وصريحة . لشخصي، وكل واحد منهم يحاول بقدر المستطاع أن يبدو ذكيًا وأنيقًا، ولافتًا للنظر بخفة دمه، وكان البعض ينجح في تحقيق هذا بالفعل، لكن ذكائي جعلهم يتراجعون بحذر، لكن الحمقى لم يدركوا بأنني لم أكن أقصد أن أبدو هكذا.

أنا كثيرة التساؤلات بالفعل، وهذا من حقي، كما أنه ليس من حق أي أحد أن أتلوَّن بشخصية غير حقيقية من أجله. هل أبدو غبية مثلًا، أو نمطية، أو سطحية حتى يشعروا بتفوقهم؟

كان جمالي عاديًا، مثلي مثل الكثيرين، بل يمكنني القول بأنني أشعر بأنني قبيحة تبعًا لحالتي النفسية التي تسوء أحيانًا؛ فأشعر بأنني أتنفس من ثقب إبرة، وأحيانًا أشعر بالسعادة، بسبب أو من غير سبب؛ فأقفز في الهواء طربًا، ويمكن أن تنطلق ضحكاتي مجلجلة من حجرتي، وأنا أشاهد أحد أفلام الكارتون؛ مما يجعل والدي في حجرته يهزّ رأسه، وهو يتمتم:

"لقد أصابها الجنون!".

يبدو أن الشاعر الذي قال: "كن جميلًا ... ترى الوجود جميلًا" كان محقًا.

كنتُ أدرك جيدًا طريقة التفكير في فارس/ فتاة الأحلام، منذ أن ينبض القلب بخفقات الحب، ومنذ الشعور الأول بالحاجة إلى رفيق يضيف بوجوده جمالًا للحياة، منذ بداية سني المراهقة، والصفات التي توضع لفارس الأحلام تتراكم وتتراكم؛ فهو طويل القامة، متين البنيان، وسيم،

قسيم، له شعر أسود حالك، وعينان واسعتان، ويمتلك خفة دم كبيرة، وأناقة لا مثيل لها، وذكاء شارلوك هولمز شخصيًا!

ويمكن أن تكون هذه الأحلام في ذهن فتاة عادية الملامح، لكنها تطلب الأفضل والأجمل والأحسن تبعًا لما تريده هي، ولما في تطلعاتها.
نفس الحال بالنسبة للفتيان؛ فكل واحد منهم يريد الفتاة الأفضل والأجمل والأحسن، مما يذكرني بمقولة رائعة: "هو يبحث عن الفتاة المثالية، وهي أيضًا تبحث عن الفتى المثالي".

***

مفكرتي العزيزة...

أشعر بالدوار. يبدو أنني قد أُصبتُ بالعته!
تركيزي يتسرب منى، كما يتسرب الماء من بين أصابع العطشان، حتى أن والدي قرر أن يرافقني أخي حسن في مشاويري.

رفضتُ في البداية، لكن عندما وجدتُ نفسي في ذلك الشارع المظلم أنظر حولي في حيرة؛ أدركتُ مدى سوء حالتي. أكثر من مرة أشعر بمن يتعقبني، يسير ورائي في الأزقة والشوارع.

عينان ثاقبتان تُسلطّان نيرانهما الحارقة على ظهري؛ فألتفت فلا أجد أحدًا. لكن الخطوات مستمرة. هل هو مجنون، أم مراهق، أم حيوان ضالّ، وتكفل عقلي بأن يُضفي على الأمر خيالاته العابثة؟

لا أعرف.

***

" ثمة بقعة في ذاكرتك تصيبك بالحيرة والاضطراب".

هذا ما قاله الدكتور صبحي لي، وهو يحدّق إلى وجهي بعينيه الواسعتين، وذقنه الكثيفة، والشارب الضخم الذي يتناسب مع طبيب نفسي وقور. هناك منطقة مظلمة في ذهني تصيبني بالارتباك، واتخاذ قرارات حمقاء.

اقترح أن يقوم بجلسة تنويم مغناطيسي، لكني-ولسبب مجهول - رفضتُ بعناد.

رمقني والدي بغضب-على الرغم من أنه لا يؤمن بالتنويم المغناطيسي كعلم، ويعتبره امتداد للفيلم القديم لعبد السلام النابلسي، والذي كان يقوم فيه بتنويم مجموعة من الناس بإشارة من يده! - لكنه كان يعلم أنني عندما أقول لا، فمعناها لا، ولا معنى آخر. لهذا كان عليَّ أن أسجل ما يحدث لي. أكره أن تتبخر أيامي التي أعيشها في الهواء كأنها لم تكن. أكره هذا بشدة.

كانت والدتي هي أول من لاحظتْ ذلك.

فقد رأتني أكثر من مرة أترك بقايا الطعام خارج الطبق، وأرسم دوائر غريبة فيه بالملعقة، وعندما أتى عريس جديد لم أرفضه كالسابقين، بل رمقتُ وجهه مبتسمة في بلاهة، وأنا أنظر في الأرض بخجل.

في الظروف العادية سيُسرُّ المتقدم بهذا، لكن الطريقة التي أظهرت بها هذا تؤكد أنني حمقاء، وبالطبع أفلت العريس هاربًا بجلده من هذه المصيدة. كانت أختي سمية تؤكد بأنني فعلتُ هذا متعمدة، حتى أقوم "بتطفيشه"، لكن والدي أسكتها بإشارة من يده، فهو يعلم جيدًا أنني مستقلة برأيي، وأنني لستُ ضعيفة الشخصية أبدًا، وأن تاريخي يحمل الكثير من الأسماء الذكورية التي شطبتها بإرادتي، وبالتالي فلستُ في حاجة إلى هذه الترهات.

مع مقدم العريس الثاني تأكد خبلي؛ فقد قدمتُ القهوة، وتعثرتُ في طرف السجادة؛ ليغرق بنطاله بقهوة ساخنة، جعله يصرخ، ويُخرج من فمه سُبابًا قذرًا جعل وجه والدي يحمرّ خجلًا، بينما تكفل أخي بركله إلى الخارج.

دكتور صبحي أكدَّ لي بصوته المبحوح؛ بأن استجابتي للأشياء تقلّ، وأن ذكائي ينخفض مستواه بمرور الوقت، وهو لا يعرف السبب الطبي المتيقن من هذا.

هنا أدلت سمية بدلوها كالعادة، متجاهلة نظرات أبي المحذرة؛ فهي تري بأن انعزالي عن العالم الخارجي قد أصابني بالجنون في النهاية، ويبدو أن الطبيب قد اهتم بهذا؛ فقد راح يسأل الكثير من الأسئلة التي كنتُ أتجاهلها تمامًا، وأنا أنظر حولي مترقبة حدوث شيئًا ما، لا أتمنى

حدوثه أبدًا، بينما تُدلي سمية مجددا بتفاصيل عن وجودي أمام شاشة الكمبيوتر ليلًا ونهارًا.

تكفلت الإشاعات بخلق سمعة رائعة لي؛ فقد أخذتُ لقب" مجنونة العائلة"، وصار الجميع يهرب مني هروبهم من الطاعون، والظريف بأنهم يقولون بأن هذه نهاية من تتبطر على الزواج، وتتكبر عليه، وكأنه من المفروض أن أوافق على أول قادم، بل وأُقبِّل يده شكرًا لقدومه الأسطوري الذي سينتشلني من التفاهة، واليأس، والتعاسة!

ويبدو أن تلك الحالة قد تفاقمت لديّ؛ فقد صار من المعتاد أن أجلس على الأريكة بالصالة، وأنا أشغل نفسي بالحياكة، وهي هواية تعلمتها ببطء، وكم مرة جرحتُ إصبعي، لكنني في النهاية صرتُ محترفة حقيقية أجلس بالست ساعات في رحلة متواصلة من الحياكة، وتبدلتْ نظرات الشماتة في عيون من حولي إلى شفقة وعطف، بينما أنا كنتُ في شغلٍ عنهم بعدّ العقد، وتذكر كمْ كتابًا قرأتُ؛ ففي النهاية ما زال حبي للكتب متوهجًا!

***

مفكرتي العزيزة...

مضت أشهر عديدة على إصابتي بالعته، اكتسبتُ خلالها-كما قلتُ سابقًا-سمعة رائعة في العائلة، وصار لقبي السري الذي يُهمس به سرًا (وكأني النسخة الأنثوية من اللورد فولدمورت الذي لا يجب نطق اسمه) هو: المعتوهة! لكن أثناء هذا لم يتوقف الخُطَّاب عن طرق بابي وطلب القرب مني. الحق أن هناك مواصفات أسطورية راحت تُضفى على شخصي؛ في محاولة للتغطية على عتهي ذلك.

والمفترض أن هناك من سيتقدم ليّ في الغد.

***

مفكرتي العزيزة...

العريس يعمل في الكويت. مدرس براتب خيالي. لديه سيارة هيونداي، ورصيد في البنك، وشقة واسعة وفخمة بمدينة نصر. لكنه لا يقيم بها إلا فترات الإجازة بطبيعة الحال. يعرف بأنه سيظل سنوات طويلة هناك، حتى يعود ليقيم مشروعًا مدرًا للربح، ويعيش بقية حياته.

أعتقد أن معظم من يسافرون يفكرون هكذا.

لأكن صادقة: لم أحب أبدًا مغادرة مصر على ما فيها من مشاكل. لا أحب أن أسافر مع شخص لا تربطني به إلا رابطة الزواج، على أمل أن أحبه فيما بعد.

أحيانًا أشعر بالوحدة هنا، وأنا وسط أهلي، فماذا لو سافرتُ بعيدًا؟

الحق أنى دومًا أشعر بغباء حقيقي، وأنا أحاول تخيّل الفكرة؛ فيزداد غبائي بالتبعية. رجل سأقترن به، ونقيم تحت سقف واحد؛ سيراني في أسوأ حالاتي، وسأراه في أسوأ حالاته: وهو ينام، ويغطّ، ويتجشأ، ويبصق!

سيتعرى أمامي جسديًا ونفسيًا، وسيظهر هيكله الحقيقي دون مواربة. يقولون إن الخطوبة تكشف حقيقة الشخص، وأؤكد أن هذا لا يتم في كل الأحوال. هناك عباقرة في الكذب لا يمكن كشفهم بسهولة نتيجة خبرات اكتسبوها في علاقات سابقة. لكن بالنسبة لي أزعم أنني لستُ سمكة سهلة الهضم!

***

مفكرتي العزيزة...

كان العريس التالي من فرع آخر من عائلتنا المترامية. احتضنه والدي بصفته واحدًا من رائحة الحبايب، وقدَّم له واجب الضيافة. كان طويلًا، رفيعًا مثل قلم رصاص، لديه عينان واسعتان مميزتان بشكل واضح، بحيث يبدو للمرء أنهما تبرقان. قالت أختي سمية لأمي وهي تهمس:

" إنه يخيفني".

لكزتها أمي حتى تصمت. في ظروف أخرى كنتُ سأضحك من الموقف، لكن بما أنه يخصني فكنت أقوم بالشيء الذي تجيد الفتيات عمله: الفزع!

يبدو أنه كان يعرف ما لعينيه من تأثير على الناظر؛ فكان يستخدمها في أن يلتفت هنا وهناك، وكأنه يمارس علينا التنويم المغناطيسي. قامت والدتي بتعديل زينتي. كنتُ أحاول جعلها بسيطة، بحيث تعبر عن شخصيتي، لكن والدتي أصرت بأن ذلك اليوم يحتاج للكثير من الزينة.

استسلمتُ لأصابع أختي سمية المدربة. الحق أنها كانت خبيرة لا يشق لها غبار، وقد خرجت من تحت أصابعها المباركة معظم بنات العائلة.

من أنا حتى أتمرد عليها؟ إنها كابوس حقيقي لا يمكن ردعه. وفي النهاية وجدتني أُدفَع من والدتي للخروج عليهما حاملة صينية المشروبات، وفوق وجهي رطل من الزينة بدا لي أنه أثقل من وزن الصينية نفسها!

وجدته ينهض وهو يبتسم ابتسامة مُرحِّبة. يبدو أنني قطعتُ حديثًا مهمًا بينهما عن فروع العائلة في مصر المحروسة وأماكن تمركزها.

والدي أدرك أن الوقت قد حان لكي ينصرف. ذهب مطمئنًا لصلاة العشاء، تاركًا مهمة المراقبة لأمي وأختي سمية؛ حيث أن أخي حسن لم يكن موجودًا.

لفنا الصمت للحظات، ثم اندفع هو في الحديث. كنتُ مشوشة، تركيزي في الحضيض. خواطر سخيفة راحت تمرّ بذهني، ثم بعد صفاء

الرؤية وانقشاع الضباب أدركتُ ما يتحدث عنه. عيناه تزداد لمعانًا وهو يتحدث عن مناقب العائلة، وعن فلان وعلان الذين يعرفهم جيدًا، وقد استضافوه أكثر من مرة، وهم شخصيات مهمة تفعل كذا، وكذا، وكذا.

هذا رجل صادق بالفعل. أزعم هذا، إنه فخور بالعائلة بحق، يراها شيئًا مقدسًا. لكن ليست العائلة التي أعرفها أنا. إنه فخور بالعلامات البارزة فيها، ويفخر أكثر بأنه يعرفهم ويعرفونه. راح يتحدث لساعة إلا ربع تقريبًا، وأنا أقول لنفسي أن والدي تأخر لأنه مشغول بتأدية صلاة التراويح، ثم تذكرتُ بأننا لسنا في رمضان أصلًا؛ فأدركتُ الفخّ السخيف الذي وضُعتُ فيه.

مما سرني أنه لم يسمح لي بقول كلمة واحدة. حماسه ألغاني شخصيًا وجعلني أشبه بظلّ له. نظرتُ بطرف عيني فوجدت أن أختي سمية تتثاءب بملل، بينما أمي جوارها قد أسندت رأسها على مسند المقعد، وغفت لدقائق. ابتسمت سمية وقد وجدت فرصة لكي تردّ ثأرها من أمي وهمت بإيقاظها، لولا أن باب الشقة قد انفتح برفق، جعل والدتي تستيقظ.

دخل أبي يفرك يديه، وهو يقول مستبشرًا:

"أرجو أن تكونا قد تحدثتما بما فيه الكفاية".

لم أجب، واكتفيتُ بابتسامة بسيطة معبرة عن الموقف كله. فبدا عليه الإحباط. بالنسبة له هذا عريس جيد. جيد جدًا.

***

مفكرتي العزيزة....

العريس التالي كان يعمل في طائفة المعمار، من النوع الذي يبصق في الخفاء، والذي يحاول بقدر الإمكان أن يكون متحضرًا. يبدو من حلته الفاخرة، والعرق الذي يسيل من عنقه أنه لم يعتد لبسها. لا بُدَّ أن أحدًا ما أخبره بأن يكون رسميًا وقورا.

كان يتململ في جلسته بشكل يؤكد بأنه يفعل هذا الأمر على مضض. غالبًا ينفذ طلب أمه التي تريد أن تفرح به، أو أبيه الذي يريد أن يرى أحفاده. في منتصف الثلاثينات. لاحظتُ أن ما بأسفل عينيه منتفخ بشكل غير طبيعي. مدمن للخمور أو المخدرات، أو كليهما معًا. هذا الرجل شهواني يعيش حياته بالطول والعرض. ستكون حياتي معه نوعًا من الإقامة في الجحيم!

***

مفكرتي العزيزة....

أحب الشتاء.

أعتقد أنه لا توجد فتاة لا تحبه. البرد الممتزج بالضباب، والمنتشر كأشباح أسطورية تتسرب من خلال أنفاسنا، والبحث عن شيء ما ساحر نتوق له، وإن كنا عاجزين عن تحديد ملامحه.

أحيانًا أقول لنفسي بأن ما يعطي لحياتنا معنى أننا نبحث عن ذلك الشيء الغامض، فماذا لو كففنا عن البحث؟ قرأتُ بأن المترفين الذين يشعرون باليأس، ويفكرون جديًا بالانتحار يتم حقنهم بمرض الملاريا، حتى يرغبوا في الحياة!

في ذلك الجوّ البارد المشبع بعاطفة ما غامضة: ظهر نادر.

ذات ليلة وجدتُ أحدهم يضيفني على الفيسبوك؛ ولأنى عادة لا أقبل أحدًا إلا عند تفحص بروفايله الخاص، فقد كان هذا الأخير غامضا؛ بلا صورة، أو معلومات شخصية، لكن تعليقاته الذكية على بوستاتى جعلتني أقرر قبول الإضافة بالفعل، وبعدها تقابلنا افتراضيا لأول مرة من خلال تعارف استمر لدقائق معدودة، لو جاز أن أطلق على ذلك لفظة "مقابلة".

متعة التعارف التي لن تحطمها تأتأة لسانك، أو قلة خبرتك، أو حماقتك المندفعة دون تدريب. الإنترنت فلتر جيد للتخفي أيضًا، واعتصار أفضل ما لديك؛ فأنت مرح، وحكيم، وسريع البديهة، وقوي الشخصية بغضّ النظر عن الواقع، فهذا أمر آخر.

لكنني لا أعرف بالضبط ما الذي حدث. قلبي البكر الذي لم يحب من قبل؛ صار ينبض بعنف عندما أراه Online على الماسينجر. هذا شيء يفوق السحر. يفوق تخيلات العقل. ولَهٌ لا أعرف كيف أصفه.

لو أخبرني أحدهم أنني سأحب شخصيا افتراضيا لم أره؛ لاتهمته بالمبالغة!

***

مفكرتي العزيزة...

كنا نتقابل-أنا ونادر-كل ليلة على الماسينجر، محملين بأشواقنا العارمة. أقداح النسكافيه باللبن، التي تتصاعد أبخرتها في جوّ الغرفة الباردة، والتي سرعان ما يدبّ فيها الدفء، وكأنها تستشعر ما أشعر به. الساعات تمرُّ، تتساقط مثل حبّات ساعة رملية عتيقة.

الشغف يتزايد. العالم يكسوه شيء جديد لم أعهده من قبل: بهاءٌ، وجلالٌ، وجمالٌ، ودفء.

صار كل يوم له معنى، ومن خلال المحادثة الصوتية عبر الماسينجر تكلمنا؛ لكني لاحظتُ-في هلع-أني أفعل مثل الأخريات؛ لذا فقد اتفقنا أنه مهما حدث لا يُعطي أحدنا للآخر معلومات بخصوص اسمه بالكامل، أو حتى الحديث عبر الهاتف، كما يحدث كثيرًا في مثل هذه الحالات التي تتطور إلى قصص حب معقدة، وبرغم إنه يعرف وجهى من الصورة التي أضعها على بروفايلي، لكننا اكتفينا بذلك فقط، دون عناوين، أو أرقام هواتف، وإن كان صوته قد علِق في قاع جمجمتي،

لكني لم أترك نفسي للأمر، وهو ما ندمتُ عليه فيما بعد؛ عندما اختفي فجأة تمامًا كأنه لم يكن!

فقط يتبقى أمل واحد: أن نتقابل صدفة، لكن ما احتمال أن يحدث هذا في عالمنا الواقعي؟!

***

مفكرتي العزيزة....

كنتُ قد تجاوزتُ سن الثلاثين. الخط الأحمر، كإشارة منذرة بتساقط سنوات العمر من شجرة الحياة.

ورقة تتلوها ورقة. الخريف يقترب بجفافه المخيف، وهواءه الموحي بالعزلة، ورغم مرور عام على اختفاء نادر فما زال الوجع موجودًا، يختبئ في بقعة مظلمة في أرجاء الذاكرة، كشرخٍ عملاق ينشر تشققاته المرعبة في ذهني، ثم يتنكر في عشرات الصور، مرتديًا عشرات الأقنعة، لتضليلي وخداعي، لكنني أعرف أنه موجود وما زال يمارس دوره كأفضل ما يكون.

أشعر بحنينٍ طاغٍ إليه.

هل كان خيالي يقوم بإضفاء المزيد من القدسية والمهابة على ذكريات يقوم عقلي الخبيث بتحويلها وتحويرها بشكل يجعل من تحقيقها الجنة الموعودة؟

***

مفكرتي العزيزة...

اليوم ظهرت الشعرة البيضاء الأولي في مفرق رأسي!

كنتُ أقف أمام المرآة أصفف شعري عندما لمحتها تبرز فجأة، كعفريت يقفز من قمقمه دون سابق إنذار. أصابني الذعر حقيقة، وأنا أمسكها بيدي، وأجذبها بغلّ وبسرعة، وكأنني أخشى وجود أخوات لها في منطقة أخرى في رأسي. شعرة واحدة كافية لتقضّ مضجعي للأبد.

***

مفكرتي العزيزة...

لم يكفّ العرسان عن طرق الباب، ولم أكف عن رفضهم، حتى بعد ظهور تلك الشعرة، والتي احتلت أهميتها أولويات حياتي. فلأغلق عليّ باب حجرتي، ولأنفجر في بكاء أقرب للنهنهة، وأنا أرثي لحالي، ثم لأغسل وجهي، لأشعر براحة مؤقتة، أعرف جيدًا أنها ستذهب سريعًا وبعيدًا.

لكن " الزنّ" أمضي من السحر كما يقولون.

الكل متفق على فكرة واحدة: لا بُدَّ من زواجي.

أعرف أنني أشبه بعبء ثقيل على والديّ. وربما كانا سيتجاهلان الأمر لو كنا نعيش في جزيرة بعيدة، لكن الأقارب والجيران والمعارف يقومون بدورهم الأساسي في تغذية الفكرة، حتى أن والدي قد بدأ يتغير.

صار عصبيًا، ومستعدًا لإلقائي لأول عريس قادم!

بنات خالتي وشقيقتي سمية يحضرن بشكل مستمر للمنزل ومعهن أطفالهن، وكل واحدة منهن تجرّ وراءها قردين أو ثلاثة، يحملون في شقاوتهم أصابع ديناميت موقوتة، ولا يكفون عن الصخب والضوضاء،

وهو نوع من الضغوط الذكية يُمارس عليَّ دون كلام، لعلّ عرق الأمومة "ينقح" بداخلي، بينما والدي يقابلهن بسعادة، قبل أن يُدير رأسه إليَّ في لومٍ صامت يُجيد الآباء عمله مع بناتهم.

لكنهم-للأسف-لا يفهمون، ولم يحاولوا الفهم حتى.

أنا لستُ أميرة تعيش في قصور من الأوهام كما يقولون، بل أنا واقعية جدًا، وواقعيتي تجعلني شبه متأكدة بأن البحث عن كامل الأوصاف يعدّ حمقًا لا مبرر له.

لكني أقوم بتحليل الأسباب التي تجعل الفتاة تقبل من يتقدم لها. هناك من تقبل بسبب خوفها من ضياع العمر في انتظار ما لا يجيء، وهؤلاء أكثر واقعية مني، لكن هذه الواقعية من الممكن أن تدفع ثمنها غاليًا مع شخص غير مناسب لها، فتحت مسمي أنه "عريس لقطة/ غني/ مستريح" يكون هذا المقياس، وهو مقياس قد يثبت صحته أو خطأه في النهاية، لكن بعد مرور عشر سنوات على الأقل تدرك الفتاة فيها إن كانت عبقرية في اختيارها أو حمقاء!

لماذا أُضيِّق على نفسي الأمور هكذا؟

لأن هذا شخص سيعيش معي تحت سقف واحد، ولسنا طويلي الأعمار حتى نملك رفاهية التعلم من أخطاءنا. ربما أكون معقدة بالفعل، لكني مستعدة للقتال من أجل قضاء لحظة واحدة سعيدة بحق مع منْ أحبه، ثم ليحدث بعدها ما يحدث.

لحظة خارجة عن نطاق الزمن. لحظة صادقة تخرج من القلب مباشرةً غير مختلطة بشبقٍ مجنون، أو مصلحةٍ منتظرةٍ، أو مشاعر مزيفة!

تقولين أنى رومانسية؟ إنها تهمة لم أدفعها عن نفسي يومًا.

وهل هي تهمة أصلًا؟

أم أن السبب الحقيقي هو ظهور نادر في حياتي؟ السرّ الذي أكتمه بين ضلوعي، والحلم المستحيل الذي يتحرك بصخبٍ بين جدران جمجمتي؛ فلا هو يسكن ويموت، ولا هو يتركني ويرحل.

***

مفكرتي العزيزة...

لقد ضجرتُ مما أنا فيه. سئمتُ هذا الجحيم الذي يُصنع كل يوم في المنزل. إن الزواج أهون مما يحدث! ثم إن منظر الشعرة البيضاء لا يُفارق ذهني. فهل معني ذلك أن الشعرة البيضاء أول الطريق إلى الشيخوخة؟

هراء!

المقياس هنا ليست الظواهر الخارجية؛ فالزمن نسبي، وكمْ من امرأة عبرت إلى الأربعين، وما زالت في قمة شبابها، وكم من فتاة تجاوزتْ العشرين، وقلبها البكر-كما هو مفترض-قد شاخ وتهدل قبل الأوان بأوان!

إنه القلب؛ منبع السعادة والتعاسة. أعرف هذا، ومتأكدة منه.

لكنه الذعر، الخوف.

أنا فتاة، في النهاية فتاة. قد أكون قوية الشخصية فعلا، أو أتظاهر بهذا. جدار دفاعي ضد الآخرين. أتحصن بعيدًا عنهم. وراء جُدُر

اللامبالاة، والتعقل، والتهكم، تقبع سامية ضعيفة، هشة، كطيرٍ يحاول الطيران بلا جدوى، ويخشى أن يستمر هذا. كلعنةٍ لا فرار منها. رباه! هل جننت؟

***

مفكرتي العزيزة...

سأقبل بالعريس القادم دون شكّ. لن يكون أسوأ ممن مضوا. كل ما أرغب فيه أن يكون طيبًا، وعلى خُلق، ويقدس الحياة الزوجية، ولا بأس أن يكون مملًا، أو ضيق الأفق، وضحل الثقافة، وكل ما يهمه هو المرتب والبيت، وقضاء أسبوعين في بلطيم كل صيف.

لو حدث هذا، فأنا محظوظة بلا ريب.

وهكذا كنا في الصالة ننتظر قدومه.

لم تكن النافذة مفتوحة، وهذا لأنه لن يأت منها بأي حالٍ من الأحوال، ولم نكن ننتظر على سطح البيت، حيث السماء الصافية، وحيث يمكننا أن نلاحظ أية فجوة سحرية غريبة تنفتح فجأة في الفراغ!

كانت أعيننا معلقة بباب الشقة. أشيح بوجهي، في محاولة منى للهروب من الفكرة التي أتوجس خيفة منها، على الرغم من حتميتها. يرتطم بصري بالتليفزيون القديم ماركة توشيبا القابع بركن الصالة. والدي، سمية وحسن، ووالدتي التي انهمكت في إعداد الحلويات-هوايتها الأثيرة- ونحن نسمع صوت حركة الأطباق، والتي لديها قدرة أن تشتت تفكيرنا وشرودنا، مع كل طبق يتحرك.

أبي متوتر. أعلم هذا. صحيح أنه يرتدي حلته المفضلة، لكن أصابعه المرتعشة تكاد ترسم في الهواء سؤالًا مصيريًا، قد يبدو مضحكًا للوهلة الأولى: هل آن لذلك النحس أن ينفكّ أخيرًا؟

وطبعًا هذا النحس متعلق بشخصي: ابنته سامية التي لم تتزوج حتى الآن، ولو قال لي أحدهم أنك ستوافقينَ على مقابلة ذلك العريس الذي ننتظره؛ لاتهمته بالجنون.

لكن كل شيء جائز، ولا شيء يجعل فتاة تغير من استراتيجيتها، وتنقذ ما يمكن إنقاذه، سوى شعرة بيضاء تظهر في مفرق رأسها!

هذا هو التغيير الحقيقي الكفيل بقلب كل شيء!

... والآن، أنا مضطرة لتركك يا مفكرتي العزيزة، فجرس الباب يرنّ. يبدو أنه قد جاء!

***

الفصل الثاني

مفكرتي العزيزة....

أستطيع بضمير مستريح أن أخبرك بالعقدة التي تُوضع-غالبًا-في المنشار، والتي تتسبب في إيقاظ قرون الاستشعار عند الفتيات عمومًا، وقبل أن أخبرك عنها، يمكنني أن أمهد الطريق-يا عزيزتي-ببعض الومضات الماضية من معرفتي بالجنس الخشن، والذي يحرص أن يكون لائقًا بهذه التسمية.

النصيحة التي ينفذونها: هي أن تكون أي شخص إلا أنت! إن الظهور بشكل طبيعي يعد نوعًا من الحمق لا يجوز. لا بُدَّ من التظاهر بالمعرفة الكُلية بأي موضوع، والتسفيه منه في نفس الوقت، مع مسحة من التعالي والغرور، ولا بأس من سخرية مستترة توحي بالتحضر، لكنها تُخفي وراءها عقارب وثعابين من أخطر الأنواع!

كل من تقدموا لخطبتي من قبل كانوا هكذا، حتى صرتُ خبيرة-كما أخبرتك من قبل، فأنا لستُ سهلة الهضم أبدًا، على الرغم من أنني

كائنة إنترنتية في المقام الأول-بتعبيرات وجوههم، وكلماتهم، وبدلًا من اهتمامي بما يُقال، فأنا أهتم بما لم يُقل!

ماذا عليهم لو كانوا كما هم؟ وإن كان البعض يقول بأنه يتجمل لكنه لا يكذب، لكني أؤكد لكِ بأنهم يكذبون بالفعل!

الكذب ليس مخالفة الواقع فحسب، لكنه أيضًا التحايل والمبالغة، مع علمي الأكيد بأنه لا توجد كائنات هكذا إلا في حالة واحدة: الغباء البسيط أو المركب!

عودة مرة أخرى لبطلي المحبوب: بطوط بحماقاته التي لا تنتهي، وأحلامه البسيطة التي تكون نتيجتها – غالبًا-كوارث مدمرة، وخاصةً لعمه البخيل دهب؛ فهو نموذج بشري قحّ، له ذكاء عادي غير ملحوظ، حتى في محاولاته لكي يكون لامعًا فهو مكشوف، ويثير الضحك أكثر مما يثير الغيظ!

طبعا ليس معني كلامي هذا أنني أريد تحقيق هذا النموذج في عالم الواقع، لكن ما أقصده أن التعامل بتلقائية مهما كانت مستهجنة أو قبيحة أو مرفوضة مصدر قوة هنا، وتعزز ثقتي فيمن هو واقف أمامي.

كل من تقدموا كانوا مزيفين بشكل أو بآخر!

مرة أخرى أستسلم لأصابع أختي العبقرية في إضافة طبقة طلاء قبيحة للجلد. خطر لي وقتها أنني لا أختلف كثيرًا عنهم؛ فأنا أفعل مثلما تفعل الفتيات في مواقف مماثلة، والظهور بشكل مختلف (حتى لو كان ظاهريًا) أمام العرسان. أعتقد أنه نوع من الزيف! أليس كذلك؟

هذا ما دار في ذهني وأنا أجلس أمام العريس الجديد...

كان قادمًا مع والديه: سيدة طيبة لطيفة، تبدو من عائلة أرستقراطية، مع احتفاظها بالطابع المصري الأصيل البعيد عن الافتعال والتصنع، وكان هذا-فيما يبدو-غير موجود بالأب أساسًا؛ فقد راح يرمق المكان حوله في" قرف"، ثم يدير رأسه ناحية زوجته، وكأنه يقول لها بلغة النظرات: "**هل هذه هي مشورتك السخيفة؟**".

فتنظر له في لومٍ وعتاب، فيعود لرسم الابتسامة اللزجة على شفتيه.

يبدو أنه قام بإلصاقها بغراء أصيل قبل مجيئه!

أما من عليه العين-والنوايا علمها عند ربي-فقد كان يجلس أمامي، وقد حطم مرآه أي تصور سابق، وهذا ما يؤكد بأن الحياة ما زالت مليئة بالمفاجآت:

متوسط القامة، بدين بعض الشيء، يميل رأسه للصلع، في منتصف الثلاثينات تقريبًا، ولديه كرش صغير ظريف، يحاول بقدر الإمكان السيطرة عليه من خلال شدّ الحزام حول وسطه، لكن محاولاته باءت بالفشل، وهو يعبّ الهواء بشراهة من لم يتعود على هذا!

يبدو أن لديه مشكلة أملاح؛ فقد راح العرق ينمو على جبينه (تذكري أننا في قلب الشتاء) وهو ينظر حوله كفأر في مصيدة.

حاولتُ أن أُخفي ابتسامة، لاحظتها أمي؛ فلكزتني لكي أنتبه.

لا بُدَّ أنها ظنت بأن نوبة العته سوف تتجسد على وجهي الآن، في ظرف حرج دقيق يتطلب منى أن أتحكم في ملامح وجهي، وإلا طار العريس بلا رجعة!

كان العريس يتحاشى النظر لوجهي، ولستُ أدري السبب في الواقع، هل هو الخجل أم أن هناك سببًا آخر!

حلّق طير الصمت فوقنا، حتى أنني سمعتُ ضربات أجنحته وهي تمزق حُجُبِ الفراغ، وخيّل إلى أنني لو رفعتُ رأسي لرأيته يحوم حولنا بشكل مزعج! هناك ارتباك. ارتباك من نوع مختلف لم أعتدْ عليه من قبل.

المفروض (وليس كل ما هو مفروض يتحقق) أن العريس المتقدم هو من يملك زمام الأمر، ويتحدث بطلاقة مبرهنًا أن حظنا السيئ سيتغير فور موافقتنا عليه، حيث أنهم يستخدمون العديد من الاسطوانات، التي تتكرر بشكل متشابه، مع بعض "التلفيق" و"التدليس"!

مهم جدًا أن تكون أنيقًا، وأن تحافظ على مخارج ألفاظك، وأن تكون مجاملًا كريمًا، لكن هذا بشكل يبدو "عفويًا" دون اصطناع؛ فمنْ أمامك ليسوا مجموعة من الحمقى، وفي ذات الوقت أنت تحرص أن يكونوا كذلك بتصديقهم لك!

من المهم جدًا أن تضع النقاط على الحروف؛ فمسائل الشقة، والأثاث، وخلافه أشياء لا بُدَّ أن تكون واضحة، وهذا ليس من باب الصراحة والصدق، بل لأن أهل العروس مستغلون، ويتعاملون مع الأمر على أنه صفقة تجارية بحتة.

تبًا لهم! ألا يقولون بأنهم يريدون شراء رجل؟ ألستُ رجلًا في نظرهم؟ فليكن؛ فلتظهر رجولتي وصعوبتي في مثل هذه الأشياء!

ولو كان العريس منعدم الشخصية مثلًا، فلا بُدَّ أن له صديقًا وفيًا ينصحه بألا تتم "قرطسته" و"الضحك عليه"، و"تلبيسه العمة"، إلى آخر هذه الألفاظ الدارجة المخيفة، التي تنضح بقدر لا بأس به من "فهلوة" المصريين، وميلهم "للاستنصاح"!

لكن كانت هناك مفاجأة أخرى بانتظاري، ويبدو أنها ليلة المفاجآت حقًا:

أحب أن أنوّه أن والدته كانت أكثر من تكلم في تلك الجلسة: كانت حميمية، وطلقة في الحوار، حتى أنى نظرتُ حولي لأجد الجميع يحدق فيها.

هذه المرأة تقوم بعمل تنويم مغناطيسي لعائلتي!

أما العريس "المدهول" فقد كان لا يزال يمارس هواية النظر حوله متشاغلًا أو محرجًا دون أن يركز في شيء بعينه، وهو هنا يختلف تمامًا

عن العريس السابق ذكره، صاحب العينين البراقتين، والذي كان ينظر إلينا، وكأنه يمارس هو الآخر تنويمًا مغناطيسيًا لمن حوله!

كانت كلمات السيدة بسيطة وواضحة:

"نتشرف بالقرب منكم، وطلب يد ابنتكم سامية لابننا أمجد"

كانت سمية تقف متظاهرة بالأدب، وأنها في انتظار أي طلب مفاجئ: كوب ماء، أقداح الشاي، قطع الحلوى، لكن الواقع أنها كانت تمارس وظيفة أخرى وهي أن تكتم ضحكاتها. في مثل هذه الظروف تحدث مفارقات عديدة، ولأنها لا تتمالك نفسها أصلًا في حالات الضحك أو الغضب (في الحالة الأولي ندفع نحن الثمن، أما الحالة الثانية فإن زوجها المسكين هو من يدفع الثمن)؛ مما يجعل وقوفها خلف العريس وأهله قرارًا حكيمًا.

كانت تقف، وهي تشير لرأسه بمعني أنه أليس من الأفضل أنه يتحدث هو؟

أليس هو العريس؟

يبدو أن والدي لاحظ نظراتها، وتلويحها بيديها؛ فرمقها بنظرة غاضبة، ويبدو-أيضًا-أن والد العريس قد لاحظ نظرات والدي إلى أين تتجه، فصّوب نظره إلى المصدر، والمصدر وقتئذ-سمية-كان يقف بذات الوقفة المؤدبة، والابتسامة التي لم تكن لزجة على الأقل مثل والده.

تكلم والدي بأن هذا شرف له، وأن البنت بنتهم، والعريس يعتبر ابنه. إلى آخر هذا الهراء الذي لا ينتهي، والذي دخل قاموس المصريين باعتباره من دُرر الحكمة!

"كل طلباتكم مجابة دون نقاش".

قالت أمه هذا، فردت أمي مؤمنة:

"أهم شيء راحة البال والرضا".

تدخلت سمية في الحوار، وقد وجدت أنه من اللائق أن تقول شيئًا، وإلا أُتهمت بقلة الذوق:

"والقبول. أهم شيء القبول".

وجم الجميع، وأمكنني أن ألمح بطرف عيني الطائر إياه يعود للتجسد في سماء الحجرة، لتعرف "سمية" بأنها قالت شيئًا من المفترض ألا يُقال.

"هلاك الأحمق تحت لسانه" من قال هذا؟ لا بُدَّ أنه مثل عربي عبقري آخر! هنا قالت والدتي شيئًا كان عليه أن يبدد الضباب الذي راح يغرقنا رويدًا:

"سامية طباخة ماهرة".

جملة أخرى زادت الطين بلة، وأنا التي بيني وبين المطبخ ما صنع الحداد، وإن شئتِ فقولي حرب داحس والغبراء!

هذا نوع من "التزويق" والتجميل؛ فالعروس لا بُدَّ أن تكون طباخة جيدة، وهو منطق أفهمه على أساس أن الطريق إلى قلب الرجل هو معدته، ومن ثَمّ تنفتح كل الأبواب المغلقة!

وكانت خاتمة القول صادرة من والدة العريس، وهي تبتسم:

"فلترينا عروسنا الجميلة شيئًا من مهارتها في الطهي".

***

.. وهكذا -يا مفكرتي العزيزة-تجدينني في المطبخ، أقف حائرة، وأنا أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني! لو كنتُ الآن في الصحراء سيكون من السهل أن أحفر مترين في متر وأتكفل بدفن نفسي حية!

لم أتعلم الطهي من قبل، ولم يكن السبب هو أنني من دعاة دخول الرجل للمطبخ بدلًا من المرأة، ولكن السبب يعود إلى أن أمي ربة بيت ماهرة لم تترك لنا فرصة-أنا وسمية-للتعلم في المطبخ، والحق أن سمية عانت بعد زوجاها، لكنها تعلمت بعدها بفترة قصيرة، ولأن النحس يختص بي أينما ذهبت، فلا بُدَّ أن يُجرى لي اختبار أنا بالتحديد!

لكن-كما هو المفترض-أنني لن أقوم بعملية الطهي نفسها؛ كل ما هنالك هو إعداد العشاء بمفردي. من حسن الحظ أن والدتي لا تترك المطبخ إلا وهو عامر.

إذن فكل المطلوب مني هو تسخين الطعام، ووضعه في أطباق. كانت سمية تجلس هناك-حيث رأيتها، من خلال الباب المفتوح-وهي تختلس نظرة ضاحكة بدت واضحة من عينيها الواسعتين اللتين أوقعتا زوجها من قبل.

هكذا هي تقول، ولكنني لا أصدقها على كل حال؛ فدائمًا ما تُبنى علاقات الجذب والطرد على حوادث فردية، وصغيرة وغير مفهومة في كثير من الأحوال، وكأنه الحب من أول نظرة!

بالنسبة لذلك الغامض الذي يسمي الحب-والذي جربته من قبل، وما زال في غموضه كما هو يهزأ مني-، فقد صار بالنسبة لي اليوم أمنية مشتهاة، مثلها مثل القبر ذي المترين في متر!

من خلال الباب، -وأثناء بحثي عن الطعام في الآنية، وكشفي الغطاء عن إناء تلو الآخر-أمكنني أن ألاحظ أن العريس المحترم لم يحّرك ساكنًا!

غريب! هل هو رجل آلي شبيه بابنهما، بينما هو أصلًا يغطّ في المنزل في نوم عميق؟ لم نتقدم علميًا لهذه الدرجة، لكنني واثقة بأن الإنسان الآلي سيكون متجاوبًا ومتفاعلًا أكثر منه!

إنه لم ينطق بحرف واحد، ويبدو أن أمنيتي بخصوص رجل طيب، تقليدي نمطي قد تحققت! رباه! هل تتحقق الأحلام بهذه السرعة؟ ظللتُ سنوات أرجو ظهور نادر بعد اختفاءه.

جربتُ كل الطرق المتخيلة وغير المتخيلة. طرقت عشرات غرف الدردشة. نقبتُ في كل أحاديثنا السابقة، والتي أحتفظ بها في ملف خاص بها، وأقرؤها كل فترة حتى أعثر على معلومة واحدة تقودني إليه. بلا جدوى. طيف. سراب غامض أقضّ مضجعي. قلب حياتي بالكامل، ثم تركها فوضوية!

رحتُ أسُبّه في سريّ، وأنا ألومه وأحمّله مسئولية ما حدث، وراق لي الأمر؛ فقد رحتُ أحمله بقية مشاكل العالم!

أعرف أن هذا غير منطقي، لكنني شعرتُ بالراحة.

حاولت أمي أن تبعث شيئًا من الدفء في الجلسة الباردة؛ فقالت وهي تنظر للعريس بلهجة ذات معني، وتحمل قدرًا هائلًا من التسامح والتفاهم:

"يمكنك يا بني أن تساعدها في إعداد الطعام".

"رائع!".

هذا ما فُتح به على عريس المستقبل، ونهض وهو يعدل من بنطاله، ويتأكد من الحزام حول وسطه. ثم تبدَّى لي خاطر مفزع؛ خاطر جعلني أتراجع للخلف، وألتصق بالجدار البارد.

مضت نصف الساعة تقريبًا على وجودي هنا، لم أُنجز خلالها الكثير. لا بُدَّ أن أمي عبقرية إذن! مضت نصف ساعة على وجودي هنا، أمكنني من خلالها أن أستعيد مشاهد رأيتها-من خلال الباب المفتوح- سابقًا، وبالتحديد في الدقائق الماضية.

وجه والدتي الشاحب رغم ابتسامتها المجاملة البشوش في وجه الضيوف. والدي يمسك بمسبحته، ويداه المرتعشتان تزداد سرعتهما: واحدة في عدّ الحبّات، والأخرى يقلبها ظهرًا وبطنًا، وقد بدت لامعة من بعيد. العرق الخفيف ينزّ منها كما هو واضح. حسن وأختي سمية يتابعان الموقف بنوع من الترقب. الكلّ يريد لهذا الأمر أن يتمّ. الكل يريد التخلص مني/الاطمئنان عليّ/ إراحة ضمائرهم، وكأني عبء ثقيل يجب إزاحته بسرعة!

الآن أفهم السبب الذي يجعل القناصة يعيشون تجربة نفسية مروعة مع أول شخص يقتلونه بغضّ النظر عن كونه مجرمًا أم لا. الضمير وثقله أقوى سلاح نفسي يستطيع تدمير المرء بكفاءة تامة. بشكل أو بآخر يشعرون بتأنيب الضمير. مع كل مرة يأتي أقاربي للبيت، ومعهن أطفالهن يتجاهلن النظر لوجهي، حتى لا يشعرن بفداحة الأمر وكأنهن يتحملن جزءًا من المسئولية!

كدتُ أصرخ فيهن أن ذلك كان باختياري، لكنني أعرف أن هذا نوعًا من العبث. وكأنه لذة جلد الذات وتعذيبها هدف في حد ذاته!

لكنى تغيرت. لم يعد ذلك العناد الذي أتميز به يحركني. صرتُ هشّة. إناء من الزجاج يقف على حافة جبل. تكفي هبّة ريح خفيفة لكي يتحطم. ليس من المهم أن يهوي في الأعماق السحيقة. حصاة واحدة كافية لتدميره. شعرة واحدة بيضاء غيرت كل شيء. لكن هل هي الشعرة البيضاء حقًا، أم أن الأشياء تتنكر في العديد من الأقنعة والأشكال الخادعة؟

هل أقنع نفسي بأن السبب الشعرة البيضاء، أو "زنّ" الأهل على مسامعي؟ أم أنني قد يئست من عودته؟ لماذا أكون وفيةً لشخص لم يعدني أصلًا بشيء؟ أليس هذا من الحمق؟ لكننا نرتكب في حياتنا العديد من الحماقات. سلسلة طويلة من القرارات البسيطة أو المعقدة تقوم بتغيير حياتنا بالكامل. تأثير الفراشة كما يقولون؛ حدث صغير كفيل بتغيير الحياة جذريًا.

الحق أننا نواجه هذا كل يوم. ما حياتنا إلا احتمال واحد من ملايين الاحتمالات التي نقابلها كل يوم، ونختار منها احتمالًا واحدًا. لو لم تقابل سمية زوجها في العمل ما كان لها أن تتزوجه، وما كان لشرارة الحب أن تنطلق بينهما كلمسةٍ من عصا ساحر. صحيح أنها ربما نادمة على اختيارها هذا، وتصورها بأن حلم الزواج من رجل أعمال سيبعدها عن شبح الفقر والعوز.

الحياة مليئة بملايين الاحتمالات، لكن أعمارنا قصيرة، وذكاءنا محدود، وطيشنا أقوى، ومع ذلك كل يوم نبحث عن السعادة كما تسير

السلحفاة بتؤدة وكأن الخلود ملكًا لها، مع العلم أن السلحفاة تمتلك حكمة لا نملكها نحن!

عودة لنظرية الاحتمالات/ الطريق الذي لم يُسلك: تُري لو لم أقبل الحديث مع نادر في تلك الليلة الموغلة في الزمن هل كان من الممكن أن تأخذ حياتي منحىً آخر؟

لو لم أقابله لم يكن لهذا الوجع أن يُوجد بداخلي، مثل مرض لا يُرجى شفاؤه. أرجو أن يكون سعيدًا أينما كان رغم أنه تسبب في تعاستي. لكن. لكن هل تسبب في تعاستي حقًا، أم أنه اختياري وأنا مسئولة عنه؟

كان من الممكن ألا أتمادى معه. ألا أترك نفسي على سجيتي. أكبح جماح تلك الرغبة المجنونة في تذوق طعم الحبّ الحريف.

كان من الممكن أن يحدث هذا وأكثر، لكنني في الواقع أردت ذلك. أردته بشدة. وإذن فلا ألومن إلا نفسي. وها أنا ذا في المطبخ أقوم بدورٍ سخيف أنا كارهة له أشد الكره، وأرى بعيني العريس يتقدم مني محاولًا السيطرة على رجرجة كرشه الذي بدا لي أضخم هذه المرة!

لم أمنع نفسي من الضحك. من حسن الحظ أنني سيطرت على نفسي لكن بصعوبة. يبدو أنه كاره لهذا الدور، أو أنه لم يتقدم لفتاة من قبل. هذا العرق الذي يواصل سيره من رأسه الأصلع على وجهه، وكأنه قد دهنه لتوه فصار براقًا لامعًا. أجيد تمييز الغباء أينما كان، ولا شكّ أن عريسي من ذلك النوع.

يا لي من محظوظة!

لقد تحققت أمنيتي إذن. قلتها لنفسي على سبيل التعزية والمواساة. حياتي الحائرة تنتهي بشكل أبسط مما كنت أتخيل.

"معذرة. لكنهم أصروا على أن أشاهدك وأنتِ تجهزين الطعام".

قالها بارتباك؛ مما جعلني أتفحص وجهه بجرأة؛ جعلته يخفض عينيه حياءً. ابتسمتُ وقلت مشفقة.

"لا عليك. إنها طقوس سخيفة".

"أنا أحب الطعام".

قالها بتلقائية، وهو يمرّر لسانه على شفتيه، دلالة على عشقه المبرح هذا!

عيناه معلقتين بالأواني المغطاة، والرائحة الشهية التي تنبعث منها.

قلت وأنا أختلس نظرة لكرشه الصغير:

"حقًا؟".

"أجل. الطعام يشعرني بالسعادة".

قلت بإحباط وهو أنظر لكرشه بتركيز، والذي وددتُ لحظتها أن أمزقه بسكين المطبخ الحادة. لا بُدَّ أن بالداخل أمعاء غليظة جدًا والكثير من الغباء. الكثير جدًا:

"هذا يسعدني".

فرك يديه بحماس:

"هل سأنتظر كثيرًا؟".

"تنتظر؟".

قلتها باستنكار؛ فحدق في وجهي ببلاهة، ثم قال مضطربًا، وهو يلوح بيده لما خارج المطبخ:

"أقصد ننتظر. كلنا ننتظر".

شعرتُ بحنق، لكن هذا لم يمنعني أن أستدعي في ذهني نظرية الاحتمالات. سأكون زوجة لذلك الشخص، الذي كل تفكيره منصبّ في الطعام. يبدو أنه مقتنع تمامًا أن الطريق لقلب الرجل هو معدته. هنا حسمتُ قراري. لن يكون هذا مصيري. لا بُدَّ من التخلص منه فورًا أرى في الأفق حياتي معه، وهي كئيبة بكل المقاييس!

خطر لي أنني لستُ في مزاج رائق من أجل الكفاح والنضال ضد رفضه. لا بُدَّ من أن يرفضني هو. لا بُدَّ أن يشعر بأنه محظوظ لأنه لن يقترن بواحدة مثلي. واحدة خرقاء. ابتسمتُ بشكل خبيث ذكرني بأفلام الكارتون التي أدمنها. قلتُ له:

"ساعدني في إعداد الطعام إذن. أربعة أيدي خير من اثنين".

شمّر عن ذراعيه في سعادة، وهنا أمكنني أن ألاحظ الجروح القطعية بمعصميه. لاحظ نظرتي المتسائلة؛ فقال وهو يبدو محرجًا:

"قطتي المفضلة "بسبس" تهورت وقامت بـ"خربشتي".

"بُسبس!".

"إنه. إنه اسم الدلع".

رميته بنظرة ملتهبة؛ فازداد حرجه. عرفتُ هذا من العرق الذي راح ينزل أكثر من تحت عينيه هذه المرة. هل هو حرج أم أنه جو المطبخ الدافئ؟! سأحلّ هذا اللغز الفيزيائي فيما بعد. أنا الآن منهمكة في إعداد خطة من أجل "تطفيش" الكرش وصاحبه.

رحتُ ألقي إليه أوامري، مستمتعة بذلك الاضطراب الذي راح يسري في يديه المرتعشتين كصاعقة كهربائية، ولم أمنع نفسي أن أختلس نظرة للخارج؛ فلاحظتُ-برغم تظاهرهم بالكلام وعدم الانتباه إلينا-أنهم سعداء بذلك التقدم الهائل، ويبدو أنهم تغاضوا عن مسألة رضا الفتاة من سكوتها ونظرها للأرض، واكتفوا بما يرونه الآن.

أحمل غطاء الإناء النحاسي الساخن بقطعة قماش نظيفة، لترتطم بكفه. صرخ كفتاة صغيرة من شدة الحرارة، وهو يقفز كطائر اللقلق، وبسبب وثبه المجنون هذا اندلقت الحلة بما فيها على الأرض، وأصابه جزء محترم من الطعام الساخن في بطنه!

يبدو أن الطريق فعلًا لقلب الرجل هو معدته بغضّ النظر عن المسار. وقبل أن يتخذ من بالخارج رد فعل مناسب للتأوهات التي يسمعونها، كنت أمسك بالمكنسة ذات العصا السميكة، ودفعتها في جنبه بغلٍّ مكتومٍ؛ فسقط على الطعام كله، وهو يتلوى كدودة طينية. يبدو أن الطعام الساخن قد أصابه بحروق شديدة. نظرتُ بطرف عيني؛ لأجد الجميع ينظر مبهوتًا لهذه المهزلة.

أمي تقول بصوت غير مسموع:

"أيتها المجنونة!".

بينما والدي يرمقني بنظرة غاضبة وهو يساعده على الوقوف، بينما بدا أبوه-للغرابة-مستمتعًا بالمنظر، وتوقعتُ أنه سيصافحني ويشدّ على يدي محييًا لأنني قدمتُ له هذه الخدمة، لكنه يبدو أنه قد تذكر أنه

والده، وأن عليه أن يُظهر رد فعل مناسب؛ فقلب شفتيه في أسف مصطنع، ويبدو أن هذا هو أقصي ما وصل إليه. أمه تحتضنه برفق، وهي تنظر لي بغيظ، بينما أنا أبدو مسرورة بشكل يؤكد خبلي. كانت ردود الفعل المتباينة المرتسمة على الوجوه تؤكد أن هذا الأمر منتهٍ لا محالة إلى طريق الفشل. البدايات تدلّ-غالبًا – على النهايات، وقد صار والدي على يقين بأنه سيحظى بابنة عانس تحت سقف بيته، تشعره حتى موته بتأنيب الضمير لأنه قصر في تزويجها. هنا كان رد الفعل المختلف غير المتوقع منه هو، من صاحب الكرش.

"حصل خير. إنه خطأي؛ فأنا من أوقعتُ الإناء".

كان رد فعل غريب. جعلني أقف متسمرة. هنا راحت ردود الفعل القلقة تتحول للارتياح. وهنا شعرتُ بذلك الأمر الذي تشعر به كل سمكة تجد نفسها في شباك صيد لم تتوقع وجوده، أو مجيئه!

***

مفكرتي العزيزة...

جلستُ بجواره والأضواء تكاد تصيبني بالعمى. هناك ضجيج عال. أنا أكره الضجيج، حتى لو كان في ليلة خطوبتي. الفرح على وجوه الجميع. ما عدا أنا. هناك ابتسامة فاترة على شفتيّ ظللتُ ساعات أرسمها على وجهي أمام المرآة، حتى أتقنتها!

المفروض أن أشعر بالسعادة. لكن هذا لم يحدث. وأيضًا لم أكن حزينة. صار الارتباط بالنسبة لي متعادل الكفتين. ما المانع أن أجرّب؟! أعلم أنكِ حائرة بشأني؛ فكل يوم أنا برأي؛ فمرة أرفض، ومرة أخرى أتوقف متذبذبة!

أخبرتكِ أنه الجحيم. لا أحد يحبّ الاختيار. فلتحضري شخصًا، وضعي أمامه ثلاثة طرق كلها تقود للنجاة، وأخبريه أن كل الطرق سواء، سيتوقف في مكانه كالأبله دون أن يتحرك قيد أنملة، على الرغم من تساوي الفرص، فما بالكِ بمن يعرف أن هناك طريقًا واحدًا يقود للنجاة؟ لعبة الروليت الروسية من أخطر الألعاب المميتة؛ عندما توضع في ساقية المسدس الدوارة ذات الست خانات رصاصة واحدة.

رصاصة واحدة تنطلق بعشوائية لتكتب لصاحبها الموت أو الحياة من جديد!

في وقت ما كان العرسان يتوافدون. والآن تقلصت الفرص. ربما يكون أمجد هو الأخير في تلك السلسلة الطويلة. أكره الوحدة. أعلم أن والديّ لن يظلا للأبد معي، وأن الجميع سيستقل بحياته الخاصة، بينما أمضي أنا حياتي وحيدة غارقة في خواطري المفزعة التي تفيض كآبة وحزنًا.

ألتفتُ إليه؛ فأجده يجلس والفرحة بادية حقًّا على وجهه. يرتدي حلة فضية ذات لون مزعج تكاد تصيبني هي الأخرى بالعمى. ذوقه فاسد تمامًا. ويبدو أنه قام بعمل قناع لبشرته، لأنني لاحظتُ وجود بعضًا من الكريم تحت أذنه. إنه أشبه بمهرج، وهو يصفق بيديه كالأطفال.

تدخل بعض أقربائي وحاولوا سحبي من أجل الرقص. رفضتُ بحزم وأنا أجزّ على أسناني. هنا تراجعوا ثم ولوا وجوههم ناحية أمجد الذي لم يمانع في النهوض. أين تذهب أيها الأحمق؟ خطر لي أنني سأضحك

كثيرًا، وأنا أراه يتقدم لوسط الحلقة بكرشه الذي يبدو لي كل يوم أضخم من اليوم الذي يسبقه!

كرش عجيب لو أخذتِ رأيي، لكنه-للعجب-كان يرقص برشاقة مدهشة لا تتناسب أبدًا مع وزنه!

كانت سرعته في الرقص عجيبة لدرجة أن من يرقصون حوله من الرجال راحوا يلهثون بينما هو كان العرق يغسل وجهه، لكن دون أن تبدر منه علامة تدل على تعبه.

أُخذتُ بالمنظر، على الأقل توجد أشياء فيه تجعلني أندهش. هذه علامة جيدة. هناك مشهد عبقري في فيلم حاتم زهران يقول فيه البطل للبطلة بأنهما لا يصلحان للارتباط، والسبب أنهما يعرفان بعضهما جيدًا. خطر لي أن بعض الغموض في شخصية أمجد-حتى لو كان متمثلًا في قدرته على الرقص على الرغم من ثقل وزنه، وكرشه-فهو شيء لن يضرّ.

وجدتني أندمج مع الحضور، وأبدأ في التصفيق معهم بشكل منغم. أكره الضوضاء وأعرف أنني سأصاب بصداع بعد ساعات، لكن شيئًا فشيئًا وجدتني أستمتع. أتفهم هذا جيدًا.

ذات مرة حضرتُ فيلما كوميديًا سخيفًا في السينما مع بنات خالتي، وكنتُ أضحك معهن بهستيريا. اندهشتُ فيما بعد، وظلّ رأيي كما هو أنه سخيف. خطر لي أنه ما دمتُ قادرة على الاندماج لساعات في هذا الأمر-وأنا بالفعل مستمتعة، على الرغم من عدم شعوري بشيء، وهو أمر غريب وغير منطقي لكن من جربوه يعرفون أنه يحدث-فيمكن جدًا أن أستمتع بموضوع الخطوبة.

***

مفكرتي العزيزة...

تمرّ الأيام كما عهدتها من قبل، لكن بشكل مختلف هذه المرة. اليوم صرتُ أرتبط بأحدهم. لا بأس به، ويجعلني أضحك من قلبي بسبب حماقاته. لكن فور أن أعود للبيت يتلاشى من ذاكرتي. يغدو حلمًا باهتًا ضبابيًا لدرجة أنني اسأل إن كان موجودًا بالفعل؟ لكن نظرة للدبلة

الملتفة حول إصبعي كأفعى تؤكد لي بأنه موجود، ويشغل حيزًا على هذا الكوكب. لكني مللتُ من انتظار أشياء لن تحدث، على أمل أن تحدث بالفعل!

الحياة قصيرة ولا تحتمل.

***

... وهكذا-يا مفكرتي الحبيبة-تجدينني في ذلك المطعم اللطيف على النيل. الواقع أنني أتيتُ عدة مرات مع أمجد حتى صار مكاني المفضل. هدوء، ورائحة الياسمين تعبق الجو. يبدو أن المقصود منها هو التأثير على حاسة الشمّ لدى الزبائن.

الرائحة أكثر ما يعلق بالذاكرة بعد أن تتلاشي الصور والذكريات.

اسأليني أنا التي راحت حالتي تزداد سوءًا. ما زالت الذكريات تتساقط من ذهني. أجلس قبالة أمجد، والذي بدا مهتمًا بشكل فائق بقائمة الطعام، وبدا عليه الهمّ وهو يحاول أن يختار ماذا يأكل؟

ابتسمتُ على الرغم مني.

هذا هو شاغله الحقيقي بالفعل. الطعام. حتى أنه حاول ذات مرة أن يقنعني بأن أعدّ له وجبة خاصة، لكنني تملصتُ منه، وقامت والدتي بهذه المهمة مشكورة، وأتذكر وجهه وهو يجلس فاركًا يديه، وعيناه معلقتين بباب المطبخ المفتوح، والرائحة الشهية تغادره لتقلب أمعاءه.

كان قد أهداني هاتفًا نقالًا جديدًا، مشحونًا، وعيناه تلمعان بسرور، مترقبًا أن يكون نفس التعبير على وجهي، لكن كل ما فعلته أنى ألقيته في حقيبتي الصغيرة في جيب صغير فيها، وأنا أعرف أنى سأنساه هناك للأبد؛ إذ أن ذلك الجيب نادرًا ما أضع فيه شيئًا.

هنا، عندما سمعتُ صوتًا أعرفه جيدًا يقول:

"المكان ظريف هنا".

وخفق قلبي بعنف. لقد كان هو...

نادر!

***

الفصل الثالث

مفكرتي العزيزة...

أمجد ما زال يحدّق في قائمة الطعام. هذه هي مشكلته، أما أنا فمأزقي أشدّ وطأة. تتسارع دقات قلبي بشكلٍ كبيرٍلدرجة خفتُ منها أن يسمعها ذلك المنهمك في اختيار ملذات معدته.

صوته أتذكره جيدا؛ فقد التصق بقاع الذاكرة ولم يغادرها منذ أن كنا نتكلم على الماسينجر.

"مال واحتجب".

تبرز تلك الجملة-افتتاحية قصيدة مشهورة لأحمد شوقي-في ذهني دائمًا دون أن اسأل نفسي عن علاقتها بنادر، لكن يبدو أن كل شيء كان يتعلق به بشكلٍ أو بآخر. من الممكن أن أصف المشهد-يا مذكرتي العزيزة-كالتالي:

أجلس قبالة أمجد. المائدة بجوار نافذة تُطِلّ على النيل. صوته الساخر العميق ينطلق برصانة منْ لا يُريد أن يُضحك أحدًا، بينما كانت تصرفات أمجد الصبيانية هي ما تبعث على الضحك دون قصد؛ فنادر يختلف عنه بأنه سريع البديهة، لديه ذاكرة مدهشة، وخفة دم مهولة، ووصل الحد من تأثري به أنني ظللتُ فترة أقلده في طريقته في التعامل؛ أقول نفس جُمَلِه المفضلة. حتى أني تخيلتُ بأن لديه إيماءة خاصة به في مواقف معينة.

"مال واحتجب".

تبرز الجملة لتبرر ميل الخيال عندي لكي يملأ الفجوات الناقصة؛ فما لم يقله، وما لم أعرفه يظلّ أرضًا خصبة لعقلي لكي يركض فيها كيفما يشاء.

"مال واحتجب".

وها هو ذا يعود مرة أخرى من خلف حواجز الماضي بكل صخبه وحضوره. الفارق الوحيد أنه بشحمه ولحمه، ولا يختبئ خلف حُجب الغموض، وسلسلة لا متناهية من التخيلات والتوقعات، وكالعادة كان لقاءنا مختلفًا وغير متوقع.

ومتى؟

الآن؟!

للأقدار تصرفاتها التي قد تبدو لنا غريبة، لكنها تدخل في حيّز الاختبار والابتلاء. كما قلت سابقًا أن البشر يمقتون الاختيار عمومًا، فهو يعطيهم ميزة الرضا بما أُجبروا على السير فيه كما يظنون. كثيرون من يطرقون الأبواب واليأس والملل يكتنف نفوسهم المظلمة، ثم عندما ينبثق شعاع الضوء في آخر النفق تنفتح أبواب عديدة في وقت واحد، وبصخبٍ يصمّ الأذان!

إنه شيء مزعج يجعل المرء يقف حائرًا وهو لا يعرف ماذا يختار؟ ظللتُ فترة طويلة أنتظره، ثم عندما يئستُ من رجوعه من مملكته الخيالية (التي بنيتها في ذهني، على الرغم من قناعتي الشخصية أن

خيالي الخبيث يستغلني أسوأ استغلال، وكأنه ينتقم من نظريتي الخاصة بفارس الأحلام)، فها هو ذا يظهر أمامي.

يُولد من بقايا الذكريات، متمثلًا في كائن حقيقي من لحم ودم، وصوته المميز يصل لمسامعي، على الرغم من أنني أولي ظهري له. من حسن الحظ إذن أنه لم يرني. ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ أرفع بصري إلى أمجد. في يده قلم رصاص، وقد بدا أنه اختار أخيرًا ما سيأكله؟ يا له من محظوظ!

يبدو أن الجهل نعمة بالفعل!

أنا مرتبكة. أشعر برغبة مجنونة في فعل شيء ما. لكن المكان غير مناسب هنا. نهضتُ، فقال أمجد وهو يرمقني بدهشة:

"إلى أين؟".

"الحمام".

"ولم؟".

حدجته بغيظ، وهو ينظر لي ببلاهة، ثم قال وقد احمرّ وجهه خجلًا:

"لقد فهمت".

"أنت عبقري".

بدا عليه الفخر. لديه مشكلة معي في تحديد ما هو جاد، وما يدخل في نطاق السخرية. أسحب من الهواء نفسًا عميقًا، لعلي أتغلب على مشاعري التي تهدر كمحرك سيارة اشتعلتْ للتوّ، على حين غفلة من صاحبها.

أتجه للحمام. أحرص ألا يراني نادر. وجهي أستره بباطن كفي النحيلة. من بين أصابعي المنفرجة أمكنني رؤية وجهه لأول مرة: وجه وسيم، متناسق، وكان يتكلم في هاتفه النقَّال.

دقيقة مضت، ثم كنتُ بداخل الحمام. تأكدتُ من أنه لا يوجد أحد. ثم انفجرتُ في البكاء. بكاء صامت تقريبًا، إلا من بعض النهنهة. إنه فعل أمارسه ليمنحني الراحة والقوة في التغلب على ما يعتريني من مصائب. الدموع تسيل ومعها تسيل أشياء كثيرة، لكنني-هذه المرة تحديدًا-لم أشعر بالراحة. ربما لأن الأمر مختلف عما سبق.

" مال واحتجب، وادعيّ الغضب. ليت هاجري يشرح السبب".

كلمات أحمد شوقي تدويّ في ذهني بقوة مخيفة. رغبة تنمو بسرعة بداخلي، وأنا أجفف دموعي، وأرمي المنديل الورقي المبتل بالدموع في سلة القمامة، وأنا أعقد عزمي عليَّ "قطع عرق وإسالة الدم" دون أن أُدخل نفسي في دوامة التساؤلات.

الاختيار والحيرة كفيلان بالقضاء عليَّ تمامًا، ولا أريد لهذا أن يتحقق. أعبّ من الهواء نفسًا آخر. بحركةٍ تلقائية أعدّل زينتي.

أجرى حوارًا أخيرًا في ذهني مليئًا بالعتاب، ولا بأس بأن أضرب كتفيه، وربما يصل لصفعة قوية على خده. لا بُدَّ أن أفعل هذا. لا بُدَّ أن أمتص الرهبة بداخلي من ذلك اللقاء.

"أغدًا ألقاك؟ يا خوف فؤادي من غد. يا لشوقي واحتراقي بانتظار الموعد". كلمات أخرى تدوي في رأسي، لكن بصوت الست أم كلثوم هذه

المرة، وأنا أعلم بأن اللقاء ليس غدًا كما تقول القصيدة، بل بعد لحظات!

***

أسير متجهة للهدف. أخطو على سحابٍ متراقص. قلبي-ذلك الوغد الشامت-يخونني كعادته. ينبض أسرع من المعتاد حيث لا يصحّ أن يفعل ذلك، ويحب حيث لا يجب أن يقع في الشِباك. يتعامل بكل هدوء مع أمجد، وينقلب حاله عندما تأتي سيرة نادر!

ذلك الأحمق يتخذ قرارات تبتعد تمامًا عن المنطق، وكأنه يخرج لسانه للعقل معلنًا أن الغلبة له مهما حاول هذا الأخير أن يُحلل الأمور بمنطقية، واضعًا إياها في معادلات لا تحتمل الخطأ!

أسير متجهة إلى نادر الجالس وهو يوليني ظهره أيضًا، كأنما صدفة التضاد لم تمنع من حتمية اللقاء. من يراني سوف يجزم أنني عائدة لخطيبي.

لكنني في الواقع سأمرُّ به. حتمًا سأمرُّ به. نظرية الطريق لقلب الرجل من خلال معدته تتحقق هنا بشكل غريب؛ فلكي أصل إلى أمجد عليَّ أن أمرّ بنادر. العكس هو ما حدث. فلو لم أُخطب فلم يكن لنادر أن يظهر. عليّ أن أتخذ قرارًا سريعًا. أمجد أم نادر؟

أكملتُ طريقي إلى الأول. كنتُ مرتبكة ولم أكن في حالة تسمح بأن ألملم شتات نفسي.

هنا هتف نادر، وقد لمحني أمرّ بجواره:

"سامية! معقولة؟!".

"من؟ آ.. آ.. نادر؟!".

" لا أصدق! سامية! أهو أنتِ؟".

"بشحمها ولحمها؛ فلكَ أن تتخيل!".

" رُبّ صدفة خير من ألف ميعاد... تفضلي بالجلوس".

أتوقف. أرمق أمجد الذي يحدق في الموقف بغباء. فمه مليءٌ بالطعام، ويبدو أنه لم يضيّع وقته بانتظاري! كرتان تبرزان بشكلٍ مقزز في وجهه.

مرة أخرى أقارن بينهما، وكأني أعدّ العدة للانفجار في ذلك الشَرِّه.

تصرفاته السخيفة التي كانت تضحكني سابقًا بدت الآن كما لو كانت أخطاء قاتلة لا تحتمل السكوت.

المرأة ذات ذاكرة لا تنسى، حتى لو كانت مثلي. إنها تحتفظ بكل شيء. حتى لو تظاهرت بأنها قد نسيت!

فليحذر الرجال. فليحذر أمجد منى فيما هو آت. فليحذر نادر الآن من العاصفة المقبلة، والتي ستطيح به، لكني وجدتُ نفسي أصغي إلى صوته وهو يتحدث.

" أعرف أنكِ غاضبة مني، ومن اختفائي الغامض، لكن لي عذري. التمس لأخيك سبعين عذرًا. أليس هذا ما يقال في مناسبات كهذه؟".

قوس قزح يتخذ من وجه أمجد مسرحًا له. بل إن الطعام وقف في حلقه، وبدلًا من القيام ومساعدته وإعطاءه جرعة ماء (تدريب

مستقبلي للحياة الزوجية كما تعرف النساء)؛ فأنا أجلس الآن إلى حبيبي القديم الذي انبعث بوقاحة من الماضي.

أمجد يمد يده لكوب الماء ويتجرعه مرة واحدة. يبدو أن منظره كان مسليًا؛ فقد كان الجالسون يرمقونه بدهشة، ويرمقونني أنا أيضًا. لا بُدَّ أنهم قد خمنوا الأمر. هذا ما دار في ذهني لجزء من الثانية، قبل أن أقول على الفور لنادر (الذي ينتظر ردّ فعلي بتركيز زاد من ارتباكي، وجعل الرهبة تتضاعف بداخلي):

" لقد نفدتْ كل أعذارك".

امتقع وجهه. سرعة بديهته ليس مكانها الآن وسط تلك اللحظة المشحونة بالغضب من ناحيتي، ومحاولة التفسير من ناحيته.

كانت الإجابة قاسية. غير متوقعة فيما يبدو، وهذا سرني وكأنني أنتقم منه بطريقة ساذجة. ثم خطر لي شيء مفزع، خاطر راح يغرس مخالبه في ذهني، لكنني حاولتُ أن أتملص منه.

لو تركتُ نفسي لهذا الشيء فسيهدم الكثير مما كنت أفكر فيه؛ مما كان ينمو بداخلي بعد فترة اختفاءه الغامض. أنت يا نادر؟ أنت من كنت تتبعني؟ لم تكن قطة ضالة، أو كلب شرس، أو شحاذ يدق الأرض بعصاه، أو مراهق يتسلى بإفزاعي. كنتَ أنت!

وكأنما كان يسمع ما بعقلي:

"كنتُ معك يا سامية. أعرف ما يدور بذهنك. نذل وحقير وأستحق الحرق، بل أن أوضع على خازوق في ميدان عام. لكن المظاهر خادعة. كنتُ معكِ بشكلٍ أو بآخر".

" أنا لا أفهم".

"تستحقين مني تفسيرًا شافيًا".

***

لكن ما هو التفسير الذي يبرر الغياب والظهور؟ ما هو التبرير الذي يخفف من وطأة المشاعر وثقلها على القلب؟

حِمْلٌ كالجبال يكاد يسحقني تحته. ما أسعد أصحاب القلوب الباردة، التي يكتنفها الثلج، وتحلق فوقها طبقات الضباب. للأسف لستُ منهم. لو كنتُ منهم لكنت الآن أمًا لطفلين أو ثلاثة أصهر حياتي في حياتهم، وأحلامي تمتد وتستطيل من خلال أحلامهم.

أحيانًا أحسد أولئك الذين عرفوا طريقهم مبكرًا، لكن ما يعزيني- وأعرف أنه حقيقي -أن لكل حالة ظروفها وخصوصيتها، وما يصلح لـ"س" لا يصلح مع "ص".

ما هو تفسيرك يا نادر؟ لكن ما قاله الأخير جعلني أراجع نفسي. يتبخر غضبي منه بسهولة. لا يُمارس سحرًا عليّ كما تظنين. الأمر بسيط؛ فقد كان في غيبوبة!

كان يعبر الشارع في نفس اللحظة التي حدث فيها الاصطدام. سيارة مرت كالسهم الخاطف؛ لتوقعه في غيبوبة عميقة، وسط صراخ صاحب السيارة بأنه بريء، وأن الرجل -أي نادر-عبر الشارع دون أن يكترث لإشارات المرور.

يتوسط الشارع بدماءٍ سالت على الطريق المرصوف ممتزجة بمادة القار الكئيبة!

أنظر إليه بخجل، وكأنني أنا المخطئة:

"لم أكن أعرف هذا".

"إنها قوانينك. أتذكرين؟ لو لم تتمادي في حرصك الغريب هذا؛ لكنتِ من زواري في المستشفى".

" لم أكن أعرف. لقد ظننتُ... ".

أقطع كلامي. أحاول تجميع أفكاري التي راحت تتسرب مني في كل صوب. لا بُدَّ أن أقول شيئًا ذكيًا لا يُظهرني ضعيفة وهشّة. كان الأمر أبسط مما أتخيل. لم يتزوج. لم يحبّ غيري. لم يهرب من الالتزام تجاهي، أو يُصبه الملل كما يحدث للكثيرين.

أشعر بالراحة. لكنها راحة ممزوجة بغصةٍّ. أنظر بطرف عيني؛ فأجد أمجد قد توقف عن الأكل. تبدو عليه الحيرة وعدم الفهم، وكأنه يصارع من أجل أن يتخذ قرارًا.

أعذره فيما يفكر فيه الآن. يخرج من جيبه بضعة ورقات نقدية ويضعها أمامه. توقعتُ منه أن ينصرف غاضبًا؛ فقد أهنته على كل

حال، مهما كانت أعذاري، لكنه لم يفعل. في الواقع لقد اتجه نحوي وقال بهدوء يُنذر بعاصفة قادمة، وهو أمر لم أتعوده فيه.

"اتق شر الحليم إذا غضب"، مقولة شهيرة لم أرها تتجسد في شخص من قبل؛ فهل أراها في آخر شخص أتوقعها منه؟!

لم يُلق نظرة واحدة على نادر، فقط قال:

"هيا بنا".

"ماذا؟".

صرخ بعصبية:

"أقول هيا بنا. ألا تسمعين؟".

".....!".

أحدّق فيه ببلاهة. رد فعل غير متوقع. نادر يبدو عليه الغضب، يضمّ قبضته وهو يهمّ بالتحرك، لكنني نهضتُ حقنًا للدماء، لكن هذا لم يمنعني أن أتجاهل نظرات الناس الفضولية حولي، وأخرج ورقة صغيرة وأكتب عليها رقم هاتفي وعنواني وأدفعها إلى نادر:

"رقم هاتفي".

يقول أمجد بعصبية قلما رأيته بها:

"كفيّ عن الثرثرة أيتها الحمقاء. هيا بنا".

"حمقاء! أنا حمقاء؟".

وقبل أن يتفاقم الوضع اتجهتُ للخارج، وقد علمتُ أن ثمة شخص سأصبُّ عليه كلّ غضبي. جانب سخيف يظهر في شخصية أمجد الوديع. على الأقل أعطاني مبررًا لكي أنفصل عنه دون ضجيج. حمقاء!

أنا حمقاء؟! أشرتُ بيدي لأستوقف سيارة أجرة. أمجد يلاحقني، وقد بدا أنه هدأ قليلًا. لا تحاول يا هذا. لقد سبق السيف العذل.

" أعرف أنكِ غاضبة مني، لكن الموقف كان فوق احتمالي".

"بدلًا من أن تضرب أخماسًا في أسداس كان عليك أن تستفسر عن الموضوع بدلًا من غضبك الأهوج هذا".

ينظر لي بعدم فهم. ثم يقول، وهو ينتقي كلماته بدقة فيما يبدو، في نفس اللحظة التي توقفت فيها سيارة الأجرة أمامي، وأمدّ يدي أفتح الباب، عندما قال:

"لقد أحرجتني بتصرفك هذا".

"نادر صديق قديم أعرفه من قبل أن أعرفك. هل تتصور أن أراه؛ فأتجاهله؟".

توقف فجأة، وقال ببطء:

"نادر؟!"

ثم انتفض وهو يول بعصبية:

"عمن تتكلمين بالضبط؟".

"لا تصطنع الغباء وعدم الفهم. لقد انكشفت حقيقتك. في أول موقف سقط قناعك".

"منْ نادر هذا؟".

"الشاب الذي كنتُ أكلمه".

" تصحيح بسيط يا سامية: لم يكن هناك أحدٌ أمامك. لقد كنتِ تُجرين حوارًا مع شخصٍ غير موجود أمامكِ أصلًا!".

***

الفصل الرابع

مفكرتي العزيزة...

تتوقف يدي في منتصف المسافة لباب السيارة. أحدّق في وجهه ببلاهة. لطالما رأيت أمجد يفعلها معي، لكني لم أكن أتخيل أنني سأكون على الجانب الآخر ذات يوم. هل جُنّ؟

هل وصلت به الجرأة أن يشكّ فيّ؟

نعم، أعلم أنني صاحبة السمعة السيئة كواحدة مشكوك في قواها العقلية. نعم، هناك بقعة ما في ذهني مظلمة، لكن ليس إلى حد أن أختلق وجود أحدهم.

الجنون له حدود معي، وعليه أن يفهم هذا.

أحدق فيه بغضب، وقد رحتُ أرتب أفكاري الفوضوية العابثة.

حسابك ثقيل معي يا هذا.

وكأنما كان يسمع ما بعقلي؛ فقد قال بتأكيد:

"كنتُ موجودًا يا سامية. كنتُ أري الحاضرين يرمقونك وهم يتغامزون. مستحيل أنكِ لم تلاحظي هذا!".

"إذن، فلم يكن هناك أحد؟".

"الفراغ فقط!".

رددتُ بذهول:

"كنتُ أكلم نفسي؟".

"أجل. لقد استغرق منى الأمر فترة حتى استوعبته. حاولتُ إثناءك لكنكِ كنتِ غاضبة. بالمناسبة: غضبك غير لطيف بالمرة".

***

كان غضبي غير لطيف على الإطلاق؛ لهذا فقد تراجع للخلف برهبة وهو يرى الدم يحتشد في وجهي، بشكل يوحي بأنه على وشك الانفجار. إنه يشككّ في عقلي. أرجعتُ يدي إلى وضعها السابق. فكرتُ أن أصفعه على وجهه، لكنه رد فعل مبالغ فيه.

قلتُ ببطء، وأنا أتخيل أن كل كلمة سأنطق بها تحمل عينين محمرتين من فرط الغضب المكتوم:

"أنت واثق من كلامك هذا؟".

"لن أتجني عليكِ طبعًا".

"سنري".

قلتها، وأشرتُ للسائق-الذي يبدو مستمتعًا بالحوار بيننا كما هو واضح- بأن ينتظرني، ثم استدرتُ على عقبيّ وعدت للمطعم.

بدت عليه الدهشة، ثم صرخ وهو يهرول خلفي:

" إلى أين؟".

" كما ترى. سنرى!".

"لا داعي لأن تتسببي في الحرج لنفسك".

ضحكتُ ضحكة بدت معدنية، وكأنني أخشى من صدقه:

"أخذتَ الجملة من طرف لساني".

فور دخولي لقاعة المطعم الرئيسية اتجهت إليَّ الأنظار. عاد الدم ليحتشد مجددًا في وجهي، لكن خجلًا هذه المرة.

أُدير عينيّ إلى مائدة نادر؛ فأجدها خالية. هل ذهب للحمام مثلًا، أم أنه سئم من وجوده في ذلك المكان، وغيّر مائدته؟

أقترب من هذه الأخيرة؛ فألمح الورقة المطوية وهي تحمل رقم هاتفي. لو كان هذا فيلمًا سينمائيًا فمن المفروض أن أترنح، ثم أفقد وعيي من فرط المفاجأة. لكني لم أفعل. أقسي خيانة هي خيانة العقل بصاحبه؛ ألا يثق بحكمه وبما يراه.

" لنذهب يا سامية".

أمجد خلفي. يتكلم بصوت مليء بالشفقة. كدتُ أصرخ فيه بأنه تقدم لخطبتي وهو يعرف بجنوني، وأنني حاولتُ تحذيره، لكنه-كالدب الأحمق-انزلق بحماس في هذه العلاقة التي –غالبًا-لن يُكتب لها الاستمرار، لكنني-مرة أخرى-وجدته ردّ فعل مبالغ فيه، بالإضافة إلى أنني مُستنزفة بشكل بشع. طاقتي تتسرب منى بشراهة.

أشعر برغبة عميقة في النوم. إراحة عقلي من التفكير. يوم واحد أقابل فيه نادر، وأكتشف أنني على حافة الجنون!

***

أدخل حجرتي وأنا أجرّ قدميّ. أمدّ يدي لزر الإضاءة. ينبثق الضوء المتوقع، لكن مع صورة غير متوقعة بالمرة.

فعلى طرف السرير، وجدته يجلس وهو يبتسم بلومٍ حزين.

وقال نادر، وهو يتكلم بصوت منخفض، كأنه لا يريد أن يوقظ أهل البيت:

" هل اشتقتِ إليّ؟".

***

أتجمد في وقفتي. هناك. أراه بحضوره الذي كنتُ أتخيل وجوده، والآن يساعد عقلي في إتمام المهمة ومزج الحقيقة بالواقع. ما هو أكثر عدو يمكن أن يقابله المرء؟ الجوع؟ الفقر؟ الألم؟

في رأيي –كما أخبرتكِ سابقا-أنه عندما يقوم عقلك بخيانتك، ومزج الواقع بالخيال. هذا ما يفعله عقلي الآن بكفاءة.

الموقف مربك. رجل غريب في حجرة نومي. ليس غريبًا بالضبط؛ فهو يعيش في قاع جمجمتي منذ زمن، كل ما هنالك أنه قام بالانتقال-دون إذن مني كما هو واضح-من هناك إلى هنا.

سألته وأنا أتلفت حولي، كأني أخشى أن يضبطنا أحد:

" ماذا تفعل هنا؟".

قال بخبث، وهو يبتسم:

"لقد تركتِ لي رقم هاتفك وعنوانك. أنتِ سريعة النسيان!".

"أنت غير حقيقي. مجرد خيال في عقلي".

"من المؤسف أن تقولي هذا".

"هل تريد أن تصيبني بالجنون؟".

صرختُ بالجملة الأخيرة. اقتربتُ منه، وقلت بلهجة حاولتُ أن تكون متعقلة، لكنها على الرغم مني جاءت مرتعشة، خائفة:

" نادر؛ أنت غير موجود الآن أمامي. نحن لم نتقابل من قبل".

"وكيف أجلس أمامك الآن؟".

"عقلي المريض يتشبث بوجودك الغبي في حياتي".

"ناكرة للعشرة. هل نسيتِ أقداح النسكافيه باللبن؟".

"والتي كنتُ أشربها أنا، وأخبرك بهذا أثناء دردشتنا على الماسينجر، ولهذا أنت تعلم تلك المعلومة. لا تتذاكَ عليَّ من فضلك".

داعب أظافره المقصوصة بعناية، وقد بدت حالتي المزرية سببًا في سعادته:

" هل يمكن للخيال أن يكون متقنا لدرجة خلق ملامح مثل وجهي هذا".

لم أطن في مزاج رائق لطرح هذه الأسئلة. قلتُ متوسلة:

" اذهب من أمامي أرجوك. اذهب. لستُ في حالة تسمح الآن بوجودك. ألا تفهم؟!".

رمقني بصمت.

"مع من تتحدثين يا سامية؟".

أنظر؛ فأجد والديّ يقفان بالقرب من الباب المواربـ.

الباب الذي لم أغلقه لبلاهتي. كانت زاوية الرؤية بالنسبة لهما تسمح بأن لا يريا في الحجرة إلا أنا... ولا شيء آخر.

كانت سمة الجنون شيئًا مؤكدًا للجيران والأقارب، أما الآن فقد انضم للقائمة والديّ العزيزين.

نعم. لا يوجد أقسى من خيانة العقل!

***

مفكرتي العزيزة...

في الأيام التالية زادت حالتي سوءًا أكثر مما هو متوقع.

صرتُ أصرخ لأتفه الأسباب، وطبعًا سيكون من الصعب أن أشرح لهم ظهور نادر المفاجئ (هذه المعلومة ستأخذ وقتًا حتى يستوعبوها؛ نظرًا لأنهم لم يسمعوا به من قبل)، وسيكون من الصعب أن أخبرهم أنه موجود بعقلي فقط. من جربوا نظرات الآخرين الحذرة المتوجسة لمن بهم عته، سيدركون ما أقصد.

كان سارتر على حق عندما قال بأن الجحيم هو عيون الآخرين. من الظريف أنني كنتُ أعيش فيه من قبل-أقصد الجحيم-عندما كان هناك إلحاح منهم على قبولي لأول عريس قادم، وكان عليَّ أن أتناسي وجود نادر في ماضيّ والنظر للمستقبل بعقلانية أفتقدها كلما تعلق به الأمر، والآن وبعد أن تخليت عنه (الحقيقة أنه هو من تخلى عني،

لكنني حساسة وألوم نفسي دومًا! تُري هل هذا السبب في ظهوره المخيف هذا؟) يعود مجددًا ومعه ذلك الجحيم!

الأظرف أن أمجد يحاول أن يلعب دور الخطيب المتفهم.

ثمة من أقنعه أن هذا الدور قد يختصر مسافات كبيرة بيننا. لا بُدَّ أنه شعر بالجليد الماكث بيننا كالكابوس. يصعب إذابته أو تحطيمه، أو العبور فوقه، وهذا لأنه عال جدًا، إلى أفاقٍ لا يمكن تصورها.

الحق أن نادر ترك وراءه شخصية مهشمة تمامًا، مختلط بجيناتها جيناته هو، وصار من الصعب أن تصلح لأي أحد آخر!

برغم كل شيء-أعترف يا مفكرتي العزيزة-أنني سعيدة لوجود نادر.

حتى لو كان من نسج خيالي، إلا أنني لا أملك إلا الإعجاب بذهني، وذلك الخيال الجامح كالمحيط.

لقد نُسجت التفاصيل بعناية دقيقة من الأحاديث التي كانت تدور بيننا على الماسينجر في ليالي الشتاء. انبعثت من جديد في كيان يتخذ صورة اللحم والدم والروح. صحيح لو مددتُ يدي إليه فستعبر من خلال جسده –كما يحدث في أفلام الأشباح-، لكنني لم أفعل هذا. لأنني لا أريد لهذه الحقيقة-التي أدركها جيدًا-أن تنغصّ عليَّ حياتي.

يكفيني وجوده الوهمي.

والآن أنا أجلس في الصالون ومعي أمجد. أمي تعدّ طعام العشاء. والدي ذهب لزيارة عمه المسنّ. لا أحد في البيت غيرنا نحن الثلاثة كما هو واضح. لكن الحقيقة أن هناك من هو رابعنا.

كلا. ليس الشيطان-أيتها الخبيثة-بل هو نادر كما كان يجب أن تتوقعي هذا. إنه الآن يجلس بجوار أمجد، وهو ينظر له باحتقار، وهو يرفع أصابعه بمعنى أني لم أجد سوى هذا الأحمق لكي أوافق على خطبته؟

كدتُ أصرخ فيه بأنه لا داعي للإشارة فلا أحد يراه غيري، لكنني آثرتُ الصمت، على الرغم من ابتسامة خفيفة على شفتيّ جذبت انتباه أمجد.

قال أمجد وهو يتكئ على مسند المقعد:

"ألن تخبريني عن نادر هذا؟".

"أخبرتك أنه مجرد وجه قديم من الماضي. صفحة طويتها ولا حاجة لنشرها الآن".

"أليس من حقي معرفة حكايته؟".

" هل هذا سؤال أم تقرير؟".

"سؤال".

"ليس من حقك إذن".

نظر لي بصمت دون أن ينطق بحرف، وشرد قليلًا ثم قال:

" لكن يبدو أنه السبب في تغيّر حالتك النفسية من سيء إلى أسوأ".

"هل تراني أحبو على يديّ، أم أنطح السقف برأسي؟ زن كلامك، ولا تتحدث معي كما لو أنك تتحدث إلى مجنونة!".

الكلمات تتدفق من فمي بعصبية وبصوتٍ عال، لدرجة أن والدتي انتبهت؛ فخرجت تنظر إلينا، أما هو فقد صمت كأنما ألقمته حجرًا ضخمًا!

والواقع أنه ظل صامتًا طوال تناوله طعام العشاء، وعلى غير عادته لم يأكل كثيرًا. حاولت والدتي أن تداعبه بأن الأكل لم يعجبه إلا أنه قال بأنه ممتاز، لكن هناك مشاكل بمعدته تمنعه من تناوله بشهية.

ولم يظل كثيرًا، فقد نهض مستأذنًا. رمقتني والدتي بنظرة لوم صامتة؛ فأشحتُ بوجهي.

***

هناك ظلام سخيف بدأ يكتنف حياتي في الفترة الأخيرة.

بدأتُ أعتقد أنني منحوسة بالفعل!

ماذا أريد من الحياة؟

هل أتوقع مثلًا حدوث معجزة تجعلني أشعر بالسعادة؟ وهل هناك سعادة حقًا على هذه الأرض؟

وماذا عن الرضا؟

لماذا دائمًا أنتظر حدوث ما لا يمكن وقوعه؟ صحيح أن أمجد سطحيّ وتافه، ولا يرقى لمستوى نادر بأي حال من الأحوال، لكن هذا الأخير مجرد طيف سخيف يلحّ على حياتي، خارجًا من الظلام.

ظلام يهدنني بخسارة كل شيء لو لم أجد حلًا سريعًا لتلك المعضلة.
وهكذا...
حسمتُ أمري.
عليّ أن أتجاهل وجود نادر. عليّ أن أحسم أمري.

***

.. وهكذا، أسير على الكورنيش، والنيل يتدفق أمامي بجلاله وروعته.
هناك خوف ينبت بداخلي.
ذلك الخوف العجيب، غير المبرر، الذي يجعل صبيًا لم يمارس السقوط من أعلى من قبل، يتراجع عند حافة سطح المنزل، وهو ينظر برعب لأسفل.
الخوف الغريزي. بعيدًا عن الوجدان الجمعي، والشجرة التي سقط منها أسلافنا قديمًا. لستُ في مزاج رائق لكي أفكر في تحليلات يونج العبقرية الآن.
ما أحتاجه الآن كوب من اللبن الساخن، وقراءة مغامرة من مغامرات بطوط، ثم النوم العميق.
شعرتُ بهزة في حقيبتي، أعقبها رنين، ففتحتها لأجد هاتفي يضيء بشكل متكرر. كان المتصل هو أمجد. تجاهلته، وجعلته على الوضع الصامت.
استغرقت عودتي للبيت نصف ساعة تقريبًا، اهتزت فيها حقيبتي عشرات المرات!

بالإضافة إلى عدة مكالمات من والدي. يبدو أنني لم أنتبه.

أعترف أنني كنتُ فخورة بنفسي!

لا توجد فتاة ترى هذا الإلحاح من شاب-حتى لو كان يملك كرشًا صغيرًا -فلا تشعر بذاتها. تشعر أنها مميزة. ربما تتأفف، تمصمص شفتيها، تولول من ذلك اللزج الذي لا يملّ ولا يكلّ. لكنها تبتسم بفخر عندما تكون بمفردها.

عندما أجلس مع نفسي، أجد أنني أعامله بقسوة غير عادية. ما ذنب ذلك المسكين أن يرتبط بواحدة مثلي؟ ثم إصراره الغريب على هذا على أن يرتبط بي؟ أعلم بأن هناك طرازًا من البشر يتعامل مع الأنثى بطريقة "الفريسة والصياد".

تلك الرغبة المجنونة الملحة-كالإدمان-في أن يطارد الشخص الفتيات عزيزات المنال. أعرف العديد من القصص الحقيقية التي تسببت فيها لهفة البنات في إبراز الجانب القاسي في قلوب الشباب، بينما الفتاة التي تعتز بنفسها، وبكرامتها تعجب الرجل وتُشعل في نفسه الرغبة في القتال حتى يحصل عليها، ثم عندما يحدث ذلك بالفعل تفتر همته!

فتاة وفتى يعيشان قصة حب تليق بالأساطير، ثم عندما يتزوجان بالفعل، تنطفئ جذوة الحب المقدسة! للأسف لا أجد جملة أقل ابتذالًا من تلك الجملة، لكنني أجدها مناسبة جدًا.

أنزل من التاكسي، متجهة للبيت. على غير العادة وجدتُ والديّ ينظران من النافذة بقلق. غريبة! لم يحدث هذا من قبل!

لكن الإجابة جاءت أسرع من خواطري هذه المرة؛ فقد لمحتُ جسدًا يجلس بالقرب من باب العمارة بالقرب من شجرة الزينة الضخمة، حيث راحت تتراقص أوراقها تحت مصباح الإضاءة؛ مما جعلني أشهق.

خوف غريزي تحرك بسرعة من المجهول، وراح يركض بعنف في أوردة دمي. قلبي ينبض، وكأنما يستهلك دقاته قبل أن يتوقف!

توقفتُ في مكاني. أصابعي تعبث بحقيبتي. ثمة بخّاخ فلفل قد أهدتني إياه صديقة عزيزة. كان من العبث أن أرفع صوتي صارخة لكي ينتبه والديّ، لكن المثير للريبة أنهما لم يتصلا بالشرطة مثلا؟

ماذا يحدث؟

كنتُ قد وصلتُ بالقرب من الشجرة، وفي ذات اللحظة التي وقف فيها ذلك الغامض، واتجه لدائرة الضوء كنتُ أقفز إليه وأدفع ببخّاخ الفلفل في وجهه.

حسنًا. قد كان هناك الكثير من الصراخ، كاد يوقظ جيراننا، ويبدو أن والدي كان أسرع بديهة مني، فقد فتح باب العمارة وهو يسحبني للداخل، ويمسك بذلك الشخص-الذي كان يبكي كطفلة صغيرة، ويبدو أنها عادة لديه! - ويسحبه هو الآخر للداخل!

"هل جننتِ؟".

"أبي، إنه...".

هنا أدركتُ أنه أمجد!

***

والدتي تعطيه منشفة مبللة بالماء، بينما والدي ينفخ بضيق. ما عرفته فيما بعد أن أمجد قد شعر بالقلق عليَّ لتجاهلي لمكالماته. أتى للمنزل. دعاه والدي للدخول، لكنه فضّل أن ينتظرني بالخارج.

بعد أن هدأ من بكاءه الهستيري-والذي أدركتُ من خلاله أنه يمتلك قنوات دمعية ممتازة معبأة عن آخرها بالدموع-قام بآخر تصرف يمكن أن أتوقعه.

انتزع الدبلة من إصبعه بغلّ، ثم ألقاها على الطاولة أمامي!

***

الفصل الخامس

مفكرتي العزيزة...

مضى أسبوعان على انفصالي عن أمجد.

وجدتُ نفسي-تلقائيًا-أتحسس مكان الدبلة في إصبعي. ذلك الفراغ الذي يُحدث اضطرابًا لديّ، والذي كان ممتلئًا من قبل. طبعًا هناك محاولات كثيرة جرت لإعادة المياه إلى مجاريها. فجأة وجدتُ أقارب لي قد ظهروا من العدم، ليلعبوا دور المصلحين، مع زيارات متكررة لشمطاوات العائلة، وهن يمصمصن شفاههن في ضيق وحسرة على تلك الفتاة المتمردة المتكبرة المتبطرة على النعمة!

ثم ظهرت عدة إشاعات وتكهنات عن السبب والعِلّة؛ فتارة أنا معتوهة بحق، أو أن خطيبي السابق قد لاحظ سلوكًا مُشينًا عليَّ؛ مما جعله ينفصل عني.

ثمة قولاً آخر بأنني كنتُ أعذبه معي بتصرفاتي الطائشة، والمشكلة الأكبر أن عائلتي كان عليها تبرر وتفسر وتشرح وتدافع، وهذا كان يتعبهم ويؤرقهم؛ مما يجعل النتيجة الطبيعية أن يصبّوا جامّ غضبهم عليّ.

وكمحاولة للفرار من هذا الجحيم، فقد كنت أغادر المنزل كثيرًا.

أسير – مرة أخرى-على الكورنيش.

النيل الجميل. شمس الشتاء لا تعادلها شمس أخرى، وخاصةً عندما تغرب خلف المباني البعيدة بحمرتها الفاتنة، وقد راحت تسكب لونها القاني على السحب، وكأنها لوحة جمالية تمتص من أعماقي كل قلق وتوتر.

ثم هناك النسمات الباردة القادمة من عالم آخر، حيث تتدفق إلى رئتي، وتنعشني. الرائحة. الرائحة أقوى مؤثر يمكن للمرء أن يتعرض له، ويوقظ بداخله الذكريات.

أجلس في مقهى بسيط، والنادل يتقدم نحوي حاملا حمص الشام الحريف بالشطة والليمون. من بعيد يتعالى صوت فيروز وهي تغني عن حكايتها مع شادي. لا يهمّ من هو، لكن ما يهمّ أنني مسرورة بتلك المتع البسيطة، والتي تدفع بداخلي شعورًا بأن الحياة جميلة أحيانًا، وتستحق أن تُعاش.

أنهض. أسير بالقرب من السور الحديدي. أمسك به. أنظر لأسفل. صفحة الماء الزرقاء تهدر بنعومة. الرائحة.

الرائحة مرة أخرى. أتذكر ذلك اليوم البعيد الموغل في الزمن. كنتُ عائدة من التمشية على كوبري قصر النيل، وأنا أرمق من حولي من شباب وبنات، ويبدو أن كل واحد قد وجد نصفه الآخر.

لا أنكر أنني شعرتُ بالغيرة. بالفراغ. هذا القلب لم يُخلَق من أجل أن يظلّ فارغا للأبد. هذه اللوعة على الوجوه، والعيون المترعة بالعشق، هل يمكن أن أصير مثلها ذات يوم؟

وتذكرتُ تلك الليلة التي قابلتُ فيها...

"قابلتني أنا".

أتاني الصوت من يميني؛ فأجفلت؛ وكأن أحدهم يتواصل مع عقلي تخاطريًا، يتلصص على أفكاري، ويكمل الكلمات المتقاطعة فيه!

"أنت؟".

هزّ نادر رأسه، وكأن من الطبيعي وجوده. يرتدي حلة سوداء، وربطة عنق بيضاء، ويبدو حذائه الأسود اللامع متجانسا مع شعره الفاحم، الذي يهتزّ بدوره مع نسمات الهواء القادمة من فوق النيل.

خفق قلبي. لو كان لي أن أتصور فارس أحلام معينًا، فلم لا يكون نادر ذاته؟!

"أسبوعان ولم تظهر؛ فلم الآن؟".

أشار إلى أنفه مبتسما:

"الرائحة يا فتاتي، الرائحة".

قلت بعصبية:

"لست فتاة أحد".

نظر إلى إصبعي الخالي؛ فحاولت إخفاءه في حرج. لم أكن أتصور أن هذا الموقف سيصيبني بالحرج يومًا، وأمام منْ؟ أمام شخصية خيالية في عقلي فقط!

قلت محاولة تشتيته:

"أية رائحة تتحدث عنها يا هذا؟".

"هذا؟ هل صرتُ نكرة إلى هذا الحدّ؟".

ومال نحوي، بشكل جعلني أتراجع للخلف. ماذا دهاني؟ إنه شخصية لا وجودية لها. رأيتُ بطرف عيني القهوجي وهو يرمقني بدهشة. ثم ينظر لصاحب المقهى نظرة خاصة، وهو يشير إلى رأسه مديرًا أصابعه الرفيعة في الهواء في علامة خاصة دلالة على جنوني. عظيم. لقد تجاوزت شهرتي كمعتوهة محيطة الأسرة والأقارب إلى الشارع العام!

نظرت بغيظ إلى رفيقي الأنيق، ووجدته ما زال يميل نحوي بوقاحة يُحسد عليها.

"فليكن في علمك أن عندي المبتدأ والمنتهي".

"مغرور!".

ابتسم، وتراجع للخلف مما جعلني أتنفس الصعداء.

"فليكن. منذ قليل كنتِ تتذكرين أول مرة تقابلنا فيها. لقد كان في ذات الليلة. أليس كذلك؟ كنتِ في حجرتك، تشعرين بالملل. قدح الكابتشينو بجوار الكمبيوتر، تنظرين من النافذة تتلقين هبّات النسيم الباردة. تتمنين لو كنتِ جهاز شفط عملاقًا بحيث لا تفلت منك نسمة واحدة! تختزنينها في صدرك. وتبحثين عن معنى!".

كان الوغد يجيد العزف على أوتار الحزن عندي؛ لذا فلم أندهش عندما وجدت الدموع تسيل على وجنتيّ!

ويبدو أن النادل قد لاحظ أن المعتوهة الوحيدة الجالسة في المقهى تبكي، فاقترب مني مستفسرًا؛ فرفعتُ يدي محذرة من تدخله؛ فتراجع محرجًا، وهو يتمتم عن أولئك الذين يأتون لمقهاه بمصائبهم وعقدهم!

رنين هاتفي المحمول، يمنحني فرصة لكي أنشغل بأي شيء آخر.

للأسف كان أمجد.

أردّ عليه. لا أردّ. ظللتُ أردد الجملتين بين رفض وقبول في ذهني، وبعد لحظات وجدت نادر يكررها معي!

نسيتُ أنه ما زال في عقلي!

من أجل أن أخرسه قررتُ أن أفعل أول شيء يفعله إصبعي، وهكذا وجدتني أضع الهاتف على أذني وأقول:

"أمجد! أهلاً".

قال بصوت هادئ:

"أهلاً يا آنسة. كيف حالك؟".

تجاهلتُ التحية الرسمية التي لم أعتدها منه. يبدو أنه قد تجاوز الأمر. عظيم.

"خيرا يا أستاذ أمجد".

خيلّ إليَّ أن نبرة غيظ راحت تضطرم في رده:

"الهدايا يا آنسة. الهدايا".

"أية هدايا؟".

" هداياي إليكِ. أريدها".

قلت بضيق ودهشة:

"لم تأخذهم من البيت؟ لقد جمعتُ هداياك كلها في صندوق، وأخبرتهم بأن يعطوها لك".

"يبدو أنهم قد نسوا".

"ليس نسيانًا. لقد كان متعمدًا".

بعد لحظة تمتم:

"لقد فهمت".

ثم قال دون أن ينتظر تكملة جملتي، والتي ستكون هي الاتفاق على تسليمه حاجياته وجدته يغلق المكالمة بكلمة واحدة:

"سلام".

نظرتُ إلى الهاتف. قال رفيقي الذي لم يختف بعد:

"إنه مجروح".

"أعلم".

ثم نظرتُ إلى نادر، وقلت بتحدٍ:

"هل تراهن أنه سيتصل مرة أخرى؟".

"لن يفعل".

"سيفعل".

رنين الهاتف يرتفع فجأة. يثب قلبي. أبتسم بشماتة، وأنظر إليه؛ فأجده قد اختفي!

الجبان!

قلت دون حتى أن أنظر في الشاشة:

"أهلاً أمجد. ألن تكفّ عن إغلاق الهاتف في وجهي؟".

"أمجد من؟".

صوت غليظ هو!

شعرتُ بالارتباك. ليس أمجد.

"من معي؟".

"هل نسيتني بهذه السهولة؟".

"يبدو أنك مخطئ في الرقم يا أستاذ".

"لا أعتقد يا سامية، لا أعتقد".

إنه يعرف اسمي. أنبش في ذاكرتي عن هذا الصوت الغليظ المبحوح، الذي يليق بوحوش السينما، أو المعقدين نفسيًا، فلا أجد مشابهًا له.

"أنا لا أعرفك، لكن يبدو أنك تعرفني".

"أعرفك جيدًا، وأيضًا أعرف سرّك".

تمتمتُ:

"سِرّي؟".

"سرك الأكبر أيتها الماكرة. السرّ الذي أخفيته عن الجميع".

ثم أنهي مكالمته!

أحرق دمي أكثر-بخلاف كلماته المريبة-أنني فشلت في الاتصال به، لأن الرقم-ببساطة-كان محجوبًا! وهذا معناه أنه كان يتصل عن طريق الإنترنت كما أسمع، وهي وسيلة لا أعرف عنها أي شيء، لكنني أتذكر أن أحد أقرباءنا في الخارج كان يفعلها من أجل توفير ثمن المكالمات، وخاصة عندما يثرثر مع والديه.

خطر لي أن المتصل هو أمجد ذاته!

ولم لا وقد قال نادر بأنه مجروح! شعرت بالضيق أكثر من نفسي، ها أنا ذا أخجل منه-أقصد نادر-وكذلك أتخذه مرجعية في كلماته الوهمية الحكيمة التي يُلقيها على مسامعي. يبدو أن حالتي تتأخر أكثر.

هل هي دعابة من أحدهم؟

شخص مدمن للأفلام الأمريكية، ويريد العبث قليلاً.

فلأنس أمره، ولأعد للبيت لأحزم لخطيبي السابق حاجياته التي نسيت والدتي تنفيذ ذلك عمدًا كما واضح، على أمل أنني سوف ألين، وأعود له.

لكن المتصل الغامض فعلها مرة أخرى. أثناء عودتي للبيت في سيارة أجرة.

كدتُ أشتمه لولا أن سائق السيارة سيظن بيَّ الظنون. قلت وأنا أحاول التحكم بنفسي:

"من أنت، وماذا تريد؟".

"أنا من ماضيكِ يا آنسة".

"هل تظن نفسك في فيلم ما".

"دعكِ من هذه الثرثرة".

"لا تحدثني هكذا يا هذا".

"هل ترينني نكرة؟!".

تذكرتُ نفس ردّ نادر عندما قلتها له منذ دقائق، مما جعلني أبتسم.

"أنت بالنسبة لي مجهول".

"هذا مناسب لهذه المرحلة".

"وما هو السرّ الذي تعرفه أيها الغامض؟".

قال بعد لحظة:

"السرّ الذي تخفينه عن والديكِ، وعن الناس كلهم".

"أُخفي الكثير. حدد".

"السرّ الذي يجعلك تنسين، الذي يجعل ذاكرتك مثل المصفاة، السرّ الذي يجعلك تتصرفين بحماقة".

***

مفكرتي العزيزة....

انفتح الباب، لأجد الدهشة تغمر الوجه الأرستقراطي المريح. ابتسمت عيناها، وهي تقول مُرَحِبةً:

" أهلاً يا بنيتي".

قالتها، ثم انتقلت الابتسامة من عينيها لشفتيها، وهي تعلق بصرها بالصندوق الذي أحمله.

كانت هذه هي زيارتي الأولى لمنزل أمجد. فيلا فخمة حقًا، كأن جده كان إقطاعيًا، أفلت من سطوة قانون التأميم، وربما هو ما تبقى من ذلك العصر البائد. الفخامة والأصالة معبقة بقسوة الزمن. ظهر والده- كغراب البين-سمجًا باردًا. لكن هذا لم يمنع أن يأمر لي بالعصير.

لمدة ربع ساعة وجدته يحدثني عن أنواع العصير، والجيد منه، وكيف يصنع والقيمة الغذائية المرجوة منه. طبعًا. رجل رشيق مثله لا بُدَّ أنه يحافظ على نفسه، ويتمسك بأهداب الزمن لعلها لا تفلت منه.

أتساءل كيف لم يستفد ابنه-ذلك الفيل الصغير-من نصائحه وتوجيهاته؟ يبدو أن هناك خلاف بينهما؛ فطوال خطوبتنا لم يتحدث عن والده، وحتى عندما تأتي سيرته عرضًا كانت الكآبة تغمر وجهه الأملس. وجدت نفسي أطلق ضحكة قصيرة عندما اخترقت ذهني صورة أمجد كفيل صغير!

حسبها والده إهانة لمحاضرته القيمة، فسألني وهو يرمقني من فوق لتحت (ليس لأنه متكبر بطبعه فحسب، ولكن لأنه أطول مني حتى وهو جالس!) إن كان فيما يقوله شيء مضحك، فأخبرته بأنني تذكرت شيئًا فقط.

وهمهمت بعدة كلمات المفروض أنها اعتذار له عن خطأي الشنيع غير المقصود، لكنه التزم الصمت، وقد صرتُ عدوة له للأبد!

ويبدو أن أم أمجد أدركت أنني عالقة في شباك العنكبوت؛ فما أن أتت بالشراب الساخن، حتى وضعت قدح زوجها-والذي تناوله بذات الكبرياء-وسحبتني من يدها.

"إلى أين؟".

همهمتُ بالسؤال، فقالت وهي تبتسم بخبث أنثوي أعرفه جيدًا:

"لكي تري أمجد طبعًا. ألستِ هنا من أجله؟".

هذه السيدة الطيبة تظن أنني قادمة لمصالحة المحروس ابنها. لو ألقت نظرة واحدة على محتويات الصندوق الذي أتيتُ به لرأت هداياه، ولأدركت أني أقطع كل حبل ممكن لوصل هذا الموضوع من جديد.

ارتقينا الدرج. فخامة. فخامة. أمجد ابن والديه، ووحيدهما، ويبدو أن أباه وأمه يلعبان على طرفين متوازيين؛ فأمه ترى بأنه يستحق السعادة كاملةً غير منقوصة، وأبوه يري أنه مدلل، وجدير بأن يتعب ويشقي حتى يعرف معني الرجولة!

وأنا أصعد تنهال عليَّ نقاط مضيئة لحوادث مضت، راحت تتجمع في ذهني-كلعبة البازل الشهيرة-لتشكل صور واضحة.

أدركت أنني لم أحاول فهم خطيبي السابق، بمعني أدق: لم أحاول التواصل معه كما يجب، هذا من حقه عليّ كما أعتقد. مشكلة الحب القديم أنه يترك رواسب مُرّة في القاع يصعب تجاوزها.
وها أنا ذا أدخل عالمه لأول مرة في وقت غير مناسب بالمرة.
وصلنا لحجرته في الطابق الثاني. طرقت أمه الباب برفق.
" افتح الباب يا أمجد".

بعد قليل فتح المذكور باب الحجرة.

يرتدي منامة كاروهات، ويضع قلنسوة زرقاء علها تدفئ صلعته الخفيفة في ذلك الشتاء القارص.

دخلتُ الحجرة، وأنا مستمتعة بملامح الدهشة والحرج على وجهه (كانت دهشة حقيقية على وجهه. هذا تصرف مني غير معهود أساسًا في أيام الخطوبة، فكيف الآن وقد ذهب كل واحد منا إلى حال سبيله؟)

برغم فخامة المكان (ككل شيء فخم في ذلك المنزل)، إلا أنه كان فوضويًا بما يليق بعازب. ألقت أمه نظرة على الحجرة، وأرسلت نظرة نارية لابنها، والذي كان مشغولاً بدفع قطع ملابسه تحت الفراش، وترتيب الكتب، ولاحظتُ-بدهشة حقيقية-كمية الكتب والأسطوانات الكثيرة، وحيث كان هناك لاب توب مفتوحا على سطح مكتبه.

تركتنا والدته لوحدنا.

جذب كرسيًا وأدناه مني لأجلس.

"شكرا".

قلتها وأنا أرى تصرفاته "المدهولة". جانب حقيقي غير مزيف. يروق لي هذا نوعًا!

قلت كمحاولة مني لبدء الحوار بيننا:

"لقد أتيتُ بهداياك بأسفل".

تجمدت ملامحه؛ كمن بدأت قصيدتي بالكفر. يبدو أنه لم يتوقع أن أكون جافة هكذا.

"أعتذر مرة أخرى عن تسليمك إياها، لكن أحدًا من المنزل لم ينبهني لهذا".

نظرتُ حولي، وقلت:

" أين القطة بسبس؟".

قال بذات الوجه المتجهم:

" في حالة ولادة. لقد رُزقتْ بثلاث قطط غاية في الجمال".

على الرغم مني وجدتُ نفسي أضحك، وهو يبلغني بذلك الخبر المبهج، المتناقض تماما مع ملامحه الجادة الكئيبة!

بدا أن مزاجه متعكر فعلا؛ فما زالت ملامحه جامدة، وضحكتي التلقائية جعلت الوضع اسوأ. سألت نفسي، هل أعطيه فرصة لبدء الحوار، أم أنني أتسبب بكلماتي في إصابته بالخرس؟!

"ماذا تريدين؟".

"حجرتك جميلة".

قال بضجر:

"أعلم. ماذا تريدين؟".

"أخبرتك منذ قليل. لقد أتيت بحاجياتك".

"وكان من الممكن أن تتركيهم وتنصرفي، أو حتى ترسلي أحدهم، أو توصي من في البيت بشأنها على أبسط تقدير".

"ماذا تريد أن تقول؟".

"إلا لو كنتِ تجدينها حجة لكي نصل ما تم قطعه. بمعني أدق: ما قمتِ أنتِ بقطعه".

شعرت بفزع. أهذا ما دار في ذهنه؟

ما دام هذا ما يظنه، فهو ليس من اتصل بي.

لقد اتجه شكّي نحوه، ولديّ مبرر قوي؛ فبعد مكالمتي النيل وسيارة الأجرة، كانت الثالثة في البيت.

"أنت؟".

"صوتك عميق ومسموع هذه المرة".

"أكلمك من الصالة في البيت".

"أما زلتم تحتفظون بالتليفزيون القديم ماركة توشيبا؟".

"ماذا؟".

"طبعًا هذا يجعل فضولك يشتعل؛ فمعنى كلامي أنني دخلت بيتكم ذات مرة".

"من أنت؟".

"هل ما زلت تتساءلين؟".

وأغلق الوغد الهاتف في وجهي.

والآن، وعندما أنظر إلى أمجد، ومن فحصي لوجهه الأملس، وتعبيرات وجهه الصادقة فهو بريء؛ إلا لو كان أعظم ممثل في العالم!

***

كنا نسير سويًا هذه المرة على النيل. من يرانا سيصاب بحيرة وبلبلة؛ فلسنا عاشقين، وصمتنا من النوع العجيب، وكأننا نفكر في حل مشاكل العالم.

كان أمجد يسألني:

"ولماذا تظنين أنه واحد ممن تقدم إليكِ من قبل؟".

"لأنه لا أحد يعرف بوجود تليفزيون ماركة توشيبا عندنا".

"يا سلام! إن لم يكن قديما و١٤ بوصة فقط!".

نظرتُ إليه مندهشة:

"لقد انتبهت إليه إذن؟".

قال مرتبكًا:

"هل هي جريمة؟".

"كنت أراك تقضي وقتك في النظر لأسفل كالعذارى، أو تتحدث عن هوسك بالطعام!".

"أؤكد لكِ أنني أنتبه وألاحظ، ولو لم تلاحظي ذلك فهذه مشكلتك".

شعرتُ بالحرج. قال بعد لحظة، عندما طال سكوتنا:

"لكن ما هو السرّ الكبير الذي عرفه عنكِ؟".

"لا توجد أسرار، لكنه يظن ذلك".

"فلتتجاهليه إذن".

"وفضولي؟ سأظلّ اسأل نفسي من هو، وماذا يريد مني بالضبط؟".

"هذا هو سبب زيارتك المباركة لي إذن؟".

قلت ببرود:

"كنت أحتاج للتأكد أنه ليس أنت. فكما هو معلوم للقاصي والداني أنت مهووس بي، والمهووسون يصعب التنبؤ بردود أفعالهم".

ردد مستنكرًا:

"مهووس؟ فلتحذري من ألفاظك يا آنسة؛ فهي جارحة".

"أنا في مأزق، وأريد استشارتك؛ فلا تصطد في الماء العكر، وتظن أشياء لا أساس لها من الصحة. نحن لن نرجع لبعضنا".

تمتم متهكمًا، وقد شابت كلماته نبرة غيظ:

"أنتِ تطمئنيني بقولك هذا".

"هدفي إسعادك".

"ذات أخلاق طيبة أنتِ!".

تجاهلتُ نبرة السخرية التي راحت تعلو. حقًا أنا أحتاج مساعدته. هذه المهمة لا بُدَّ من وجود رجل فيها، ولا أحد من عائلتي سيساعدني؛ فهم يعتبرونني معتوهة أصلاً؛ فمع ما سأفعله مستقبلاً سيتأكد لهم هذا الانطباع.

المهمة تحتاج لرجل مستعد أن يفعل من أجلى الكثير، لكني وضعتُ النقاط على الحروف منذ البداية حتى لا يحلم بشيء لن أعطيه إياه فيما بعد. أعرف أنه تصرّف نذل، لكني مضطرة. لقد انغلق قلبي على شخص مجهول، ويبدو أنه لن ينفتح لأحد آخر. لمتي؟ يبدو أنه للأبد!

"فيما تفكرين؟".

سألني، وهو يستند إلى سور الكورنيش؛ حيث أن السير الكثير-كعادة البدينين-قد أتعب قدميه؛ فقلت له مراوغة:

"أريد التحقق من ذلك الذي يتلاعب بي".

"وكيف تريدين فعل ذلك؟".

"عملية استبعاد".

"بمعني؟".

"من تقدموا لي كثيرون جدًا. سيكون من المهم هنا أن نستبعد المملين منهم".

"يا سلام! هل من المفروض أن أكون قد فهمت؟".

قلت بصبر، وكأنني أشرح لطفل صغير نظرية علمية معقدة:

"من قام بهذه المكالمة شخص ذكي، أو يتظاهر بالذكاء، وبالتالي فيمكن استبعاد بعض من تقدموا لي بالفعل".

"كيف؟".

"مطلوب عريس غير ممل!".

النظرة الحائرة على وجهه تتسع وتزيد.

هنا ابتسمتُ؛ مما جعل نظرة قلقة تسوّد وجهه.

قال بحيرة:

"ما الذي تنوين فعله؟".

ابتسمتُ بغموض؛ فلو عرف حقًا ما أفكر فيه في تلك اللحظة لرمى نفسه في النيل خوفًا وهربًا!

قلتُ:

"خمّن".

***

الفصل السادس

مفكرتي العزيزة....

قبل الغروب بقليل توقفنا أمام العمارة القديمة الفاخرة. قلتُ لنفسي أنى لو وافقتُ على حامد وقبلته بعلًا لي؛ فربما كان هذا هو عشُّ الزوجية.

تحرينا عن عشرة عرسان فى أقل من شهر، وكلهم ينكر ما أُلمّح إليه؛ وطبعًا تأكدوا بأنهم محظوظين؛ لأنهم تخلصوا من هذه المجنونة!

جواري أمجد الذي يقود سيارته القديمة، التي تصلح أن تكون من مخلفات الحرب العالمية الثانية.

لا أعرف كيف يمكن لشاب "مستريح" مثله أن يركب سيارة كهذه، وأن يبدو الفخر على وجهه، وهو يقودها.

بجوار الفخر الذي تجلى على وجهه كان هناك عرق غزيز. لا تنسي مشكلة الأملاح. عرق غزيز+ فخر= وجه لامع بائس في ذات الوقت، وتكاد نفس المسكين تخرج من صدره، ولا أعرف السبب في هذا إذا كان يجلس فقط أمام مقود السيارة دون أن يبذل جهدًا!

ماذا لو سار أو ركض؟ هل سيُصاب بأزمة قلبية؟

مجرد تخيل الفكرة جعلني أبتسم. يبدو أنه كان مشغولًا في شيء ما، في لوحة القيادة أمامه؛ فلم ينتبه إلى ابتسامتي.

"هل أنتِ واثقة أنه هو هذه المرة؟".

سألني بقلق. له في الحق في ذلك. فأنا أجرجره ورائي في رحلة بحث عن عريس غير ممل، يتسم بالذكاء، ومن ثمّ لديه القدرة على إثارة خيالي والتلاعب بي.

التلاعب بي من أجل أن يهددني بسرٍ يزعم أنى أملكه، أو ربما ينفذ خطة الكاتب الأمريكي مارك توين، والذي أرسل رسالة بعض مشاهير عصره-على سبيل الدعابة-وكان فحوى الرسالة واحدًا: **" اهرب؛ فقد انكشف سرك".**

وكانت النتيجة أن جميعهم قد غادر البلاد! هل يمكن أن أكون قد انجررتُ بدوري للفخ، وسقطتُ فيه برعونة وتسرع؟!

"لستُ واثقة طبعًا".

بدا عليه التململ؛ فقلتُ بسرعة:

"أخبرتك من قبل أنه من الأذكياء. يصعب تلخيص هذا في جملة واحدة. لكن يكفي أن تعرف أن المرأة تعرف الرجل من نظرة واحدة. هناك العديد من الأذكياء. هناك الذكي المنطوي، وهذا يحاول جاهدًا ألا يُلفت النظر إليه، ولسان حاله يقول" آه لو تعلمون أيها الحمقى!". هناك النوع الذكي الفخور بعبقريته، وهو شخص ثرثار كالجحيم، ولا حل يجدي معه إلا أن تدس فردة حذائك في فمه. أما الذكي الغامض فهو أسوأها طرًا. هو شخص ذكي جدًا، ويعلم أنه ذكي جدًا، ويعلم أن من الأفضل ألا يظهر أنه ذكي جدًا. إنه يمارس ذكائه مع الآخرين، ويحركهم كقطع الشطرنج. ويمكنك القول إن

حامد كان من هذا النوع. طبعًا هناك النوع الذكي، لكنه متواضع حقًا، لكن هذه فئة قليلة جدًا".

سألني وهو يبتسم:

"وإلى أي نوع ترينني أنضم في هؤلاء؟".

ابتسمتُ دون أجيب. أيها المسكين. هل تظن أنك أحدهم؟ يبدو أن خمَّنَ الإجابة من صمتي وملامح وجهي؛ فبدا الحرج عليه. حسنًا، لا ينقصه قليلٌ من الذكاء على كل حال.

غادرنا السيارة، وبينما كنتُ أسير بثبات وأناقة كان رفيقي العزيز يكاد يتعثر في خطواته، وكمّ العرق الذي يتساقط منه على الطريق الأسفلتي يؤكد أننا في الصيف. لكننا كنا في الشتاء. قلتُ بضيق، وأنا أشعر بالحرج:

"لابد أن تعرض نفسك على طبيب".

"ألا تظنيني قد فعلت. أعرف جيدًا ما عليّ فعله حتى أُشفى".

"لما لا تفعله إذن".

هزّ رأسه:

"المسألة ليست متعلقة بالمعرفة هنا. بل بالإرادة".

"على الأقل لو سقطتَ ميتًا؛ فستكون راضيًا عن نفسك. كل هذا بسبب عاداتك الغذائية السيئة التي ستوردك حتفك".

"سأترك هذا القلق لزوجتي المستقبلية. بالنسبة لكِ فلتهتمي أكثر بالرجل الذي يتلاعب بكِ".

آه! ضربة تحت الحزام. إنه لم ينس أنى قد انفصلتُ عنه. يا له من طفل! الحقيقة أن الرجال جميعهم أطفال على رأي نزار قباني. اتجهنا للعمارة ذات المدخل الواسع. قال أمجد بقلق:

"لابد أن نبحث عن حُجَّةٍ لرؤيته".

"لا نحتاج لواحدة".

"لقد رفضتهِ من قبل. هل ستطلبين رؤيته من أجل إعادة قلم الرصاص الذي استعرته منه؟".

"ظريف".

"لا أريد أن أكون واقفًا بجوارك كالأحمق، وأنتِ تبحثين عن سبب لرؤيته".

"دع لي هذه المشكلة".

استدار على عقبيه:

"فلأنتظركِ في السيارة إذن".

أمسكته من ذراعه:

"لا تكن نذلًا!".

ثم شعرتُ بالحرج عندما وجدته يتطلع إليّ بدهشة من تصرفي غير اللبق وغير المتوقع في ذات الوقت. الحقيقة أني في أشدّ الحاجة إليه بالفعل.

"أنا النذل؟".

قالها بصوتٍ عالٍ؛ جعل بوَّاب العمارة العجوز يخرج من حجرته الصغيرة مستفسرًا:

"ماذا تريدان؟".

ابتسمتُ برقة:

"الأستاذ حامد يا حاج".

بدا الضيق على وجهه:

"هذا المجنون!".

قلتُ باهتمام:

"لماذا تقول عليه هذا؟".

لوّح بيده ثم دخل حجرته من جديد. وجدتُ أمجد يقول:

"إذن هو مجنون! أنتِ محظوظة للتخلص منه إذن! هذا من تظنينه أحد الأذكياء الذين قابلتهم في حياتك؟".

"اصمت".

لكنه لم يفعل. قال مفكرًا:

"لن أتركِكِ وحيدة معه إذن. فقد كنتِ خطيبتي ذات يوم، ولو حدث شيء لكِ؛ فضميري قادر على قتلي بدون رحمة".

قلتُ مستفزة له:

"هذا إذا لم تقتلك السمنة قبلها!".

أطلق ضحكة قصيرة تنبئ عن استمتاعه. شعرتُ بغيظ شديد منه، ونحن ندخل المصعد، ثم بعد أن خرجنا منه؛ لم أحسم أمري وأنا أقف أمام باب الشقة. أضغط الجرس أم لا؟

من حسن حظي أن نادر لم يظهر من العدم كعادته، وحينئذ سيتأكد أمجد أن حامد ليس هو المجنون الوحيد في هذا الموقف! موقف البوّاب غريب فعلًا. ليس من المألوف أن يتركنا ندخل هكذا، وأن ينعت حامد بالجنون!

ثمة سر في الأمر.

وجدت أمجد يمدّ يده ليضغط الجرس بجرأة، وهو يستند بذراعه إلى عمود رخامي. بعد قليل انفتح الباب، وأطلّ منه وجه وسيم، لامع، وهو يقول بدهشة:

"سامية! هل هو أنتِ؟".

رسمتُ ابتسامة على شفتيّ، وقلتُ:

"أنت تتذكرني إذن!".

قال:

"أي شخص سيتذكر من رفضته ذات يوم".

انسحب أمجد من لسانه:

"وربما أنت تتذكرها بسبب أنك تزعجها باتصالك بها".

قال بامتعاض:

"من هذا الوقح؟".

قال أمجد بلهجة متحدية:

"**خطيبها**".

قلتُ بسرعة، وأنا أرمق أمجد بنظرة نارية كفيلة بحرقه وتخليصي منه للأبد:

"خطيبي السابق".

قال حامد بحذر:

"ولماذا تتسكعين مع خطيبك السابق؟ هل هذا طبيعي؟".

ابتسم أمجد بشماتة. أشار إليّ فيما معناه:" أجيبى على سؤاله أيتها المتحذلقة؛ فقد وقعتِ في شرّ أعمالك!".

لكنى لم أترك نفسي للسقوط في الفخ. استدرتُ لحامد:

"هل أنت من تتصل بي؟".

قال فيما بدا لي أنه حذر، وهو أمر يخالف طبيعته الماكرة المائلة للغموض:

"ولمَ أفعل هذا؟".

نظرتُ في عينيه:

"لأنك تدعّي أنك تعرف سرّي".

هنا طرح قناع الحذر، وأطلق ضحكة خافتة تموج بالغموض! ها! لقد عاد لطبيعته إذن. قال برفق، وكأنه المعلم الأكبر، وأنا طفلة صغيره على بابه (كنت كذلك حرفيًا) أغترف من بحر حكمته:

"كلنا لديه أسراره".

ثم صمت، وكأن في إجابته هذه الكفاية. ومصداقًا لقوله هذا؛ فقد سمعنا في تلك اللحظة الأنين المكتوم القادم من داخل شقته.

***

مدَّ أمجد رقبته للداخل، لكن حامد للخارج برفقٍ أقرب للغلظة، أو العكس. لابد أن أمجد كان يتمنى لو كان زرافة. يا لفضول الرجال!

نظرتُ إليه، وقلتُ:

"هل هذا أنين؟".

قال بغلظة، كانت صريحة هذه المرة:

"وما شأنكما؟".

تعالى الأنين مرة أخرى، وبدا لي كصوت أنثى.

"حامد، ما الأمر؟".

"لا شأن لكِ بهذا يا آنسة. تأكدي أنى لستُ من يتصل بكِ. هذه تصرفات أطفال ولستُ منهم. فلتنصرفا".

وأغلق الباب في وجهينا بكل قلة ذوق. قال أمجد ساخرًا:

"هل هذا من كان سيتزوج بكِ ذات يوم؟".

قلتُ حائرة:

"هذه ليست طباعه يا بني. لابد أن شيئًا ما يحدث بالداخل".

"ماذا تقترحين أن نفعل أيتها العبقرية؟".

"ما رأيك أن نبلغ الشرطة. وجود أنين بالداخل، وارتباكه ربما....".

قاطعني وهو يرفع يده بطريقة صارمة. ملامحه انقلبت مائة وثمانين درجة. ملتُ إليه وقلت بصوت خفيض سمعته أنا بالكاد:

"ماذا؟".

أشار للباب، وهمس:

"إنه خلف الباب يتنصت علينا".

لم يكد ينطق بها حتى انفتح الباب بغتة، ووجدتُ ذراعين تمتدان وتسحبنا للداخل في قوة. تصرف غير متوقع، وحدث بسرعة بالغة، ومن ثمّ فلم نتخذ رد فعل في الوقت المناسب.

وجدنا نفسينا بالداخل، ملقيان على الأرض من شدة الجذبة، وحامد ينظر إلينا بغضب يشتعل في العينين الواسعتين، وهو يمسك مسدسًا، تُطِلُّ من فوهته القبيحة احتمالية الموت برصاصةٍ قد تنطلق منه في أية لحظة!

***

الفصل السابع

قلتُ بهلع:

"حامد! ماذا تفعل؟".

يده ترتجف. عيناه تزوغان.

"لم أكن أحب أن ينتهي الأمر هكذا".

قال أمجد بسرعة:

"هل تريد أن تداري جريمتك بجريمة أكبر؟ أيًا كان ما تحتجزها بالداخل؛ فلا يستحق الأمر أن تلوث يدك بدمائنا".

صرخ كالمجنون:

"أنا أحبها، والحمقاء لا تريد أن تفهم أنها فى سبيلها للارتباط بأفعى. ألا تفهم؟".

قال أمجد برفق:

"وهي ترفضك. ربما هي متعلقة بشخصٍ آخر. حتى لو لم يكن موجودًا في حياتها فعليا، مجرد طيف لا وجود له، قادم من الماضي. هذا يغضبك بشدة. تشعر بالمهانة. أن تتم المقارنة بينك وبين شخص مثله. هو الماضي، وأنت تصرُّ أن تكون الحاضر. لكن هل تظن أن إصرارك على أن تكون موجودًا في حياتا بهذا الشكل سيحسن الأمور بينكما؟ أنت مخطئ".

"وما أدراك أنت؟".

ألقى أمجد نظرة عليّ، جعلت جلد جسدي يقشعر، ثم التفت إلى حامد:

"أؤكد لك أن لديّ خبرة بهذا. الألم يا صديقي. الألم. من يقدر على احتمال ألم كهذا؟ لا أحد. لكننا نستمر، ونتعايش، وربما يأتي يوم نضحك على هذه الندوب الموجودة بداخلنا".

بدا أنه قد هدأ قليلًا. أنظر إلى أمجد كما لو كنتُ أراه لأول مرة. أنا نفسي تأثرت. لكن الأنين الذي ارتفع مرة أخرى بطريقة مجنونة فيما يبدو، مع حركة مضطربة فوضوية، جعلت موجة الجنون تتأجج في ذهن رأس مضيفنا المختل، وبدا أنه مقدم على ارتكاب حماقة، لا يصلح معها أن "نملص" أذنيه، ونضربه على مؤخرته كالأطفال.

في اللحظة التالية وجدتني أتحرك. لا أعرف كيف فعلتها. لا أعرف كيف مددتُ قدمي بسرعة لتضرب ساقه اليمنى، وكانت الضربة من القوة بحيث انكفأ على وجهه، وكانت من القوة أيضًا أن جعلت رصاصة تنطلق من مسدسه، بشكل مائل، وتخترق جسد أمجد، الذي صرخ، والدم يسيل بغزارة من ثقب قبيح بكتفه:

"أيتها المجنونة!".

"أعتذر بشدة. لم أكن أقصد...".

وقبل أن أكمل اعتذاري الحارّ، جثم حامد على جسدي يبغي تقييدي، ورائحة فمه الساخنة الكريهة تلفح وجهي. لو لم يكن هو قطعة من الجحيم؛ فمن يكن؟

كان قوي البنية كالثور، ومنحه غضبه قوة إضافية جعلته يُقيّد حركتي بسهولة، وأنا أحاول التخلص من قبضتيه الفولاذيتين، وبينما أصارع من أجل الحياة كان أمجد يولول كفتاة صغيرة كما يليق به.

نفس المنظر الذي رأيته من قبل في المطبخ. لكن بدلًا من غطاء الإناء الساخن؛ هناك رصاصة محترقة داخل لوح كتفه! على الأقل ولولته هذه لها مبرر هنا!

ارتفع الأنين مرة أخرى. كان أكثر وضوحًا هذه المرة. بدا أنثويًا، مُترعًا بالآلام. وفي حركة غير متوقعة زحف أمجد ناحية الحجرة ودفعها برأسها بقوة.

بدا أن ثمة ضوء قادم من الداخل، ولابد أن أمجد كان يعرف أن الباب موارب، وإلا تسببتْ الضربة في شجّ جمجمته. يكفيه جرح الرصاصة. فيما يفكر هذا المجنون؟ أعترف أن هذا أثار إعجابي. ثم تذكرتُ أنه مولعٌ بي؛ فلابد أن يقصد هذا بالفعل.

رأيتُ وجهه-من تلك الزاوية الصعبة التي أنظر إليه فيها، وأنا أحاول إبعاد وجه حامد الممتقع، والخوار المقزز الذي ينبعث مع الرائحة الكريهة من فمه.

"ما هذا؟".

قالها بدهشة. وربما كان هذا المشهد هو الذي غذّي عروقي بقوة هائلة، وأنا أدفع برأسي-وقد استوحيتها من أمجد الذي سبقني بنفس الحركة ببضع ثوان-في وجه حامد.

كانت الضربة غير المتوقعة من القوة، لدرجة جعلته يتراجع للخلف بقوة، ويرتطم رأسه بالجدار، ويسقط أرضًا.

رحتُ ألهث، وأنا أشعر بالفخر بنفسي. تقدمتُ بخطوات مترنحة من التعب، ناحية الحجرة، وبينما كان أمجد أرضًا يحدّق في شيء ما بالحجرة، وكان الدم يسيل منه بغزارة، تتناسب مع بدين مثله، توقفتُ مبهوتة أمام المنظر غير المتوقع.

في نفس اللحظة التي ارتفعتْ فيها دقات مضطربة على باب الشقة.

***

لم يكن هناك مناصٌ من فتح الباب. كان هو بوّاب العمارة. ينظر بتوجس لوجهي؛ مما جعلني أصرخ في وجهه:

"اطلب الشرطة فورًا".

لوهلة لم يفهم ما قلت؛ فكررته بعصبية ارتفعت درجة؛ مما جعله يدرك أن الأمر جلل. ما هو تحديدًا؟

لا يعرف.

المهم أنه هرول مبتعدًا. خطر لي أني من الممكن أن أطلب الشرطة بنفسي لكن الهاتف الخاص بي يبدو أن بطاريته توشك على النفاذ، بالإضافة إلى أنى أحتاج من يدعم قصتي.

عدت للحجرة، وحدّقتُ في الفتاة المحتجزة، ذات الوجه الشاحب، والعينين الزائغتين.

أما حامد فقد انزوى في ركن الحجرة، وقد انكشف وجهه القبيح، وأفصح عن ذلك الوحش القابع بداخله. كان أمجد ينزف، وهو يئن، ويداه ترتجفان. رمقته بإشفاق، وأنا أشعر بالذنب. لقد جررته ورائي في تلك المجازفة الخطرة، وها هو ذا يتألم.

المؤلم أكثر تعابير وجهه، كأنه شهيد يضحى بنفسه من أجل بلده. أعرف هذا الشعور الطفولي عندما يقوم به الرجال باقتدار. أغاظني هذا، وقلت بضيق:

"فلتتحمل، وكفَّ عن أنينك المزعج هذا".

رمقني بنظرة نارية. هناك كلام كثير قرأته بوضوح في عينيه؛ مما جعلني أشيح بوجهي، وأنا أيممه ناحية حامد.

"إذن فهو أنت!"

رمقني بنظرة خاوية. كررتُ بعصبية:

"أهو أنت؟".

ابتسامة متهكمة على شفتيه. لوددتُ لو حشوتُ فمه بفردة حذائي، حتى أتخلص من هذه الابتسامة! لكم نُخدع في البشر! أهذا الرجل كان

في صالة منزلنا ذات يوم، يبتسم بلباقة وغموض، واضعًا ساق على ساق، قادمًا من أجل طلبي للزواج؟

التفتُّ إلى أمجد الذي كان يغمض عينيه، وهو يعضُّ شفتيه، مبرزًا المعاناة القاسية التي يمرُّ بها، ولا ألومه على ذلك بصراحة؛ فبسببي هو الآن في موقفٍ لا يُحسد عليه.

"تحمَّل يا بطل! تحمَّل".

قال بهلع:

"أخبريني: هل هناك دمٌ كثيرٌ؟".

"هل تخشى منظر الدم؟".

"يفقدني وعيي أحيانًا".

ضحكتُ على الرغم منى. هنا فتح عينيه، وألقى نظرة غاضبة علىّ. ثم تبدل الغضب بالدهشة. قلتُ بقلق:

"ماذا؟".

"أين حامد؟".

نظرتُ حولي؛ فلم أجده. يبدو أنه قد استغل انشغالنا في الحديث، وهرب. ثم سمعتُ وقعِ الخطوات التي تقترب منا.

***

أمام مدخل العمارة: كان هناك الكثير من الضجيج، الكثير من الزحام، الكثير من الأسئلة، وقد تحولنا بقدرة قادر-أنا وأمجد-إلى اثنين مشتبه

بهما، وغذى هذا الإحساس البوَّاب النحيل، والذي نفش صدره، وراح يتكلم بحماس مع رجال الشرطة، باعتباره الساهر على راحة سكّان العمارة.

سكان العمارة أنفسهم كانوا يحتشدون، منهم من هو بكامل أناقته، ومنهم من يرتدى ثيابه المنزلية المريحة، وقوفًا وجلوسًا، وكان من الصعب أن أقول للضابط أنى أبحث عن عريس غير ممل!

الحقيقة أن التهمة كادت تثبت علينا، مع كلام البوّاب الأفاق، وسكّان العمارة أنفسهم الذين راحوا يدلون بدلوهم، ويؤكدون أنهم كانوا يشكون في حامد منذ زمنٍ، لكنهم لم يجدوا قرينة تثبت التهمة عليه. كلهم يلعب دور هركيول بوارو بشكل مقزز!

لكن ما أنقذنا هو الفتاة نفسها! لقد أكدت أننا أنقذناها من ذلك الوحش، الذي كان يحتجزها على الرغم منها. الضابط أخلى سبيلنا، بعد أن حصل على طرق التواصل معنا، متضمنًا ذلك عنوانينا.

رفض أمجد أن يذهب للمستشفى، واكتفى بتضميد طبيبة من سكان العمارة لجرحه وتنظيفه، وأصرَّ على العودة. لابد أننا ظللنا لعشر دقائق دون أن نتكلم. لكن يبدو أن الكثير من الغبار الحارق كان يحتشد تحت جلد أمجد، وقد انفجر أخيرًا.

"أهذا من تقدّم إليكِ من قبل؟".

قلت بهدوء، متجاهلة نظرة الاستهجان على وجهه:

"كما ترى فأنا مغناطيس أجذب النفوس المعتمة".

ثم قلتُ مبتسمة على الرغم منى:

"ويبدو أنك الوحيد الذي خرج عن هذا التصنيف".

لوى شفتيه:

"ومن أدراكِ أنه لا يوجد لدىّ جانب مظلم؟".

"وهل لديك؟".

انتفختْ أوداجه:

"بالطبع. لدى الكثير من الأسرار الرهيبة. لكنى أحتفظ بها".

أطلقتُ ضحكة ساخرة.

"أشكُّ".

قال بسرعة:

"لكن ليس من ضمنها احتجاز الفتيات طبعًا".

أومأتُ برأسى. غمرنا الصمت مرة أخرى. ثم قلتُ:

"سعيدة أنا بوجودك معي اليوم يا أمجد".

قال باهتمام خبيث:

"هل أفهم من ذلك أنكِ في سبيلكِ للوقوع في غرامي؟".

زمجرتُ قائلة:

"هذا ما أخشاه. تظن أن ذلك سيحدث لمجرد أنك ساعدتني؟ لا تكن طفلا".

هز رأسه بلا مبالاة:

"نزار قبانى قال بأن الرجال جميعهم أطفال. لن أخرج عن هذا التصنيف أيضًا".

"وتقرأ لنزار قباني أيضا؟".

"إنه من شعرائي المفضلين. لو لم أكن أمجد لكنت نزارًا".

هززت رأسى في تعجب. النقاش مع هذا المخلوق مستحيل. على وجه الدقة: من المستحيل أن أصل معه إلى شيء. كرشه وردوده غير المتوقعة، حقا يوجد في هذا العالم ما يدهشنا، ولا نتوقع حدوثه. وأقرب مثال لذلك حامد هذا.

***

مفكرتي العزيزة....

بينما كنتُ أستند إلى مقعدي، وأمجد يقود، وهو يثرثر بلا نهاية، حتى بدأ ينمو صداع في جمجمتي، وللأسف شعرتُ بالحرج منه.

بينما كانت لدى القدرة على دسّ فردة حذائي في فم حامد سابقا، لكنى لا أقدر على فعل ذلك الآن، مع الرجل الذي أخذ رصاصة في كتفه، وفيما يبدو هذا سيعطي له الحق في أن يتدخل في حياتي للأبد، بل-وهذا للغرابة الشديدة-أن ينمو لديه أمل بأنه من الممكن أن أقع في حبه.

كيف يحدث هذا يا بنى؟ أنت لست من طرازي المفضل، وكذلك هناك رجل آخر قابع في الأعماق، يزن آلاف الأطنان، ومن أجل تحريكه سأحتاج إلى جرّافة سحرية قادمة من عوالم هاري بوتر ذاتها!

وفى محاولة منى للخروج بعيدًا عن نطاق صوته العالى المزعج، استرخيتُ في مقعدي، وأنا أستدعي من الذاكرة لقائي الأول بحامد.

***

كان يوم اثنين. نعم، أتذكر هذا اليوم جيدًا؛ لأن أختى سمية قررت تعليمي كيف يُصنع المحشي، وكانت النتيجة كارثية، رائحة شياط، وحريق صغير مرعب، وجريان أمى لكي تضع الحلة تحت الماء وهي تشتم وتسب-وقلما تفعل ذلك -قبل أن تبرز سمية شارحة لها، أن الرجال "همهم على بطنهم"، وأنه من الأفضل لو اختصرنا الطرق إليهم بهذه الطريقة. لماذا لا تكون المشاعر سهلة وبسيطة كذلك؟

بعد الظهر قليل وصل في موعده بالضبط. كنتُ أجلس في حجرتى، أقضم أظافري-كما هي عادتي الأبدية-والتوتر يكاد يقتلني. كل عريس أشبه بصندوق مغلق مع ما يحتويه. لن أقول مثال" البطيخة" هنا لأنه متعلق بعملية الزواج نفسها. لكن فكرة أن يدخل حياتك أحد أنت لا تعرفه.

في الواقع هو يقتحم حياتك بدقات هادئة على باب منزلك، بعد أن يتفق مع أبي- الحاج رمضان- والذي يرتدي دوما بدلته السوداء الأنيقة، وهو أمر لا يتحمله هو فى العادة، لكنه مضطر.

حتى أنه فكر جديًا أن يرتدى جلبابا أبيض، أن يكون على راحته، ربما ينحل النحس العالق بطرف ثوب ابنته-التي هي أنا-، وكما تعلمين-يا مفكرتي العزيزة-أننا نلجأ للاحتمالات مهما بدت مغرقة في الغرابة والاستحالة أيضًا.

هذا الصندوق كان غامضًا أكثر من اللازم. كان حامد طويلا، عريض المنكبين، قوي البنية، ولا بد أنه في عالم مواز آخر يعمل كرجل أمن خطير، يعقد حاجبيه في الملمَّات، ويقضى وقته في أداء المهام المستحيلة. والحقيقة أن أبي شعر بالانبهار عندما رآه، وناده ذات مرة بلفظة" يا باشا"؛ مما أشعرني بالضيق.

"احم. اعذرني يا بني. لكن ما هو عملك؟".

قالها أبى على استحياء مما أغاظني بشدة. لكم تخدع المظاهر!

"أعمال حرة".

قالها حامد بابتسامة لزجة، تكاد تسيل من على شفتيه.

لم يكن مريحًا. لو كان يريد توصيل انطباع الرجل الغامض الساحر؛ فقد تكللت مهمته بنجاح. هنا نسينا أن أمه كانت معه.

ست طيبة، ترتدى السواد على أبيه الذي توفى منذ عشرين سنة تقريبا، لكن بالنسبة لسيدة كهذه؛ فالزمن قد توقف عند موته، ولم يعد نهر الزمن يستمر في جريانه.

على الأقل بالنسبة لها. الآن ترى أن ابنها الأحمق، يوشك على تضييع الزيجة. كل الأهالي يتعاملون هنا بمبدأ الأخ الأكبر.

"يشرفنا طلب يد ابنتكم لابني حامد".

قالتها الأم بأريحية وهي تبتسم، وإن بدا في عينيها خوف غريب، وكأنها تخشى رفضنا. كنتُ قد دخلتُ منذ خمس دقائق أحمل صينية المشروبات الخالدة، والتي كادت تقتل نفسها من فرط شعورها بالملل، من تلك الخطوبات التي لا تتم.

ما لفت نظري كان هو حامد نفسه. الحقيقة أنه كان ضجِرًا، وكأنه قد أُجبرَ على القدوم، لكن فور أن دخلتُ رمقني باهتمام لدقيقة فحسب. قصة معتادة ومتكررة. لابد أنه خرج من عدة قصص محطما، وكفر بذلك الغامض المجنون الذي يدعي الحب، ومن ثمَّ وعندما وجد قطار العمر يمضي به إلى الهاوية يلحقه أهله بزيجة تقليدية، ويبدو أنه نصف موافق على ذلك.

لم يكن لديه ذلك الشغف لمعرفتي، أو حتى طرق بابي، ومعرفة ما أحبه وأكرهه. وهذا مهين لكرامتى بشدة. استمر اللقاء لساعتين. تكلمنا، وأُديرت المشروبات مرة أخرى، مع قطع الجاتوه، التي يصمم والدي أن يأتي بها لكل عريس يطرق بابنا، حتى يعرف أي بيت كرم ذهب إليه.

وخلال تلك الفترة القصيرة أمكنني-تعلمين خبرتى في ذلك-أن أميز ذكاءه. هذا الشاب ليس أجوف. مثقف إلى حد كبير، وربما يحمل روح فنان. لكن مسألة عمله الغامضة، وكذلك كلامه القليل، وضجره الخفي، الذي التقطته بخبرتي؛ جعلني أصنفه، وأضعه في رفِّ الأذكياء. ذكي وقادر-بعد مُضيّ فترة طويلة من لقائي به- أن يتصل بي ويهددني بسرٍ مزعوم..

لكن لم يخطر ببالى أبدًا أن يختطف فتاة بريئة هكذا!

"لقد وصلنا".

أخرجنى أمجد من ذكرياتي بكلمته هذه. كان من الواضح أنه يكتم غضبه الشديد. سألته برفق:

"مالك؟".

انفجر:

"تتركيني أتحدث بلا انقطاع، وتغرقين في تهويماتك! فيمن كنتِ تفكرين؟ في نادر؟".

ضحكتُ وانا أشعر بلذة استمتاع غريبة. هل يغار علىّ؟

"بل في حامد يا بنى. هذا الأمر يحيرنى. ما الذي يجعل شابًا كهذا يفعل ذلك، ويخاطر بمستقبله؟".

"الجنون فنون".

"هذه هي إجابتك العبقرية؟! الجنون!".

قال بلهجة ذات مغزى:

"لكل منا جنونه الخاص".

طبعًا الأحمق يقصد موضوع نادر الذي رأيته في المطعم. أغلقت باب السيارة بعنف، وأنا أقول بغلظة:

"تصبح على خير".

وتوجهتُ لمنزلي، ثم توقفتُ وألقيت نظرة صارمة عليه:

"ودع والدتك تهتم بهذا الجرح الغائر. لا أعرف كيف ستخبر أهلك بالأمر".

قال ببساطة وهو ينطلق بسيارته:

"لن أخبرهما".

رمقته بدهشة. كدتُ أقول شيئًا ما، لكنه غاب عن ناظرى. أرجو ألا يتسبب الجرح في أن يرتكب حادثا أهوج، يودي به للهلاك.

أحتاجه في بحث بقية قائمة خطّابي الأذكياء. كان أبي قلقًا، وأمى تتحرك بعصبية في الصالة. أمكننى رؤية سلويتها المميز من النافذة. عندما دخلتُ للبيت انفجر أبى غاضبًا.

"أين كنتِ يا ست هانم؟".

قلما أرى أبي غاضبًا. للأسف لقد نسيتُ قلقه وسط أحداث اليوم المثيرة. كان وجهه يحتشد بالدم، وأمى تحاول تهدئته دون جدوى. لا شكّ أن فسخ الخطوبة مع أمجد كان له أبلغ الأثر في هذا الغضب.

قلتُ، وأنا أنتقى كلماتى، مراقبةً ردة فعله، وأنا أرجو أن أكون مصيبة في الكلمات الثلاثة القادمة:

"كنتُ مع أمجد".

كما توقعت؛ انفرجت أساريره، وغاضت ينابيع غضبه، وأشرق وجهه، بينما أمي تقول بشكّ:

"وماذا كنتِ تفعلين معه؟".

قلتُ، محاولة ألا أُفصح وألا اكذب في ذات الوقت:

"ثمة أمر هام كنا ننجزه".

في الواقع لم أكذب حتى في هذه الجملة، برغم معرفتي أن الأمر يذهب إلى شيء ما في عقليهما، وبالتالي فهذا هو نوع من الكذب أيضًا.

بحث أبى في عقله-بدا هذا لي واضحًا من رعشة يديه-عن ردّ مناسب، لكنه لم يجد.

أخرج مسبحته، وجلس على مقعده المفضل، معلنا عن انتهاء العاصفة. قبلته في وجنته، ثم ذهبتُ لحجرتى. لحقتني أمى بكوب من السحلب الدافيء؛ فقبلتها في وجنتها. محظوظة أنا بوجودهما.

أغلقتُ الباب خلفي، وأنا أتنهد.

أريد قسطًا من الراحة. لكن يبدو أن نادر لم تصله هذه الرغبة؛ فقد كان يجس بجوار النافذة، على مقعدى المفضل، الذي أرقب فيه أشجار الشارع، وخاصة في فصل الخريف، حيث كانت الرياح تكنس أوراق الشجر الجافة الشاحبة على الأسفلت.

المنظر كان فاتنًا. صحيح أنه يشبهني إلى حدٍ ما، لكنه كان رائعًا.

"ماذا تريد؟".

سألته؛ فابتسم. قال برفق:

"هل استمتعتِ معه؟".

"تقصد من؟".

"العزيز أمجد".

"وهل كنا في نزهة؟".

تأمل أصابعه:

"بالنسبة لي هي كذلك".

"لقد كنا نواجه خطر الموت".

"لكن هذا لا يمنع أن تستمتعي معه".

قلتُ بخشونة:

"ماذا تريد؟".

ضحك:

"أنا غير موجود يا عزيزتي. ومعنى أنكِ ترينى الآن، أنكِ تريدين أن أكون موجودًا. أرجو ألا تنسى هذا".

ضغطتُ على رأسي:

"كلا، لا أريدك".

"كأنكِ بهذا التصرف الصبياني تستطيعين إخراس لا وعيك. بائسةٌ أنتِ".

ناقص أن يقول: "... وطويلٌ جدًا مشواري"، كما قال نزار قباني في إحدى قصائده.

أغمضت عينيّ، وألقيت بجسدي على السرير، وقلت:

"فلتتكلم حتى الصباح إذن. لا أكترث".

لم أسمع شيئًا؛ ففتحتُ بصري؛ لأجده قد اختفى. عاد لحالته الدخانية المعهودة. مجرد طيف في ذهني! لقد زادت حالتي سوءًا.

أغمضتُ عينيِّ، ونمتُ، ولم أشعر إلا بأصابع أمي تلمس وجنتي برفق:

"سامية. استيقظي".

هببتُ من نومي فزعة:

"ماذا؟".

قالت:

"هناك فتاة اسمها مروة تطلب مقابلتك في الصالون".

لوهلة حدقت في وجه أمي. وللحظة تساءلتُ من هي، وماذا أفعل هنا؟ مررت بتلك الحالة التي يغدو فيها المرء بلا ذاكرة، جاء فجأة من العدم إلى العالم، يتساءل عن ماهيته.

ثم بدأت الذاكرة تتدفق لعقلي. سألتها:

"من مروة هذه؟".

"ومن أدراني؟ فتاة شاحبة للغاية، كأنها مريضة".

هذا جعلني أنهض، وأتجه للحمام وأغسل وجهي على عجل، وأرتدي روبًا منزليا مريحا. وعندما رأيتها لم أصدق نفسي. كانت الفتاة التي

أنقذناها بالأمس. الغريب أنى لم أعرف اسمها. ما أن رأتني حتى ألقت نفسها في حضني.

"أشكرك".

همستْ بها بامتنان. شعرتُ بالارتباك. لم أتعرض لهذا الموقف من قبل. ليس مأزقًا، لكنه يظل محرجًا. هذا يستتبع أن أتذكر عما حدث البارحة.

الكذب ليس له ساقان. مقولة أختبرها فعليًا في تلك اللحظة. تحت نظرات أبى الساحقة الماحقة، وتساؤلات أمي الأبدية، وجدتني أنسحب لغرفتي، ومعي ضيفتي.

"لم يستحق الأمر منكِ الحضور. بالمناسبة: كيف عرفتِ عنواني؟".

"من الضابط الذي أخذ أقوالك".

"المهم أنكِ بخير".

همستْ:

"لستُ كذلك".

"المهم أنكِ تخلصتِ من هذا المعتل".

"ومن قال لكِ أنى قد فعلتُ؟".

تحت نظراتي المستفهمة؛ يبدو أنها قد شعرتْ بالحرج. هذه الفتاة تخفى شيئًا ما. أعلم أنها أخبرتْ الضابط بالأمس-بكلمات متقطعة مفعمة بالخوف-عن اختطافه إياها قبل زفافها بأيام قلائل، ولم تدر بنفسها إلا وهي عنده. فما الجديد الذي يمكن أن تضيفه الآن؟

"أنا أعرفه".

"ماذا؟".

قلتها بدهشة، في نفس اللحظة التي دخلت فيها أمي وهي تحمل صينية المشروبات. الحقيقة أنى بلا أصدقاء أو صديقات، متوحدة، كمخلوقٍ فقد قدرته على التعامل مع الآخرين، أقضي وقتي في أحلام اليقظة، والاكتئاب، والقراءة، والبحث عن شيء ما، وألم نادر الذي لا يخمد. كما ترين - يا مفكرتي الحبيبة - أنا مشغولة لدرجة لا تمكنني من عقد تلك الصداقات.

أنا معتادة على تقديم صينية المشروبات للعرسان المتقدمين لى، حتى خِلتُ أن هذا هو هدفي في الحياة الذي خُلقتُ من أجله. الآن أرى أمي تفعلها، وهذا أشعرني بسرور خفي يمكن تفهمه.

وضعتْ أمي الصينية، وهي ترمقنا بفضول. أعرف أنها ليست من النساء اللواتي تضع أذنيها على الباب، لتعرف أية جريمة نكراء نخطط لها.

لكنى أعلم أيضًا أنى-تحت وطأة نظراتها الحارقة وليست المستفهمة فحسب-سأبوح لها بالشيء الكثير. ليس كل شيء كالعادة، لكن ما سيرضى فضولها. فور أن أغلقتْ الباب خلفها، قلتُ بانفعال:

"تعرفينه؟ لكنكِ لم تخبري الضابط بهذا".

تنهدتْ:

"الموضوع معقد يا سامية".

ثم قالت بحرج:

"هل يمكن أن أناديك باسمك مجردًا؟".

ابتسمت لها وأنا أومىء برأسى. ليس الوقت وقت ألقاب الآن يا حمقاء!

قدمت لها كأس العصير:

"تعرفينه من أين؟".

"كان زميلي في المسرح، وقبلها كان يعمل فى شركة أبي".

"فعلا؟".

أومأت برأسها:

"نعم، كان فى البداية يعمل كموظف حسابات فى الشركة، ثم ترك العمل وعمل بالمسرح. الحقيقة أنه من شجعنى على ممارسة هوايتي فى التمثيل، وكان نجما لامعا هناك، وقد انبهرتُ بغموضه وأناقته".

قلت مبتسمة:

"يبدو أن هذا رأس ماله".

"هو ذاك. لكنى لم أسترح لهذه الطبائع. أنا فتاة بسيطة أرغب في شخص أكثر بساطة منى. شخص أعرف حدوده جيدًا، ولا يحيرني في التعامل معه. الحياة أعقد من أن أضيعها في استكشاف طبائع شخص ما".

حكيمة هذه الفتاة. يا ليت الأمور بهذه البساطة؟ وماذا عمن ينجذبون لذوي الطبائع المظلمة يا مروة؟

"ثم وقع في غرامي".

اعتدلتُ في جلستي. لقد بدأت القصة تحلو.

"أخبرني بأنه يحبني، وأنها يريد الزواج مني. لكني رفضت. حاولت إفهامه وجهة نظري، ولفترة بدا أنه قد فهم بالفعل، وصرنا نتعامل في أضيق الحدود. ويبدو أنه كان يمرُّ بحالة نفسية سيئة لدرجة أنه تحت إلحاح أمه قبل أن يخطب فتاة لا يعرفها. لكنها لم تعجبه".

هل الفتاة التي لم تعجبه هي أنا؟

الكذاب!

أنا من لم تعجبه؟

أتذكر جيدًا أني رفضته بالثُلث!

عظيم، وراء الشخصيات المبهرة توجد فجوات وثقوب كفيلة بتمرير فيل بأكمله. قلتُ باهتمام؛ فهذه أول مرة تتاح لي أن أرى نفسي من وجهة نظر مغايرة:

"ولماذا لم تعجبه؟".

"لأنها حمقاء! سطحية، معدومة الثقافة".

غلى الدم في عروقي.

الوغد الحقير. يتجنى عليّ أيضًا.

تمالكتُ أعصابي. في الواقع هو في وضع لا يُحسد عليه، ونصف شرطة البلد تبحث عنه، وربما يُمرر اسمه للصحف؛ تنهش في لحمه.

إنها لعدالة شعرية من نوعٍ ما، لو أخذتِ رأيي.

أخذت نفسا عميقا، وهي تُكمل:

"لكن كل شيء تغير عندما تقدم لي تامر".

"من تامر هذا؟".

"ذراع أبي الأيمن في العمل، شاب طموح مكافح، وقد أعجبني ثقله ورسيانه غير المبالغ فيه. قلتُ لنفسي ولم لا. ربما لا تعلمين أني الآن في السادسة والثلاثين، وقد حان الوقت لكي أتزوج. لقد عملت في المسارح، وأشبعتُ هوايتي؛ فلم التردد؟".

"ووافقتِ عليه؟".

"أجل، وعندما أخبرتُ حامد لم تبدر منه ردة فعل. وغاب أيام. خمنتُ أنه حزين. ثم عاد واختطفني. كنت خارجة من المسرح عندما توقفت سيارته، وإذا بمحقن ينغرس في رقبتي، وغبتُ في الظلام".

قلت بدهشة:

"هل هو مجنون؟".

"رأيتِ بنفسكِ؛ ما يجعلك تتيقنين من جنونه. بالمناسبة: ما علاقتك به؟".

تجاهلتُ السؤال وقلت:

"لكن كيف صعد بكِ إلى العمارة دون أن يلاحظ أحد؟".

هزت رأسها أنها لا تعلم. وثبت صورة البوّاب المريبة إلى ذهني.

ذلك الخبيث، لابد أنه هو من ساعده على ذلك. الثعبان المتلون.

"لم تجيبي على سؤالي: ما علاقتك به؟".

قلت مبتسمة:

"أنا الفتاة الحمقاء السطحية معدومة الثقافة التى رفض الزواج منها ".

***

عندما ذهبتُ للقاء أمجد في منزله، قابلتُ أمه.

كانت نظرتها الغريبة تقول: "***أنتِ الفتاة الحمقاء التي رفضتِ الزواج من ابني***؟".

كانت متحفزة لسبب مجهول، لكن هذا لم يمنعها من كرم الضيافة.

خطر ببالي أنه قد أخبرهما بالأمر، وقد عرفا بموضوع الرصاصة التي اخترقت كتفه. كنتُ غارقة في عرق الخجل عندما ظهر أمجد، وهو يلوى بوزه كالأطفال" المقموصين". قلتُ بغيظ:

"لماذا لا ترد على هاتفك؟".

"المفروض أنه قد انتهى ما بيننا".

"هل تمزح؟ لقد اتفقنا أن تذهب معي من أجل..."

قاطعني:

"كنتُ مشغولا في الفترة السابقة في التقدم لخطبة فتاة".

تجمدتُ مذهولة. ماذا؟ أفصحتْ عيناي عن دهشتي. لوح بيده:

"لم يسر الأمر على ما يرام".

"ولمَ؟".

هزَّ كتفيه دون أن يجيب. هذا يفسر غضب أمه. معنى هذا أنه لم يخبرهما بما جرى. عجيب! يتناقض هذا مع رغبة الرجال العارمة في التباهي. على كل حال هي تلومني بشكل أو بآخر. تختلف مقابلتها الباردة هذه عن الحفاوة السابقة التي لقيتها منها، عندما قدمتُ لمنزلها لأول مرة.

"لماذا أتيتِ؟".

"مروة كانت عندي بالأمس".

"مروة من؟".

"الفتاة التي أنقذناها من ذلك المختل".

بدا الاهتمام على وجهه؛ مما سرني هذا. رويتُ له حدث، ثم ختمت قصتها بقولي:

"إنها تريد مساعدتي في إنقاذها من ذلك المجنون، لكن....".

"لكن ماذا؟".

قلت بحيرة:

"هذه الفتاة تخفى شيئًا ما عنى. لم تقل كل الحقيقة".

"وكيف سننقذها؟ هل سنعين أنفسنا حارسين شخصيين لها؟ لسنا في أحد الأفلام الأمريكية".

ابتسمتُ بغموض:

"لدى فكرة".

رمق السقف برهبة:

"يا منجى من المهالك يا رب".

ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أنفجر ضاحكة!

***

كان زفاف مروة فى اليوم التالي، وقد بدأت الحياة تعود إلى مجاريها. استقبلتنا في قصرها الفاخر. كانت الفتاة ثرية إلى حد فاحش، وبدا أبوها كإقطاعي قديم. قال أمجد هامسًا، ونحن نقترب منه في مكتبه الفاخر:

"لابد أن والدها يعمل في تجارة السلاح أو المخدرات".

"صه يا أحمق!".

لمعت عيناه بغضب؛ فبدا الحرج على وجهي. استقبلنا الرجل بترحاب غير عادي:

"فإذن فأنتما من أنقذتما ابنتي من ذلك المجنون!".

نفش أمجد صدره بفخر، وهو يتحسس موضع الرصاصة، وكأنه يذكره بتضحيته العظيمة. أما أنا فقلت:

"لم ينته الأمر بعد".

قال بضيق:

" بنتي الوحيدة لم تعد تشعر بالأمان. تخيلي! كل هذا الكمّ من الحراس الشخصيين والأمن المحكم، والفتاة تسير في الشارع محاطة

بجيش منهم، وتشعر أن خصوصيتها منتهكة، وأن هناك من يتتبع خطواتها! إنه شيء فظيع!".

ابتلعت ريقي في توتر. إنه يشرح حالتي بالضبط.

أنا أيضًا أشعر بمن يتتبع خطواتي. وهذا ليس البارحة. بل منذ زمنٍ بعيد. طبعًا كانت إجابة نادر عن مراقبته لي متخيلة، نوع من البحث عن إجابة ما لسؤالٍ يؤرقني، ويقضُّ مضجعي. ما أصعب الإجابات حين نبحث عنها، وما أقساها حين تسعى إلينا!

"أين هي؟".

لوح بيديه:

"لابد أنها في حجرتها. إنها لا تغادرها إلا لماما".

"غريب!".

همستُ بها. اقترب منى أمجد وقال:

"ألم تكوني تفعلي هذا، عندما تأتى بقية فروع العائلة لزيارتكم بمنزلكم؟".

"كيف عرفت هذا؟".

"شيء متوقع. إنه لا يحتاج لعبقري".

"لكنه ليس مسوغا لفتاة كمروة أن تفعله".

أومأ برأسه. فجأة لمحناه قادما. شاب وسيم، ممشوق القوام، وكانت عيناه سوداوين بشكل مبالغ فيه.

وأمكنني أن ألمح أنه صار مركزًا للكون فور دخوله، والأعين تتابعه. أما أمجد فقد تظاهر باللامبالاة، وإن لمحتُ في عينيه غيرة.

بل ومرَّر يده على كرشه بتلقائية، ثم تذكر أنه يقف أمام موديل مجسد للرشاقة؛ فشفط كرشه، وهذا التصرف جعلني أضحك على الرغم منى!

كنتُ أقرأ عن الضحكات التي ترن ككؤوس الفضة. بدا لي هذا لفظًا غريبًا. لكنى مارسته بإتقان فى تلك اللحظة. ضحكة لها رنين الفضة تتردد كالصدى في المكان، وكانت النتيجة-التي جعلت وجهي يتحول لثمرة طماطم ناضجة-أن التفتتْ الأعين لي، وللحظة-فقط للحظة- صرتُ أنا مركز الكون، وهو شرف أتخلى عنه بأريحية في تلك اللحظة المحرجة من تاريخي يا مفكرتي العزيزة.

قال أبو مروة مقدمًا لنا الوافد الجديد:

"تامر خطيب ابنتي وزوجها المستقبلي".

مدّ يده ليصافحني؛ مما أشعرني بالحرج. أنا لا أصافح الرجال عادة.

قال أبو مروة:

"هذان من أنقذا مروة يا تامر. أنت تدين لهما بالكثير".

ابتسم فيما بدت لي ابتسامة امتنان. كان لطيفًا، وهو يصحبنا لحجرة مروة

قال بتوتر أفصح عن نفسه في نبرة صوته:

"أعرف أنها ما زالت متأثرة من حادث الاختطاف، لكن من الأفضل لها ولى أن نتزوج. لن تجد كتفًا تستند إليه في محنتها هذه أكثر من كتفي".

قال أمجد وهو يهز كتفيه، وكأنه ينفض رأس مروة المتخيلة عنه:

"أراها لا تحتاج إلى ذلك يا أستاذ تامر. إنها فتاة قوية".

"هي كذلك".

ثم طرق الباب:

"الأستاذة سامية والأستاذ أكمل يريدان مقابلتك يا مروة".

قال أمجد مصححًا:

"أمجد".

قال فيما بدا أنها ابتسامة خبيثة:

"معذرة؛ لكنى أرى أكمل أكثر جمالًا بغضِّ النظر عمن يحمله".

قالها، وألقى نظرة ذات مغزى على كرش أمجد الممتد أمامه. هنا رأيتُ نظرة مقت في عينيِّ رفيقي البدين. لقد صار تامر أحد أعدائه الأبديين!

"تامر بك. الباشا يريدك".

أتاه الصوت من أسفل؛ فأومأ برأسه بوقار، وتركنا دون كلمة واحدة.

قال أمجد من بين أسنانه:

"مغرور، مدعٍ".

قلتُ وأنا أضحك:

"مفهوم، مفهوم".

قال بضيق:

"إنه شخصية مقيتة. كيف ستتزوج مروة من هذا الحلوف؟".

"كنت أظن أن النساء فقط هنا من يغرن من بعضهن البعض. لكن يبدو أنكم-يا معشر الرجال-تفعلون مثلنا وأكثر".

همَّ بأن يقول شيئًا ما، لكن الباب انفتح، وأطلت منه مروة.

ويا لهول ما رأيناه!

***

مفكرتي العزيزة...

لابد أنكِ تشعرين الآن بفضول جارف، تنتظرين أن أفصح لكِ عن الهول الذي كان ينتظرنا مع مروة، بعد أن فتحت لنا الباب.

حسنًا، الهول لم يكن خلفها، لكنه كان يستقر على وجهها البيضاوي بوضوح. إنه الحزن، والقهر، اللذان سكنا عينيها.

بشرتها شاحبة، حتى خلتُ إن مصاص الدماء كان يمارس عمله بدأبٍ قبل دخولنا بثوان.

وبرغم أنه لا توجد سابق معرفة بيننا، لكنى وجدتها ترمى نفسها في حضني، تحت وطأة نظرات أمجد المندهشة.

تجاهلته، وجلسنا على طرف السرير، أما أمجد فقد راح يتجول في الحجرة الواسعة جدًا بشكل يدير العقل، بينما أذناه معنا. يا للرجال وفضولهم!

الأحمق يتصرف كشارلوك هولمز!

كفكفتُ دمعها بمنديل ورقي، كان هو الأخير في علبته:

"ما الأمر يا حبيبتي؟".

نهنهتْ قليلا، وتزايدت دموعها بشكل مرعب؛ مما أسقط في يدي، وهنا أشرتُ إلى أمجد إشارة خفية إن كان معه علبة مناديل، لكنه لم يفهم. اقترب مني وهو يتساءل:

"ماذا؟".

أشرتُ لعلبة المناديل الفارغة؛ فابتسم في فهمٍ، وهو يمسكها ويكرمشها ثم يلقيها في علبة قمامة قريبة من الباب.

احمرّ وجهي من الغيظ. أحمق فعلا. أشرتُ لدموع الفتاة؛ وهنا بدا عليه أنه قد فهم تلك المرة.

ترى: لو قتلته؛ هل تعتبر هذه جريمة؟

أخرج علبة مناديله، وحاول أن يخرج منها واحدًا، لكني انقضضت عليه بشراسة، وأمسكتُ العلبة كلها ونزعتها من يدها. استغرب ردة فعلي، لكني حاولت بقدر الإمكان تجاهله.

مسحتُ دموعها مرة أخرى بالمنديل الجديد، ويبدو أنها مهمتي كانت في ذلك اليوم!

"ما الذي تخفينه عنى في موضوع حامد هذا؟".

سألتها برفق، وأنا أربت على كتفها. مسحت دموعها بيدها، وهي تتنهد:

"أنا المسئولة عما حدث. أنا من شجعته أن يختطفني!".

***

الفصل الثامن

"معذرة، لم أسمع جيدًا".

قلتها، وأنا أبعد يدي عن كتفها. قبل أن تدور الظنون في ذهني، راحت توضح، بينما أمجد يجلس على مقعدٍ قريبٍ، وهو يستمع لما هو آتٍ، وآهٍ مما هو قادم!

"ماذا تعنين بأنكِ من شجعته على اختطافك؟".

سألها أمجد، وهو يقترب أكثر، لكن إشارة عصبية من إصبعي جعلته يتراجع للخلف مجددًا.

"ما لم أخبركم به أنى قد انجذبتُ إليه في البداية. كنتُ قد انضممت لتلك الفرقة المسرحية منذ أسبوع، وكنت حائرة في عالم لا أعرف عنه شيئًا. أبي يسخر من هواياتي، ويطالبني أن أتعامل كفتاة مرفهة اعتادت على تحقيق أمنياتها بإشارة من إصبعها، وقد كنتُ أفعل هذا من قبل، قبل أن..".

" قبل ماذا؟".

قالت بعناد كطفلة صغيرة:

"لا أريد أن أتطرق لهذه النقطة التى جعلتنى أتغير. المهم أني في عالم المسرح، والتحضير للروايات، وبين علاقات الممثلين ببعضهم البعض بدأتُ أكتشف ذاتًا جديدة لي".

وأخذتْ نفسًا عميقًا من الهواء، كأنها تطوى الصفحة، وتبدأ مرحلة جديدة من قصتها:

"وهنا ظهرت شخصية حامد. كان أشبه بفارس خيالي قادم على حصانه، على الرغم أني كنتُ أراه من قبل فى شركة والدي، لكن دون احتكاك حقيقي".

أعرف جيدًا ما تتحدث عنه. ذلك فارس الأحلام الذي يأتي على حصانه المجنح ويختطف حبيبته من عالم بائس وموحش. لكن فارس اسمه حامد؟

ابتسمتُ عند تلك النقطة التى مرت بخاطري. من حسن الحظّ أن الفتاة لم تنتبه، وإلا اتهمتنى بقلة الذوق.

لكن أمجد كان يضعني تحت راداره. نظرة مستنكرة في عينيه، تجاهلتها، وأنا أولى اهتمامي للفتاة، التي كانت تواصل:

"كان حنونًا متفهمًا، ولم يكن يأبه بمظاهر الثراء حولي. كان يحبني لذاتي".

قلتُ لها برفق:

"وكنتِ تحبينه؟".

"لا أنكر أنى أحببتُ حبه لي. أظن أنه لا توجد فتاة يمكن أن تقاوم هذا الفيض من الحب دون أن تتأثر به. لكن أتت اللحظة التي أحسستُ فيها بالقلق من معاملته لي. إنه يريد منى كلمة" أحبك" أن أقولها. وكنت أعرف أني لو قلتها فسوف ألتزم بها. تحت وطأة حصاره، ورغبته في أن أقولها كان علىّ اتخاذ قرار".

قال أمجد:

"وكان هذا القرار هو الابتعاد عنه؟".

قالت بعينين تفيضان منهما الدموع:

"كان قلبي يتألم وأنا أخبره بذلك".

قلتُ:

"لكن يبدو أنه لم يتقبل ذلك".

نكست رأسها، في صمتٍ بليغ.

نظرتُ إلى أمجد:

"لابد أن نقابله".

قالت مروة بحيرة:

"لكن أين يمكن أن يكون؟".

***

"أين نحن بالضبط؟".

سألته وأنا أعرف الإجابة طبعًا، لكن هذا كان على سبيل الاستنكار.

كنا في مطعم مزدحم بالحسين. رفع أمجد يده كي يطمئنني:

"إنه مطعم شعبي شهير".

قلتُ ساخرة:

"هل تعرف مصدر اللحوم يا بني؟ ألا تقرأ الكوارث التي نُبتلى بها كل يوم من أصحاب الذمم الخربة؟".

قال بذات الثقة المزعجة:

"لا داعي للقلق. إنه موثوق فيه".

ضربتُ كفًّا بكف. من أين يأتي هذا المخلوق بكل هذه الثقة في موضوع كهذا؟

ضربتُ ببصرى في ركن المطعم، وهناك لمحتُ بوضوح ذبيحة معلقة، ويتم أخذِ اللحم منها مباشرة. طريقة عبقرية في زرع الثقة في العملاء. هذا يفسر الزحام الشديد إذن، والاستمتاع الذي يبدو لي على وجوه الجائعين.

ولماذا أذهب بعيدًا؟

لديَّ أمجد كنموذج للمفجوع الأبدي الذي لا يشبع، وإلا من أين أتى كرشه هذا؟

أتى الطعام، وارتفع صوت زرده وبلعه المزعجين؛ مما جعلني أتقزز منه. الأحمق كان لا يكترث البتة بوجود فتاة رقيقة مثلى تجلس قبالته.

كدتُ أقول جملة ما ساخرة تقرِّعه، لكنى توقفتُ فجأة أمام ذلك الشخص. كان وجهه في العتمة، يقف أمام المطعم بتأنٍ، وهو يستند للجدار بأريحية، وقد ظهر لي سلويته من حيث أجلس. بشكلٍ ما، كنتُ أعرف أنه يحدِّق في أنا بالذات.

"أكمل طعامك، وسأخرج لأتنفس بعض الهواء".

ظهرت عليه البلاهة، وهو يحدق فيَّ بعدم فهم، وقد نبتت كرتان على جانبي فمه.

غادرتُ المطعم بخطوات متأنية، كأني لم أر شيئًا. لكنى انحرفتُ بحركة سريعة ناحيته؛ لأجد أن البقعة التي كان يقف فيها خالية!

تجمدتُ حائرة. هل كنتُ أتخيل؟ عدت للمطعم، وأنا أفكر، ممسكةً بخصلة من شعري خرجت نافرة من تحت الطرحة، ورحتُ أعبثُ بها بشرود.

"أنا...غغغ...بب.. مك....".

قالها أمجد بتركيز شديد أثناء المعركة الخطيرة التي يخوضها مع الطعام، لكنها خرجت منه بالشكل السابق، مدغمة، غير مفهومة، أشبه بتعويذة ما.

"ماذا تقول؟".

"أعرف مكان حامد".

انتبهتُ لقوله.

"أين هو؟".

"في المسرح طبعًا".

لم أفهم مقصده. قال مفسرًا:

"يبدو أن المسرح يحمل قيمة عاطفية له. وهو يتوقع أن منزله مراقب. أعتقد أنه يقيم بالمسرح. ربما في حجرة ما منعزلة. هذا المكان هو بيته الحقيقي".

كلامه معقول. أمجد يُخرج أفكارًا ذكية أحيانًا. نهضتُ:

"فلنذهب".

قال معترضًا:

"ألا نكمل طعامنا؟".

"لا تستخدم نون المشاركة هذه أيها الخرتيت. أنت من تأكل كأنها وجبتك الأخيرة".

نهض متبرمًا. سيارته القديمة-التي بدأتُ أحبها-تنتظرنا بالخارج. كانت ليلة شتوية كما تعلمين يا مفكرتي. والريح الباردة ترتطم بوجهينا. وتلك الرائحة.

يبدو أن الرائحة هي المثير/ المهيّج الأعظم للذكريات. من مكانٍ ما سحريّ، انبعثت رائحة الحب، المحملة بلقاح الورود، القادمة-ربما-من الجنة ذاتها!

يبدو أن الحبّ، في صورته المركزة المتوهجة يغدو صورة من الجنة يا مفكرتي الحبيبة. لكل قصة حبّ رائحتها الخاصة بها. ورائحتي أنا متعلقة بنادر. لأكن دقيقة: ليس نادر بالتحديد، بل هي حالة شديدة الخصوصية والعمومية في ذات الوقت.

إنها حالة كل إنسان يقدر على الحب!

"كأن هذا ما ينقصني!".

هتف بها أمجد؛ فأخرجني من عالمي. نظرتُ لوجهه المحتقن؛ وإلى حيث ينظر، كان إطار السيارة مُفرغًا من الهواء. قلتُ بهدوء:

"إنها لمعجزة بقاء هذه السيارة سليمة حتى الآن!".

قال بغيظ:

"لا تنسى فضلها في مساعدتنا في البحث عن عريسكِ الممل".

في هذه النقطة هو محق. لابد أن أكون مهتمة قليلًا. لكنه لم يقبل بأن أمدُّ يدي في شيء. ثم إن الأمر-كما قال لي-بسيط. سيغير عجلة السيارة بأخرى سليمة موجودة بحقيبتها، وانتهى الأمر.

كانت هذه العملية ستستغرق عشر دقائق، ربع ساعة على الأكثر، وربما ثلث ساعة بكرشه هذا، ولهاثه المتواصل، حتى خلت أنه سيسقط بالسكتة القلبية في أية لحظة.

هنا ارتكبتُ الخطأ الذي علمتنا السينما الأمريكية ألا نفعله. وهو أن نشرد، ونترك سيقاننا تذهب بنا حيث تريد. وقد ذهبت ساقاي إلى ذلك الشارع المعتم نوعا.

كانت منطقة بيوت قديمة، ذات طابق واحد، أشبه بالأطلال، وقد مستها روح الفناء. منطقة كهذه في أي بلد آخر ستتحول لمنطقة قيِّمة لا يجوز المساس بها، وستغدو معلمًا سياحيًا بارزًا.

كانت الرائحة هناك أقوى. رائحة الذكريات التي تهاجم الأنف كجحافل من الفراشات الملونة، ذات الزهور المرسومة على أجنحتها. حالة غريبة يصعب وصفها يا مفكرتي العزيزة.

حالة جعلتني أشعر بالشجن، والوحدة البالغة، حتى أنى رحت أبكي، وقد صعبتْ عليّ نفسي بشكل لا يُوصف. لا أعرف ما الذي دهاني. ما الذي حدث لي!

كان الشعور الذي يخترق عظامي، أنى وحيدة، سأموت وحيدة، وقد شاب شعري، وخلا المنزل، ورحل كل أحبتي، وبقيتُ بمفردي، أستدعي الماضي، وأعيش بين أطلاله.

نعم، ربما هذا هو تفسير الحالة الغريبة التي مرت بي. كان من الممكن أن تستمر هذه الحالة حتى يأتي أمجد، ويمطرنى بأسئلته، ولم أكن أحب أن أظهر أمامه ضعيفة هشة هكذا. لكن الخطوات جعلتني أنتشل نفسي منها على الرغم منى.

كان هناك أحدٌ ما يتبعني!

شعرتُ بالرعب. صرختُ بصوت مرتجف على الرغم منى:

"أمجد! أهو أنت؟".

لم يجبنى سوى الصمت، ولم يكن هذا مطمئنًا لقلبي الخائف. لو كان أمجد يعبث معي؛ فسأقتله! لكنى أعتقد أنه ليس هو. أمجد محدود الخيال، وليست لديه نزعة شريرة في الإيذاء.

"من هناك؟".

قلتها كما كان يفعل خفير الدرك قديمًا بصوته الغليظ المهيب، لكن صوتي أتى على النقيض مرتعشًا مبحوحًا. هنا برز ذلك الظلّ من ركنٍ قريبٍ. مزعج جدًا أن وجهه لا يظهر لي.

أُخمن أنه يقصد ذلك. ذلك الاستمتاع بسحر التخفي، والذي سيزول مع أول دفقة نور تقع على وجهه. لكنى كنتُ خائفة. يتتبعني هو إذن، من المطعم إلى هنا. هل يكون هو صاحب الخطوات الغامضة التي تتبعني دومًا منذ فترة؟

"من أنت؟ أظهر نفسك؟".

أرجو أن يكون نادر. سأتقبل أن يخونني عقلي، وأن أُصاب بالجنون، أكثر من أن يكون ما أواجهه حقيقة.

هنا تراجعتُ للخلف بخطوات، حرصتُ أن تكون غير مسموعة، لكن في طريق كهذا ملآن بالحصى، كانت هذه مهمة مستحيلة. ارتفع الصوت، المدويّ في سكون الليل: ***كراااش***!

اعتدل صاحب الوجه الغامض، وقد أدرك أن زمن الألاعيب قد ولى. هنا أطلقت ساقيَّ للرياح. لا أعرف كم ركضتُ، لكنى خلتُ أنى أفعل ذلك من زمن بعيد، ربما منذ الأزل ذاته!

هنا وجدتني أندفع داخل جسد لين، دافئ منفعل، له عينان مندهشتان، وصوت مألوف:

"رويدك يا سامية! مما تركضين؟".

قلتُ بحرج وأنا أدفع نفسي للخلف عن صدر أمجد:

"تقصد ممن؟".

ضاقت عيناه وهو يتلفت حوله، كأنه محقق عتيد، لكن بشكل ما كان هذا أشبه بعلامة ذعر لفتى غرّ وجد نفسه في مصيدة عنكبوت، لكنه يتظاهر بالشجاعة!

انفجرتُ ضاحكة!

صدق المثل القائل: شرُّ البلية ما يضحك!

ويبدو أن أمجد كان كذلك. دوتْ ضحكتي في الشارع شبه الخالي، ومعها تساقطتْ أطلال الخوف.

قلتُ هاربة من الأفكار التي تهجم على عقلي كالسيل:

"فلنذهب إلى المسرح".

***

...وكان مبنى المسرح ينتظرنا. مبنى قديم في وسط البلد، مكون من طابقين، خاوٍ على عروشه. كان الباب غير مغلق، لا يوجد حارس بالجوار، وثمة رائحة كريهة تسري؛ جعلتني أضع منديلي على أنفي. قلتُ متساءلة:

"رائحة عضوية؟".

قال أمجد، وهو يحاول اختراق ظلمة الممر بعينيه:

"لا".

"كن على حذر في خطواتك".

لمحتُ ابتسامته اللزجة بصعوبة:

"هل تخشين عليّ؟".

"لا أريد أن يقتلني ضميري فحسب".

"ضميركِ نشط كقنبلة نووية إذن!".

تنهدتُ، وأنا أُخفى رعدة سرت بجسدي بالكاد:

"ليستْ لديك فكرة".

توقف فجأة. سألته بحذر:

"ماذا؟".

"هل ارتجفتِ لتوك؟".

حدقت في وجهه بدهشة. كيف لاحظ هذا وسط الظلام النسبي؟

"لابد أنه البرد".

هز رأسه:

"ربما".

ثم توقف مرة أخرى. قلت بضيق:

"ماذا حدث ثانية؟".

"هل تسمعين هذا الأنين؟".

قلت بتحفز:

"من أين يأتي؟".

أشار إلى جهة اليسار:

"من هنا".

قلت وأنا خلفه:

"ربما أنت تتوهم".

لكنه لم يكن يتوهم؛ فها هو ذا الأنين يتضح. أنين مبحوح يأخذ راحته، ويبدو أن صاحبه يعاني الكثير من الآلام.

أسرعنا الخطي، وأنا أتمنى ألا نهوى في هاوية ماٍ فجأة، وتُدّق رقبتانا.

دفع أمجد باب الحجرة التي يأتي من خلفها الأنين، وهناك كان جسدٌ ما، يستند إلى الجدار، الدماء تلطخ وجهه، وكان هناك سيخ معدني يخترق كتفه.

كان هو حامد!

***

كان هناك سين وجيم، بطبيعة الحال، وأنا أحكى ما حدث للشرطة.

ثم ذهبت للمستشفى للاطمئنان على حامد؛ فقد كان عريسًا محتملًا لي في يوم من الأيام، بغضِّ النظر عما آل إليه حاله.

جلستُ في الممر، وبجواري أمجد، وعيناه تتثاقلان. أشفقتُ عليه. لقد حمَّلته الكثير، وكنتُ عبئًا فوق كتفيه، ولم يشكُ المسكين. لما يفعل هذا؟

هل لأنه رجل لا يتوانى عن مساعدة من تحتاج مساعدته مثلي، أم أن الأمر متعلق بأنه يحبني؟

كنت حائرة. كيف يحب من لا يعرفها؟ نعم، هو لا يعرفنى. صحيح أننا خرجنا عدة مرات، وتكلم هو كثيرًا، حتى كدتُ أتمنى لو أطلقت على فمه الرصاص، لكنه-مع ذلك-لا يعرفني.

إنه حب ناقص الأهلية، صورة متخيلة في ذهن العاشق، ربما لشخصٍ غير موجود أصلًا.

"ينطبق الأمر علىَّ أيضًا".

أتاني الصوت الذي خلتُ أنه لن يأتي مرة أخرى. نادر، يقف بكل شياكته وأناقته، وقد برز من الفراغ، مرتديًا حلته السوداء، وبدا شعره مُصففًا، وبشرته لامعة. أعترف أنى كنتُ مسرورة لرؤيته، حتى لو كان هذا معناه أنى على مشارف الجنون!

"أين كنت؟".

"في مكانٍ ما مظلم من عقلكِ".

"كفّ عن سفسطتك هذه".

ضحك:

"أنتِ تعرفين أنى لستُ حقيقة. هذا الحوار يدور في ذهنك. ولو مرَّ أحدهم الآن، سيراكِ صامتة تحدقين في الفراغ. لقد تعلمتِ كيف تجرين حوارا ما فى عقلك بدون أن يُلاحظ أحد".

"لم يحدث هذا في المطعم، أو عندما رأيتك فى حجرتي، ورأني والداي أكلمك. لقد أحرجتني".

قال بتعاطف:

"أعتذر عن هذا. لكنكِ صرتِ خبيرة الآن. لن يتهمكِ أحدٌ بالجنون".

ضحكتُ من قلبي. طبعًا، لن يسمع أحد هذه الضحكة؛ فيلمزني من طرفٍ خفيّ. جلس بجواري.

تساءلتُ: ماذا لو مددتُ يدي إليه الآن؟ ستعبر جسده كما أرى في أفلام الأشباح. حقًا، لا يوجد عدوّ أشد على المرء من العقل، وخصوصًا عندما يتنكر في هيئة حبيب قديم!

"ماذا ستفعلين مع حامد؟".

سألني نادر. تنهدتُ وأنا أملأ عينيّ من وسامته:

"يدعي أن تامر خطيب مروة شخص شرير".

قال بدهشة:

"حقًا؟".

إنه يجاريني. عظيم. كأن هذا ما ينقصني. قلتُ وأنا أستمتع بالحوار معه فعلًا:

"قبل وصول الشرطة والإسعاف أخبرنا أنه حذر مروة من أن تامر يريد بها شرًا. إنه يريد السيطرة على أبيها وأمواله. يقول أنه تتبعه كثيرًا حتى عرف حقيقته. إنه يخشى عليها منه".

هزَّ رأسه:

"يا لها من قصة!".

وأشار إلى أمجد الذي مال برأسه للخلف، وحدّق إلى السقف بعينين مغلقتين، بينما يشخر بصوت خافت من حسن الحظ، وقال ساخرًا:

"وما رأى شارلوك هولمز هذا؟".

ابتسمتُ:

"إنه يصدقه".

"والسبب؟".

"يقول بأنه ليس وجه كذَاب".

"برغم الرصاصة التي اخترقتْ كتفه؟".

أومأتُ برأسي. وكأنما تكلمنا عنه قد أيقظه؛ فقد زام أمجد كما تفعل القطط. ثم نظر إليّ بعينين محمرتين، جعلتني أشفق عليه، وهو يقول:

"لقد سقطتُ في النوم دون أن أدرى".

"اذهب إلى بيتك يا أمجد. لقد فعلتَ الكثير من أجلى".

تثاءب:

"وأنتِ؟"

"ستوصلني للمنزل بالطبع".

أومأ برأسه. كان نادر قد تلاشى طبعًا من مخيلتي، ولم نتبادل كلامًا كثيرًا في السيارة، ثم غادرتُ السيارة، ورمقتُ أمجد وهو يغيب في الظلام.

أما والداي فقد التزما الصمت، ولم يوبخاني على التأخر عندما رأياني أغادر سيارة أمجد، وكأنهما يريان شيئًا ما يُولد.

أغلب الظن أنهما يظنان أننا سنعود أنا وأمجد. لهما الحق في تصرفهما هذا. الحقيقة أنا أشعر بالذنب قليلًا. أحس أنى أستغل أمجد في مشاريعي الخاصة.

***

مفكرتي العزيزة....

ما أن رأتني أم أمجد حتى ابتسمتْ. تحيرني هذه المرأة. يبدو أنها لا تمتلك موقفًا ثابتًا نحوي؛ فلا هي تتقبلني في المطلق أو ترفضني في المطلق. على حسب الريح تميل معاملتها.

"أمجد في حجرته".

قالتها، وهي تشير للسلم. لقد صرتُ واحدة من العائلة فيما يبدو، وبدا حضوري أحد ثوابت الكون المعتادة.

حتى أبوه ابتسم بدبلوماسية، وهو يرفع كأس العصير الأبدي، الذي يبدو أن هذا ما يفعله في حياته، بينما ما يفعله أمجد هو المكوث في حجرته دومًا. هل هو يعبر من خلال الدولاب لعوالم أخرى غريبة؟

لن أستغرب هذا على ذلك الفيل الصغير!

ما أن رآني حتى برزت كرتا خديه دهشة، لكنى أدركتُ أنه يأكل. تأملتُ أكوام الكعك المحلى، وقلتُ بتبرم:

"أنت تسير إلى القبر بخطوات سريعة يا بني".

"سأذهب وأنا سعيد إذن".

ضحكتُ، وأنا أجلس، وأضع الحقيبة أرضًا، ثم أمدُّ يدي لواحدة، وأنا أتحاشي النظر لوجهه. لا أريد رؤية تعبير" عضّ يدي، ولا تعض رغيفي" عليه.

"إمم. لذيذ!".

وجدته يعطيني كأسًا من العصير لإبلّع به. الابن سر أبيه إذن. أخذته منه، وأنا أومئ برأسي شاكرة.

قال وهو يبعد الصينية جانبًا، يبدو أن يحميني من شرّ نفسي. مضطرة أن أقنع نفسي بهاذ التصرف النبيل حتى آخذ غرضي منه!

"ما الذي أتى بكِ؟".

قلت متظاهرة بالدهشة:

"أتقول هذا وأنتم بيت الكرم؟!".

"سامية!".

قالها بضيق.

"أحتاجك".

"بالطبع أنتِ كذلك".

تظاهرت بالغضب. يبدو أنى لستُ مقنعة في هذا اليوم:

"هل تقول أنى آتي من أجل مصلحتي؟".

"أي أحمق يستطيع معرفة ذلك".

"وماذا أفعل؟ لا يوجد أمامي سواك".

"أرجو أن يتغير هذا قريبًا. المرة السابقة أخذت رصاصة في كتفي. في المرة القادمة سيُدَّق عنقي".

مازحته بقولي:

"لا توجد جبال هنا".

قرب رأسه منى بحركة مباغتة، حتى ظننتُ لوهلة أنه يريد تقبيلي؛ مما جعلني أجفل للخلف. بدا على وجهه الضيق، كمن أُهين. ماذا كان يتوقع؟

"ماذا تريدين يا سامية؟".

أخذتُ نفسًا من الهواء البارد، المليء بمعطر جوّ ما، لكنه يريح نفسيتي بشدة. لابد أن أسأل أمه عن نوعه، حتى أشترى مثله في منزلنا.

. في تلك اللحظة الغريبة، تخيلتُ سامية أخرى تنفصل عنى. تقف بجواري، وهي ترمقني بلوم:

"ماذا تفعلين؟".

أجيبها (في عقلي طبعًا)، وقد تجمد الزمن ذاته، وصار أمجد وأنا ومحتويات الحجرة مجرد صورة ذات بعدين، ساكنة، بينما هذا كله يدور في جزء من الثانية لو جاز التعبير.

أجبتُ بارتباك:

"أخبره بأن يُكمل بحثه معى عن ذلك الوغد الذي...".

قاطعتني بعصبية تلك المرة:

"ماذا تفعلين؟".

"ماذا تقصدين؟".

"أنتِ تورطينه في قصتكِ بدون داع".

"هو من يريد ذلك".

"حقا؟ أنتِ تستغلين مشاعره نحوك، وبرغم معرفتكِ الأكيدة بذلك؛ فأنتِ تجرينه معك دون معنى. هل نسيتِ الرصاصة التي اخترقت كتفه؟".

"إنه بخير".

"ليس بخير. انظري حولك وستجدين أنه ما زال يتعالج. هل تنتظرين أن تخترق رصاصة أخرى رأسه؟ لقد نجا، وكُتب له عمر جديد؛ فلما تورطينه في مستنقع حياتكِ الآسن".

ارتبكتُ. كان الأمر أشبه بحقيقة قوية ساطعة، أشرقت فجأة في عتمة ركضي المتواصل في البحث عن المتصل المجهول. وأكملتْ (أنا) الأخرى:

"لو جرى له سوء من تحت رأسكِ؛ فلن تسامحي نفسك حتى الممات. عذاب الضمير وحده كفيل بقتلكِ يا حمقاء!".

عاد الزمن مرة أخرى، وما زال أمجد يترقب ما سيخرج. وقلتُ وأنا أنهض:

"معذرة، سأنصرف".

قال بدهشة:

"ماذا؟ لكنكِ كنتِ...".

قاطعته::

"لقد تذكرتُ أمرًا هامًا، وسوف أتأخر عليه".

طبعًا واضح أنى أكذب، وواضح أكثر أنه يعرف ذلك، ومع ذلك فلم يفعل شيئًا.

بدا الارتباك على وجهه، وهو ما ساعدني على الانصراف بخطوات سريعة، حتى أن أمه قابلتني على السلم وهي تحمل صينية المشروبات؛ فأومأتُ لها برأسي معتذرة، وأنا أتفوه بكذبة أخرى بدت غير مقنعة، لكنها لم تعترض، وحين صرت في الشارع تنهدتُ بارتياح.

وأثناء وقوف سيارة أوبر أمامي أمكنني رؤية أمجد وهو ينظر من النافذة. رمقته بحزن.

وداعًا يا أمجد!

***

لم أرجع للمنزل على الفور.

سرتُ قليلًا على كورنيش النيل. على الأقل هذه كانت نيتي؛ فقد كان البرد شديدًا، والهواء يكاد يقتلع البشر من أماكنهم، ويلقيهم في الفضاء، لكنى كنتُ مستمتعة، وأنا أُحكم وشاحي حول عنقي.

أتلفت حولي، لعل طيف نادر ينبعث من الظلمة؛ فيُشعل قليلًا من الدفء بوجوده، لكنه لم يظهر، حيث كان يجب عليه أن يظهر.

دام تسكعي عدة ساعات، ثم وجدتُ أن الشوارع قد بدأت تخلو من المارة؛ فوجدتُ أن الوقت قد حان للرحيل.

طلبت سيارة أوبر، وغرقتُ في أفكاري العائمة المضطربة، قبل أن يوقظني صوت السائق:

"لقد وصلنا يا آنسة".

هبطتُ من السيارة، بعد أن نقدته أجره، وأخذتُ نفسًا عميقًا. قد تأخرت كثيرًا، وأتوقع حدوث زوبعة من العتاب من والديّ اللذان يأكلهما القلق لأتفه الأسباب.

فور اقترابي من باب المنزل، وبجوار شجرة الزينة لمحتُ شخصًا يجلس، متلفعًا بالعتمة. قلت بضيق:

"أمجد! أهو أنت؟ ألم تفهم يا بني. أنا أحميك من حماقاتي. انصرف إلى بيتك".

غادر الشخص العتمة، وهنا فوجئتُ أنه لم يكن أمجد.

كان شابًا طويلًا، ذو وسامة خشنة مع ندبة فى جبينه، ووجهه شاحب لدرجة غريبة، حتى شككتُ أنه قد غادر قبره لتوه!

فتحتُ حقيبتي بتوتر، وأنا أبحث بهلع عن بخَّاخ الفلفل.

لماذا تختبئ الأشياء عندما نبحث عنها بضراوة؟

ثم تذكرت أنى قد نسيته في المنزل قبل خروجي. عضضتُ شفتيّ بغيظ. قلتُ متوعدة:

"اسمع يا هذا لو...".

قاطعني بصوت مألوف خافت مليء بالشجن:

"سامية، إنه أنا".

فور أن تكلّم عرفت الصوت على الفور؛ فأنا أسمعه ليل نهار. قلتُ برهبة، وقلبي ينخلع من مكانه ويركض طربًا:

"نادر! أهو أنت؟!"

تجمدتُ في مكاني، وهنا اقترب منى، ولمس بيده الدافئة يدي الباردة، وقال بشوق بدا في صوته وعينيه بوضوح:

"إنه أنا يا حبيبتي. أخيرًا قد التقينًا!".

***

الفصل التاسع

مفكرتي العزيزة...

في الماضي، كنت أضع عشرات السيناريوهات لمقابلتي المستقبلية المتخيلة مع نادر، هذا لو ظهر طبعًا، لكن عندما فعلها أخيرًا، وظهر أمامي بشحمه ولحمه، طارت كل التصورات من ذهني، وصار عقلي صفحة بيضاء من غير سوء.

"سامية! مالكِ؟"

هل هذا سؤال أيها الأحمق؟! ألا ترى الموقف غير المتوقع الذي أنا فيه؟ كان هذا السؤال يدور في ذهني، بينما جسدي قد ارتفعت حرارته.

"لا أصدق ما أرى!".

لابد أنى قلت هذه الجملة، لكنها لم تغادر ذهني. كما هو متوقع كان قلبي يخفق بقوة، حتى شككتُ بأنه سيتوقف في أية لحظة. أعترف أنى لم أكن أتوقع أن يكون لقائنا هكذا. قبل أن أفهِ بكلمة أطلَّ أبى من النافذة، وأعادني للواقع بصوته، وهو يقول:

"سامية، لقد تأخرتِ يا بنيتي".

ألقيتُ نظرة سريعة على أبى، ثم عدت بسرعة إلى نادر، خشية أن يتلاشى كالدخان. لكنه كان هناك، واقفًا بطوله الفارع، وهو يبتسم دون أن يبدو عليه الخوف لظهور أبى. مصيبة لو كان هذا الآخر خيالًا. هل هو كذلك؟ لكن أبى حسم تشككي.

"من هذا الرجل يا سامية؟ هل هو أمجد؟".

أخذتُ نفسًا عميقًا. إنه حقيقي إذن. لكن هذا جلب لي مشكلة أخرى.

سألني نادر وغمامة كئيبة تلوح على ملامحه:

"من أمجد هذا؟"

"إنه.. إنه....".

قال بجزع:

"سامية هل تزوجتِ؟ غريبة، كنتُ أعتقد...".

قاطعته، وأنا مسرورة بردة فعله:

"كلا، لستُ متزوجة. إنه خطيبي السابق".

قلتها بحرج، كأن أمجد سُبَّة لا بدَّ أن أتبرأ منها.

وضع وريقة مطوية في يدي، وقال:

"قابليني في هذا العنوان غدًا يا سامية في الساعة العاشرة صباحًا. لدينا حديث طويل، وهذا المكان آمن، ولن يستمع إلينا فيه أحد".

قلتُ بتوتر، وأنا أملأ عينيّ من وجهه:

"هل أنت هاربٌ من شيء ما؟".

"غدًا ستعرفين. تعالى في الميعاد المحدد".

ثم انسلَّ كطيف، وركب سيارته الصغيرة التي كانت تنتظره في العتمة على بعد أمتار. لوهلة ظننتُ أنه مجرد خيال، وهمٌ، مجرد ألاعيب عقلية. لكن هذا الوهم راح يتضخم ويتوغل ويتوحش حتى صار شجرة عملاقة في ذهني، وفكرة أنه لم يكن موجودًا أرعبني في الحقيقة؛ لأن معنى هذا أنى على حافة الجنون، أنا لا ينقصني ذلك. يكفي ما أنا فيه.

لكن أبي أراح قلبي؛ فقد نسيتُ وجوده عندما أطلَّ من النافذة، حتى ظهر وهو يفتح باب العمارة، وقال بدهشة:

" من هذا الشاب الذي كان يكلمك يا سامية؟".

نظرتُ إليه بأمل.

"أبي، هل سمعته؟".

"لم أفهم! ذلك الشاب تقصدين؟ نعم، لقد كان يتحدث، لكنى لم أفهم كلمة مما قال. من هو؟"

انتعش قلبي. قلت وأنا أقفز في الهواء، كطفلة صغيرة، متجهة للداخل:

"مجرد صديق قديم يا أبي".

قال متبرمًا:

"صديق قديم؟".

كنتُ أعرف انه يشعر بالضيق من فكرة صديق هذه، لكنه أيضًا يعرفني جيدًا.

سألني وهو يغلق الباب خلفنا، بينما أرتقى أنا درجات السلم:

"ما أخبار أمجد؟".

"من فضلك يا أبي، أنا سعيدة؛ فلا تعكّر سعادتي بذكر وحيد القرن هذا".

لوح يده بمعنى أنه قد يأس منى. بينما أسرعتُ أنا إلى حجرتي، وقلبي لا يكفُّ عن الخفقان. لو متُّ الآن؛ فأنا سعيدة!

***

حين أتى صباح اليوم التالي كنتُ سعيدة. قمت بالاستماع إلى قصيدة" أغدًا ألقاك؟" لأم كلثوم، بغضِّ النظر أني كنت سأقابله في ذلك اليوم، وتذكرت باسمة أنى مررتُ بهذا الموقف من قبل!

بحثتُ في خزانة ملابسي عن طاقم جديد لم أرتده من قبل. من حسن حظي أنه كان عندي واحدًا بالفعل. لابد أن تكون تصفيفة شعري مختلفة. عطر مختلف.

كان بودي أن أُكمل الصورة وأرتدي نظارة مختلفة، لكنى سأترك لهذا لنادر؛ فيمكنني أري العالم من خلال عينيه!

كنت سعيدة، سعيدة، وأنا أقفز في الهواء وأرقص، مصدرة صوتًا منغمًا من فمي، أشبه بالهمهمة، أو بأغنية تُولد بأعماقي، لا أعرف حقًا ماذا دهاني! غادرتُ حجرتي، وكان أبي هناك يقرأ الجريدة كعادته الأبدية.

فشلتُ في إقناعه إن كل الجرائد تظهر نسختها الرقمية على الإنترنت؛ لكنه تظاهر بأنه لم يسمعني أصلًا. قبلته في وجنته

"ألن تفطري؟".

سألتني، وهي تضع طبق الفول وأرغفة العيش الساخنة.

بينما أبي يقول، وهو ينظر إلى كصقر عجوز تعوّد على جنون ابنته:

"إلى أين العزم؟".

لم أكن أتعود على الكذب على أبي، ولن أفعلها الآن. كفاني أبي مؤنة الردّ؛ فقال لي:

"هل هو ذلك الصديق القديم؟".

أومأتُ برأسي مبتسمة. قالت أمي بدهشة:

" هل احمرَّ خداكِ خجلًا؟".

لوحت بيدي وأنا أتوجه للباب:

"ربما هو الحرَّ".

"نحن في الشتاء يا حمقاء".

ضحكتُ بخجل. أغلقتُ الباب خلفي. من حسن الحظ أنهما لم يسمعا دقات قلبي العالية. كنت أهبط على درجات السلم بسرعة تناسب طفلة بفيونكات وضفيرتين. قبل أن أغادر باب العمارة؛ وصلتني رسالة على الواتساب:

"أين أنتِ يا سامية؟ هل أنتِ بخير؟".

كانت الرسالة من أمجد. فكرتُ في حظره، لكنى تراجعتُ وأنا أشعر بالخزي. أيكون هذا جزائه على وقوفه بجواري في كل ما واجهناه؟

"أنا بخير يا بني".

هكذا كان ردّى. جملة مقتضبة باردة، لكنها في نفس الوقت ربما تسكته قليلا. لكن بعد مرور نصف ساعة-حيث كنت أركب سيارة أوبر- جاءتني رسالة أخرى منه:

"ألن نتقابل؟".

"لا".

"لم؟".

"أمجد، أنا ذاهبة الآن إلى مشوار مهم، ولا أريد أن يشتتني شيء".

أعرف أنها جملة قاسية. لكن هذا أفضل من التعلق بحبال ذائبة.

سكت؛ فخلته سيسكت دهرًا. لكنى كنتُ مخطئة.

"أي مشوارٍ هذا؟".

نفختُ بضيق. قمت بجعل إشعارات الواتساب صامتة، وأنا أسترخى، متخيلة كيف سيكون اللقاء المرتقب المؤجل منذ فترة طويلة.

***

كان اللقاء في فيلته. أدهشني هذا. كانت الفيلا تبعد ساعة إلا ربع عن منزلي. هل كان هو على بعدِ هذه المسافة فقط طوال هذه المدة دون أن أدرك؟ إنه شعور مرعب مخيف، أن تبحث عن شخص طوال هذه الفترة وهو بالقرب منك.

ماذا لو كان هذا الشخص في نفس الحيّ الصغير، أو في نفس الشارع، أو حتى في نفس العمارة؟ ماذا لو كنت تراه كل يوم دون أن تُزيح الغلالة السميكة التي تكشف لك عن جوهره، عن كونه" هو" من سيلتئم به نصفك المفقود، وتسعد به روحك التائهة؟

أسئلة مرعبة، لكن إجاباتها أكثر رعبًا فيما أعتقد. لذا فليوضع الغطاء عليها، ولتمتزج الأسئلة بالأجوبة، ولتخلق مزيجها المميز من التفاصيل المعقدة المتشابكة.

نقدتُ السائق أجره، ثم هبطت من السيارة، وركبتاى تتخبطان في بعضهما البعض. كان نادر يقطن في فيلا صغيرة، تحبط بها حديقة واسعة، مليئة بأشجار الفاكهة. لا ينقصه الذوق. دفعتُ البوابة الخشبية الصغيرة، وسرتُ على ممشى من القرميد، يشق طريقه بين أشجار الفاكهة والزهور التي لا أعرف أنواعها.

كانت هناك ستة كلابة مربوطة بسلاسل حديدية فى منزل صغير من الخشب، على بعد خمسة عشر مترا، وهى تزوم بشراسة، وكانوا ضخام الجثة مخيفين، وأنا أخشى الكلاب. تذكرتُ أن نادر كان يحدثنى على المسينجر قديما عن كلابه القريبة من قلبه، وكنتُ أقول له مداعبةً أني أخشى الكلاب؛ فأخبرني أنه سيساعدني على أن أنال حبهم. بخلاف ذلك الخوف فقد كان المنظر مبهجًا؛ وبدوت كما لو كنتُ مثل بطلة " ساحر أوز العجيب" للكاتب الأمريكي فرانك باوم،، حيث كانت دوروثي تسير مع الأسد الجبان، وخيال المآتة، ورجل الصفيح، متجهة إلى الساحر أوز، لكي تسأله عن طريقة لكي تعود بها لوطنها. رحتُ أقفز مثلها؛ فأنا أيضًا أتجه إلى ساحري الخاص؛ لأعرف لمَ اختفى، وكيف اختفى، والأهم من هذا كله: هل يحبني حقا؟.

لكن كل شيء يؤكد ذلك. أليس كذلك يا مفكرتي العزيزة؟ ما كادت تلك الأفكار تمرُّ على ذهني، ثم تستوطن كعادتها، حتى فوجئتُ بأن نادر ينتظرني على باب الفيلا الداخلي.

طويل، نحيل بعض الشيء، وتلك الجراح الملتئمة تنبئ عن حادث ما، أو شجار ما. كان يرتدي بنطالا من الجينز، وقميص أبيض، وحذاء رياضى، وكان يبتسم. كانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها بوضوح. وبينما كانت خطواتي المضطربة المرتبكة تقودني إليه كان عقلي يصرخ:

"يا حمقاء! أنتِ تذهبين إلى رجل غريب في بيته. صحيح أنه حبيبكِ القديم، وجرحكِ المؤلم الذي لم يكف عن الأنين طوال عام، لكنه ما زال غريبًا. هل سيتقبل أبوكِ العزيز ما تفعليه الآن؟".

وكان جوابي أن أمرته بأن يخرس؛ فأنا أعرف حدودي جيدًا. إنها تلك الرغبة الجارفة في المعرفة. لماذا اختفيت يا نادر من حياتي فجأة؟

"كنتُ أعتقد أنكِ لن تحضري".

قالها وابتسامته تتسع بحنان. قلتُ بخجل:

"كيف يمكنك أن تفكر هكذا؟".

ضحك:

"اعذريني على تشككي. تعلمين أنكِ أتعبتني معكِ ونحن نتحادث على الشات، حتى خلتُ أنكِ غير موجودة، أو أنكِ فتاة في جهاز أمنى خطير؛ بسبب السرية التي كنتِ تضعينها على كلامنا".

إنه على حق. تتبدى لي الآن خطايا الماضي في وضح النهار. في الحقيقة أنا السبب في ذلك. السبب في تأخر هذا اللقاء كل هذه الفترة. قلتُ باضطراب:

"هل أنت بمفردك هنا؟".

أومأ برأسه، وقال معتذرًا:

"أعرف أن هذا لا يصحّ. لكننا سنذهب إلى مطعم قريب نتناول فيه طعام الغداء".

"ولماذا لم نتقابل هناك؟".

تنهد:

"حتى لا أُكرر خطأ الماضي. من المهم أن ترى أين أسكن، وتتجولين في المكان أيضًا. كفانا ما ضاع من عمرنا بسبب هذه الرغبة الملحة في الغموض".

قلتُ مخلصة:

"ليس الأمر كذلك؛ إنما....".

قاطعني:

"فلنجلس أولا، ولتستريحي من عناء المشوار".

ولجتُ مبنى الفيلا وأنا أشعر بالارتباك. ما زلتُ أشعر بالذنب؛ فأنا أدخل منزل شخص غريب. كان المكان راقيًا وكان في الصالة مطبخ أمريكي، قبع خلفه نادر، وهو يُعدُّ عصيرًا طازجًا.

"من الممكن أن نشرب هناك في المطعم".

قال مبتسمًا:

"وهل يصح أن تدخلي منزلي لأول مرة، دون أن أُكرم وفادتك".

جلت ببصري في الصالة، ريثما انتهي مضيفي الحبيب من إعداد العصير. جلستُ، ووضعتُ هاتفي على المنضدة الرخامية أمامي. ألقيتُ بنظرة عليه؛ فإذا بعشرات الرسائل من أمجد. يا له من مثابر!

أتى نادر؛ فقلبتُ الهاتف حتى لا يرى شيئًا. ناولني كأسي. رائحته الذكية أنعشتني. قال وهو يشير إلى أشجار الفاكهة بالخارج:

"إنها من هناك. الفاكهة هنا أورجانيك، وأحرص أن أُسمِّدها بنفسي بسماد طبيعي. يهمني معرفة رأيك".

تذوقت العصير؛ إنه لذيذ فعلا. وجدتني أعبُّ العصير مرة واحدة، واضطرابي يتزايد، وخداي ترتفع درجة حرارتهما بشكل محرج. ضحك:

"لهذه الدرجة؟!".

وضعتُ الكوب الفارغ وقلتُ:

"كيف عرفت طريقي يا نادر؟".

قال بهدوء:

"منذ فترة طويلة، لكنى لم أجرؤ في الدخول لحياتك في الحقيقة".

قلتُ بدهشة:

"أنتَ منْ كنت تتبعني؟".

أومأ برأسه. هتفتُ بحماس:

"كنت أعرف ذلك. كنتُ أعرف ذلك. لكن أحدًا لم يصدقني، حتى طبيبي النفسي....".

ثم توقفتُ محرجة. قال باهتمام:

"هل تذهبين إلى طبيب نفسي؟".

أومأتُ برأسي بحرج أكثر. ما زلتُ أفكر بذات الطريقة التقليدية، التي يفكر بها أغلب المصريين. الذهاب إلى طبيب نفسي معناه أنى مجنونة! الحقيقة أنى ظننتُ ذلك، لكن الآن أدرك أنى كنتُ محقة. هو منْ كان يتتبعني فعلا.

"ولماذا لم تفصح عن هويتك؟".

"ستقولين وقتها أنى مجرد مترصد. كنت أحتاج أن أعرفكِ عن بُعدٍ، قبل أن نتقابل".

"أين كنت؟".

"في المستشفى، مُلقىً بين الحياة والموت، غائبًا عن الوعي".

انقبض قلبي. إجابة من أقسى ما يكون. الغريبة أن هذا فعلًا ما قاله لي نادر الخيالي، عندما تقابلنا في المطعم.

"ما الذي حدث؟".

"سيارة قوية مسرعة، صدمتني وتسبب هذا في تحطم ضلوعي وارتجاج في المخ، وأشياء أخرى لا داعي أن تعرفيها. المهم أنى بخير الآن".

قلتُ مشفقة، وأنا أشعر بالندم؛ لأني ظلمته:

"ألف سلامة. لم أعرف هذا".

كنتُ سعيدة يا مفكرتي العزيزة. إذن؛ فهو لم يتركني كما ظننت. لقد ابتعد عنى بسب ظرف طارئ خارج سيطرته.

ثم حدث بعدها شيء غريب.

ابتسم نادر، وكانت تلك الابتسامة مختلفة، لم تكن دافئة، ولم تكن تصدر بحّب أو حتى شجن. كانت ابتسامة ساخرة. قال:

"أليس هذا ما كنتِ تريدين سماعه؟".

لوهلة خُيّل إلىّ أنى لم أفهم.

"ماذا تعني يا نادر؟".

سألته لكن بصوت مرتجف، وقد خرجت الكلمات ثقيلة من جوفي، وكأنها كُتل من الطوب أدفعها دفعًا عبر حلقي.

"لم تعرفيني بعد. أليس كذلك؟".

كنتُ أودُّ أن أقوله له:

"أنت نادر!".

لكني لم أقدر على قولها. بدأ خدر غريب يسرى في كل جزء من جسدي. وهنا بدأت أعتى مخاوفي على الأطلاق تتحقق، وعقلي يصرخ:

"لقد كنتُ محقًا يا حمقاء! لقد كنتُ محقًا يا حمقاء!".

لابد أنه الآن يتخذ من جمجمتي صالة واسعة يتحرك فيها صارخًا بصوته الجهوريّ المؤلم.

نظرت لكوب العصير الفارغ. وكانت هذه الحركة الوحيدة بعينيّ التي استطعتُ أن أفعلها. لاحظ نادر نظرتي؛ فقال:

"نعم، إنه العصير. لقد وضعتُ فيه مادة خاصة؛ لن تخدرك بالمناسبة؛ فهناك ما أريدكِ أن تعايشيه بنفسك بكل ذرة من وعيك، كل ما ستفعله أنها ستشلُّ جسدكِ بالكامل".

لماذا يا نادر. لماذا؟

لم يخرج السؤال منى طبعًا. لكنه تكفل بالإجابة:

"لابد أنكِ تسألين الآن نفسك: لماذا يفعل نادر هذا. أليس كذلك؟".

كنتُ أودُّ أن أومئ برأسي، لكنى لم أقدر. جسدي صار مشلولا بالكامل. لكن عيناي تتحركان، وذهني حاضر، وثمة مرارة طافحة يضجُّ بها جوفي.

"عليكِ أولًا أن تعرفي من أنا؛ فأنا الرجل الذي يعرف سرك".

وتغيَّر صوته بغتة، وتحوّل إلى صوت خشن غليظ مليء بالتهكم والغموض:

"سرك الأكبر أيتها الماكرة. السرّ الذي أخفيته عن الجميع".

ارتجفتُ بأعماقي. إنه هو! إنه من اتصل بي عدة مرات، وجعلني أتشكك في الجميع، وأُجرجر ورائي أمجد من أجل إيجاد عريس غير ممل! مستحيل! هل أنت هو يا نادر؟! لكن لماذا؟ لماذا؟

قال نادر، وهو يتراجع للخلف:

"أدركتُ الآن أن سركِّ الذي تخفينه عن الجميع لا تعرفين عنه شيئًا. في الحقيقة لقد نسيتِ، ولا أعرف كيف يمكن لشيء كهذا يمكن أن يُنسى! لكنكِ محظوظة فيما يبدو".

وتسللت رنة غاضبة لصوته:

"لكن حظك هذا لن يستمر للأبد يا عزيزتي. من أجل أن تجبري الثعلب المختبئ على الظهور؛ فعليكِ أن تُمسكي بشعلة، وتدفعيها في جحره، حتى يخرج مختنقًا من الدخان".

وصفق بمرح مفاجئ:

"ولقد توصلتُ إلى طريقة عظيمة لفعل ذلك".

ونهض من مكانه، وكشف عن شيء كان مغطي في ركن الصالة الواسعة؛ فإذا به ما يشبه التابوت! كلا، إنه تابوت بالفعل.

نقر على خشبه؛ فأصدر صوتًا رقيقًا، والتفتَ إليّ:

"هل خمنتِ ماذا سأفعل بكِ؟ سأضعكِ في هذا الصندوق، ثم أُغلقه عليكِ بإحكام، ثم ألقيكِ في النيل. ستموتين من الرعب، من الاختناق، من نفاد الأوكسجين، سيكون للموت عدة صور، وسيلحق بكِ أكثرها سرعة وقوة!".

لماذا يا نادر؟ لماذا؟

"وأنتِ تموتين، وتلفظين أنفاسكِ الأخيرة ستسألين نفسك: لماذا تفعل هذا يا نادر، وأي شيء يجعلك تتحول لهذا القاتل البغيض المجنون غير المتوقع؟ أعتبر أن هذه صورة أخرى من الموت. صورة تليق بالعزيزة سامية".

وتوجه نحوي، وحملني بذراعين قويتين، ووضعني في التابوت بغلظة. نظراتي كانت تتوسل إليه ألا يفعل ذلك، لكنه تجاهل كل ذلك. يا لي من غبية! كيف لم أر الوحش الكامن في ذلك اللعين؟

لقد ضيعتُ سنوات من عمري، متعلقةً بوهمٍ ما في خيالي، وهمٍ لا يوجد له أي أثر من الحقيقة. أنا تجسيد لمقولة" أنا من ضيَّع في الأوهام عمره". حسنًا، هذا وهمٌ يتجسد للحم ودم، وسألقى مصرعي على يديه، وبأبشع طريقة ممكنة.

قبل أن يُغلق التابوت عليّ، وضع حقيبتي بجواري، ما عدا الهاتف الموضوع على المنضدة الرخامية الصغيرة. على كل حال؛ حتى لو وضع الهاتف معي؛ فلن أستفيد منه؛ فأنا مشلولة بالكامل.

أغلق التابوت عليّ، ثم بعد قليلٍ شعرتُ بالتابوت يُرفع، ويستقر في مكان ما، وقد ارتجَّ جسدي عدة مرات، دون أن أقدر على الحركة أو الصراخ. أنا عاجزة، كما يجب للعاجز أن يكون. ربما لو كان مخدرًا، وفقدتُ وعيي؛ لكان الأمر قد انتهى في لحظات.

لا أعرف كيف مرَّ من الوقت. لقد اهتز التابوت عدة مرات، وفى محاولة أخيرة من عقلي أن يُعلن عن صحوته قبل أن يغيب وراء المجهول الذي نخشاه؛ خمنتُ بأن نادر الوغد سيختار منطقة هادئة من النيل، منطقة يمكنه أن يوقف سيارته فيها، وأن يُخرج التابوت، وأن يُلقيني في النيل، من قبل أن يلاحظه أحد.

وبالفعل، سمعتُ لهاثه. يمتلك نادر بنية قوية، برغم أن جسده نحيل نوعًا، لكن التابوت وزنه ثقيل كما أُخمن. ثم شعرتُ بنفسي أهوى في الفراغ، قبل أن يرتطم رأسي بأرضية التابوت بقوة؛ إثر انزلاق التابوت في الماء.

شيء واحد لم يحسب نادر حسابه وهو يتكلم عن صور الموت المنتظرة (وربما فعل)؛ ففور أن سقط التابوت في الماء؛ بدأت المياه تتسرب للداخل. عظيم؛ سأموت مختنقة من الغرق إذن!

***

الفصل العاشر

مفكرتي العزيزة...

عندما أتذكر تلك اللحظة المطوية في عمق الماضي القريب أشعر بالفزع: تلك اللحظة التي كنتُ فيها أقرب للموت من أية لحظة أخرى. كنتُ أسمع أن من يدنون من الموت تمرُّ حياتهم أمام أعينهم كشريط حي مليء بزخمٍ من الذكريات المركزة، لكنى كنتُ أظن أن ذلك التشبيه ليس إلا نوعا من البلاغة التصويرية فقط، لكنى عندما مررتُ بتلك اللحظة؛ مرَّتْ حياتي أمامي بالفعل، بل وكانت هناك تفاصيل مطمورة في عقلي برزت كومضة، ثم انطفأت. نسبية الزمن تتجلى في ذلك المشهد، وأنا أرى حياتي تُعرض علىّ من جديد، وفى الخلفية صوت الماء الذي يتسرب للتابوت.

الماء البارد يتدفق، ويبدأ في غمري ببطء، بينما التابوت يبدأ في النزول لأسفل، أراه كذلك بعين خيالي. تمنيتُ لو ظهر نادر الخيالي، ليؤنس وحدتي، بغض النظر عن نظيره اللعين نادر الحقيقي الذي أعدَّ كل هذا مع سبق الإصرار والترصد.

عقلي يمرُّ بصدمة، جعلتني لا أستوعب الموقف جيدًا، لم أصرخ، ولم أدقُّ على التابوت بيديّ؛ فكما تعرفين فأنا شبه مشلولة، كل ما علىّ فعله هو أن أُراقب الموت وهو يحوم حولي، منتظرًا قطف حياتي.

يا لها من لحظة!

جسدي يرتجف مجددًا، ثم قام عقلي بشيء وددتُ لو شكرته عليه بشكل شخصي، وأنا أشدُّ على يده مصافحةً؛ فقد فقدت وعيي!

نعم، كما سمعتِ، تسرب وعيي خارجًا عنى، بينما الماء يتسرب للداخل، هذا يدخل، ذاك يخرج، وهي صفقة عادلة، وكان مرعبا بالنسبة لي أني سأموت، وأني عندما سأفتح عينيّ؛ سأجد نفسي في العالم الآخر.

لا، لستُ مستعدة بعد، لكن خطر لي أن الغريق شهيد، وهي نهاية لم أكن أفكر فيها من قبل، لكن عندما تأتي الآن؛ فمرحبا بها.

غبتُ عن الوعي، أو هو الذي غاب عني، ومع غيابه يغيب الزمن بدوره، ويحل سلام محبب، لكن فجأة شعرتُ بموجة من الهواء تدخل جسدي، كأني كنتُ أشبه بخرطوم يوشك أن تتطبق أجنابه قبل أن يأتيه تيار الهواء هذا من لا مكان! سعلتُ والماء يخرج من فمي بالفعل.

كان هناك تشويش، والرؤية ضبابية، وكنتُ أرى قطرات من الماء تتساقط من أمام بصري، مع مذاق ما على فمي.

اتضحتْ الرؤية، ووجدتُ وجها مألوفا يبدو عليه القلق. للحظة حدقت فيه بغباء.

قلت بصوت منهك:

"ماذا حدث؟".

كان صاحب الوجه يبكي. هل هو أحد أقاربي؟

"سامية، أيتها الحمقاء! لقد كدتِ تموتين! لماذا لم تردي على رسائل الواتساب؟ من حسن الحظ...".

قاطعته وأنا أقول بدهشة:

"أمجد!".

عندما قلت اسمه تدفقت ذاكرتي بدورها إلى عقلي مرة واحدة. نظرتُ حولي بِحَيْرَة. كنتُ على الرصيف، وعلى بعد أمتار كانت تقف سيارة أمجد العتيقة. هنا انفجرتُ في البكاء. نوبة طويلة متصلة من الدموع والنهنهة استمرت لعشر دقائق أو ربما ربع ساعة تقريبا، بعدها هدأتْ أنفاسي.

"لكن كيف؟".

سألته وهو يعاونني على الوقوف. لم أمانع. كنت حائرة ومضطربة وضعيفة، وفى ظرف آخر سأقوم بكسر أحد أضلاعه. لكن يبدو أنه...

"أمجد، هل أنتَ من أنقذني؟"

مسح دموعه:

"الفضل يعود إل الهاتف الذي أهديته إليكِ".

نظرتُ إليه بتساؤل.

"يبدو أنكِ نسيتِ الهاتف أصلا، وهو متصل بالإنترنت. ثمة تطبيق ما يمكنني معرفة مكانه في أية لحظة. عندما لم تردي جنَّ جنوني؛ مما جعلني أقوم بتشغيله، ومعرفة مكانك".

نظرتُ إليه فى حيرة، ثم انساب إلى ذهنى المُجهد مشهد ما..

***

قبل أن يُغلق التابوت عليّ، وضع حقيبتي بجواري.

***

في ظروف أخرى كنتُ سألقي أمجد في النهر غضبا. لكنى كنتُ ممتنة في تلك اللحظة أنه فعل ذلك.

"أخبريني: ما الذي حدث؟".

"أخبرني أنت كيف أنقذتني؟ لقد كان التابوت مغلقا، و....".

"لم يكن مغلقا بالكامل من حسن الحظ. لقد تسرب الماء لداخل التابوت، وهو ما جعل الضغط بالداخل قويا. ضربة من قدمي كانت كفيلة بأن ينفتح و....".

قاطعته للمرة المليون:

"هل قفزتَ في النهر؟".

قال بارتباك:

"وما الغريب في هذا؟".

أنظر إليه كما لو كنتُ أفعل للمرة الأولي. هززتُ رأسي:

"أنت مجنون يا أمجد".

"ربما. المهم أنكِ بخير".

ثم قال وهو يتوجه معي للسيارة:

"من فعل بكِ هذا؟".

رويتُ له ما حدث، بكل التفاصيل. منظره وفاه مفغور كان مضحكا، لكنى كنت متعبة ومرهقة لأن أفعل هذا. فجأة سألته بفزع وقد أدركتُ ما حدث:

"هذا المذاق في فمي... هل...".

تراجع للخلف بذعر:

"كنت مضطرا... لقد جسستُ نبضك وكنتِ شبه ميتة، وكان عليّ أدفع الهواء إلى رئتيكِ".

صرختُ:

"هل قبلتني؟"

" يسمونها قبلة الحياة لسبب وجيه".

ثم رمقني بتوتر:

"أليس كذلك؟".

وهنا انفجرتُ ضاحكة على غير المتوقع. نظرة الفأر الحبيس على وجهه جعلتني أشفق عليه. لكنى كنت مفترية. لقد أنقذني مرتين، وها أنا ذا أحاكمه بقسوة على إنه قبلني، بينما حبيبي القديم الذي أفنيت من عمري عامين في حبه(عام تعارف، ثم عاد بعد اختفاءه المفاجيء) يأتي لقتلي!

أليس الإنسانُ غريبا يا مفكرتي العزيزة؟

التزمتُ الصمت، بينما أمجد يقود السيارة العتيقة التي لم أكن أظن أن سأراها مرة أخرى، والحق أنى سررت لرؤيتها كما سررت لرؤية أمجد، لكنى لن أخبره بذلك أبدا. سوف يظن أني واقعة في هواه أو فى سبيلي لذلك. تعرفين نظرة الرجال لمن ينقذونهم من النساء، يظنون أننا سنلقى بأنفسنا بين أحضانهم على الفور. نظرة طفولية. اليس كذلك؟ ومع ذلك أنا ممتنة جدا لما فعله أمجد.

كان أمجد يقود السيارة بلا هدى. كنت قد اتصلت بأبوي، وأعلمتهما بأني بخير ومعي أمجد. في البداية كان صوت والدي يخرق أذني، لكن

فور أن سمع صوت أمجد وميزه؛ على الفور اطمأنت نفسه كما بدا هذا في صوته. بشكل ما يعتبرونني في أمان معه، وربما لأول مرة أتفق معهما في هذا.

أرحتُ رأسي على مسند السيارة العتيقة.

"هل نعود للبيت مباشرة، أم تريدين أن نسير بالسيارة في دوائر للأبد؟".

لهجته كانت فيها نبرة دعابة، لكنى كنت شاردة. فجأة نظرتُ إليه ونظرة جدية مخيفة على وجهي، جعلت التعبير المتوجس إياه يظهر على وجهه، كأنه يقول كما قال نجيب الريحاني من قبل" حاسس بمصيبة جايالي". وهو تعبير دقيق وحقيقي جدا، كما سترين.

المهم أن السيارة قد انطلقت عبر الشوارع شبه الخالية، في تلك المنطقة الراقية، والتي تؤدي إلى فيلا نادر. كنتُ مرهقة ومتعبة، وقد أفلتُّ من بين أنياب الموت لتوي، وهنا أغلقتُ عينيّ، ونمت. كان التساؤل الذي طرحته على نفسي قبل أن أغمض عينيّ: هل من الحكمة أن أذهب لنادر الآن؟ وكانت الإجابة: لا، لكن الفضول سيقتلني.

ليس الفضول فحسب، بل هو الأخير في سلسلة تبدأ بالخذلان والصدمة والإحساس الحارق بالحسرة، وأنى كنتُ متعلقة بوهم كبير رسمته في ذهني، حتى غدا هو والحقيقة سواء. عودة-يا مفكرتي العزيزة-لما حدث بعد أن أغمضت عيني.

الحقيقة لا أعرف ما الذي حدث بعدها، كل ما أنا متأكدة منه إن الظلام استمر للحظة، ثم وجدتُ نفسي في التابوت في النيل مرة أخرى! كنتُ أحدق في الماء الذي يتدفق إلى التابوت، وعقلي المصدوم يترجرج في جمجمتي بدون توقف.

طبعا كنتُ أعرف أني أستعيد الذكري اللعينة، التي لم يمر عليها سواء ساعة على الأكثر، لكن هذا هو ليس المهم. لا تندهشي، نعم هذا هو ليس المهم، بل المهم ما هو الذي حدث فوري تحديقي في الماء الذي يتدفق إلى الداخل. لقد ومضت في ذهني ذكرى ما. ذكرى ضبابية، حيث أرى شخصا ما، وقد اخترقت صدره رصاصة، وسقطتْ رأسه على منضدة أمامه فيما يبدو أنه مطعم ما، وأنا أحدق في المنظر المخيف وجسدي لا يتوقف عن الارتجاف!

انتبهتُ من نومي فزعة، وأمجد يلتفت إليَّ في ذعر:

"سامية، هل تبكين؟".

"لا بالطبع، لماذا تقول هذا؟".

وهنا شعرت بالدموع الساخنة تسيل على وجنتي، ومجددا تومض تلك الذكرى المؤلمة وتطفو على السطح. ما الذي يحدث لي؟

***

مفكرتي العزيزة...

ها نحن نتوقف بالسيارة أمام فيلا نادر، حيث أطرق الحديد وهو ساخن. هل تظنين أنى سأقضى ليلتي دون أفهم لماذا فعل ذلك، وكيف فعله بامرأة أحبها كل هذا الحب؟ طبعا قبل أن أكتشف كم كنت

مغفلة، كان أمجد يحاول إثنائي عن هذه الفكرة، وإبلاغ الشرطة، وهو قول أحترمه، لكن ماذا سأقول؟ سيتهمني بالجنون، وستُعزَّز سمعتي بين أفراد العائلة المباركة هذه التهمة؛ لأنهم يعتبرونني مجنونة بالفعل. ثم هذا بافتراض أنه سيظل في مكانه. لكن السبب الحقيقي هو الفضول/ الغضب المتنامي بداخلي كنار توشك على التحول لبركان لا يُبقي ولا يذر. لقد خذلني الوغد، وحطم كل تصوراتي السابقة عنه بتصرف واحد وحيد: عندما قرر قتلي!

"المهم أن تخفض صوتك هذا".

قلتها لأمجد بصرامة هامسة. غادرنا السيارة على مسافة مناسبة، بحيث نولي بها الفرار تحت أي ظرف طارئ. كان باب الفيلا الخارجي مغلقا، لكن أمجد أشار إليّ إشارة صامتة، وهو يلوح بيديه في الهواء. لم أفهمه، ورمقته بغيظ. لو تجمعتْ كل نظرات الغيظ التي رمقتُ بها أمجد منذ قابلته في شريط طويل متصل؛ فستتحول إلى شريط ديناميت محترم ينسفه نسفا. تنهد بضيق، وقد أدرك أن غبائي سيحول دون فهمه. لن أُصارحه بالحقيقة المفجعة بخصوص أينا أكثر غباءً.

"هناك شجرة يمكننا اعتلاؤها".

أشار إلى شجرة عتيقة. تبعته باهتمام. سنتسلل إلى الفيلا إذن، وستساعد الأشجار التي تُحيط بالفيلا في مساحة معقولة أن تخفينا عن الأنظار. في ظروف أخرى ما كنتُ لأجرؤ على فعلها، لكن بعد قصة حامد المجنونة اكتسب قلبي بعض الجرأة، ومع حادثة موتي القريبة، صرت متهورة فعلا، وتبدَّي هذا واضحا وأنا أعبر الممر الطويل الذي

يتوسط الحديقة، ثم ينتهي بالباب الرئيسي للفيلا، لكن أمجد أشار مجددًا إلى نافذة قريبة، ذات مستوى منخفض. أثبُ من النافذة للداخل، وخلفي أمجد، الذي لم يسعفه كرشه في الدخول بسلام؛ فسقط أرضًا، وقد انبعثتْ من سقطته صوت دويّ مكتوم. في ظروف أخرى كنت سأضحك كثيرا، وسأستلقى على قفاي، لكن في تلك اللحظة كنت متوترة جدا.

هنا، اقترب منى أمجد، وهو يجرجر كرشه أمامه، وهمسَ في أذني:

" ثمة أحدٌ هنا!".

***

مفكرتي العزيزة...

ها أنا ذا واقفةٌ، وأمجد قريبٌ منى يهمس في أذني، صوته المُحمل بلفحة دافئة تسري في أعصابي، وقد اقشعر جسدي للمرة الأولى منذ عرفته. هناك خاطرٌ ما سخيف قفز إلى رأسي، لكنى نفضته سريعا مع هزة رأسي. قال أمجد بدهشة، وقد لاحظ تلك الهزة:

"هل توافقينني على ما أقوله أم ماذا؟".

"تقول إن أحدهم هنا؟ لا أسمع شيئا".

كان صوتي هامسا أيضا.

"علينا أن نفتش المكان يا سامية. ربما هو ينتظرنا في مكان ما".

"ألا تشعر بالخوف؟"

"أكاد أموت في جلدي".

كان صريحا لحد مزلزل. هززت رأسي مجددا. وخاطر آخر يكاد يلتهمني؛ مما جعل الصداع يتصاعد في رأسي من جديد. اللعنة على التفكير الزائد!

"هل تحبينه؟".

كان هذا السؤال كرصاصة موجهة إليَّ. همستُ بغيظ:

"أمجد! هل تجد الوقت مناسبا لهذا الآن؟".

هزّ رأسه:

"وما المانع؟ قد نموت بسبب الأخ نادر بعد قليل؛ فسيكون من الجميل أن أموت وقد عرفتُ إجابة هذا السؤال على الأقل".

"وما الذي يهمك في إجابته؟".

"هل تقولين هذا بعد كل الذي فعلته من أجلك؟".

"هل تمنن عليّ ما فعلته؟".

قلتها باستنكار حقيقي. لم تتغير عضلة واحدة في وجهه. الحقيقة أن ابتسامة شفقة ظهرت على وجهه اللحيم الدهني. قال:

"ليس الأمر كذلك. المفروض أن تعرفي أن ما أفعله هي تصرفات شخص محب ليس إلا".

جسدي يقشعر مجددا. ماذا دهاني؟ أعرف أنه مهتم بي جدا، وأعرف أنه لا يفعل ذلك لكل الناس، لكن صراحته هذه بدأت تفتح بابا جديدا إلى النور، أو إلى الظلمة. لا أعرف. لا بد أنى شردتُ لدرجة لم تجعلني أنتبه لصوت الخطوات. أمجد على حق. الفيلا ليست خالية.

سرنا بحذر في أحد الممرات العديدة المتناثرة بشكل جمالي في الفيلا، حتى وصلنا للصالة، أو بالأحرى كدنا أن نصل إليها، لأن نادر كان يجلس هناك على مقعد بالقرب من النافذة، وهو يبدو شاردا.

شيءٌ ما في مرآه جعل قلبي يرتجف. ثم تذكرتُ التابوت والماء الذي كاد يغرقني؛ فاشتعل غضبي. الحقيقة أننا لم نُصدر صوتا ينبه نادر إلينا، ولم تكن هناك خطوة معينة تتلوها خطوات لمعالجة الموقف الغريب؛ إذ أن الفوضى التي كانت تعيث فسادا بعقلي كانت تمنعني من الفهم أو المعرفة، وفكرة التخمينات هنا مجهدة جدا. أتذكر نادر عندنا أخبرني بخطيئتي الكبرى التي فعلتها. الخطيئة التي جعلته يلعب هذه اللعبة المعقدة، لكي ينتهي بي المطاف في قاع النيل.

لماذا يا نادر؟ لماذا أيها الأحمق؟

وكأنما سمع ندائي الصامت؛ فالتفت إلينا فجأة. في البداية خيل إلى أن النظرة لما وراء الواقع أصلا، كما ينظر شخص ما إلى شخص، لكنه في الواقع لا ينظر إليه، بل ينظر لما وراءه. وتذكرت قصة شهيرة لأجاثا كريستي حيث كان القاتل هو أبعد الناس عن الشبهة، والذي كانت إحدى ضحاياه تنظر إليه؛ بدا كما لو كانت تنظر خلفه، لكنها في الواقع كانت تنظر إليه. لا أعرف كيف قفز هذا الخاطر في ذهني. بشكل ما يبدو أنى القاتلة هنا، ولوهلة ظننتُ أنى أُعاقب على فعلة شنعاء تستحق قتلي غرقا.

كما ترين يا مفكرتي العزيزة أن الفضول كان ما يحركني في تلك اللحظة، الفضول الذي يجعلني أريد معرفة لماذا تتحول قصة الحب

المشتعلة الغامضة هذه بداخلي إلى نار مستعرة تحرقني وأنا حية، وكأن هذا ينقصني. ثم بدا من نظرة نادر الشاردة (التي استمرت لثانية فقط كما يبدو) أن تعود للواقع، ويبتسم!

"هل رآنا؟".

همس أمجد بذلك، ونحن نختبئ خلف عمود من عمدان الفيلا، عليه رسوم تصويرية بديعة.

"اخرجا. خطواتكما تهز الفيلا مثل الأفيال".

وخرجنا.

"إذن فقد نجوتِ".

قالها نادر وابتسامته تتسع. هل الوغد معدوم الضمير لتلك الدرجة؟ هنا انقض عليه أمجد غاضبا، وأنا-يا مفكرتي العزيزة-من أحلامي أن أرى أمجد غاضبا.

لقد رأيته وهو يضحك، وهو يأكل بشراهة والهيام على وجهه، ورأيته وهو يصرخ كطفلة صغيرة عندما ضربته بالمكنسة في جنبه، ورأيته وهو يقفز من الألم عندما أصابته رصاصة حامد، لكن أن أراه غاضبا؟ هذا أمر يستدعي منى أن أراقب هذا الأمر الممتع. لكن أحلامي هذه لم تطل كثيرا؛ إذ أن أمجد كوَّر قبضته وهو ينقض على نادر، لكن نادر ترك مقعده بسرعة وسلاسة، وكانت النتيجة أن قبضة أمجد ارتطمت بالمقعد الصلب، وسقط أرضا وهو يتلوى من الألم. هرعت إليه فزعة:

"أمجد، هل أنت بخير؟".

قال بألم:

"ماذا ترين؟".

نظرت إلى نادر بعينين متعبتين من الغيظ. كرر سؤاله بتؤدة:

"إذن فقد نجوتِ؟".

"لم تحن ساعتي بعد".

"ما دمتِ حية؛ فأكيد لم تحن ساعتكِ بعد".

ثم اقترب منى؛ فتراجعتُ للخلف. هذا الشخص لا علاقة له بالصورة المتخيلة لحبيبي. إنه قاتل ببساطة.

"ألم تتذكري شيئا ما عندما انسابت المياه إلى التابوت؟".

كان يسأل باهتمام حقيقي مقتربا منى أكثر، بينما أنا أتراجع للخلف أكثر وأكثر، وعيناه مسلطتين ككشاف على وجهي. ما الذي يقصده؟ واصل قوله بطريقة معينة مربية أثارت خوفي:

"حين كان الماء يتسرب إلى التابوت، مصدرا خريره المميز، والخوف يعتصرك، وعقلكِ يتحرر من عقاله، وذكرياتك تكشف أخيرا عن نفسها. ما الذي رأيته؟".

ابتلعتُ ريقي برهبة. كلامه أثار شيئا ما بالفعل، ومضة بدأت صغيرة عندما كنتُ فى سيارة أمجد منذ قليل، ثم راحت تكبر الآن، وفي النهاية كشفت عن مشهد غير متوقع، كأني أراه في بعدٍ آخر:

العديد من المناضد المتراصة فيما يشبه مطعما ما، لكن المرعب هو ذلك الرجل الغامض الذي لا أرى وجهه، والدم يسيل منه ويغرق الأرضية البورسيلين.

كان المشهد بشعا، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أُفرغ ما في جوفي، وجسدي لا يتوقف عن الارتجاف، وأنا أُطلق صرخات قصيرة ملتاعة بدون سيطرة منى على الإطلاق، حتى أن أمجد قد أصابه الرعب حقيقة، وهو يجثو على ركبتي بجواره، وهو يسأل:

"ما الأمر؟ ما الذي حدث؟".

لكن المشهد لم يتوقف عن تلك اللحظة. صحيح أنه انطفأ كعود ثقاب في ذهني، لكنه اشتعل مجددًا كاشفا عن نفس المنظر، لكن من نافذة المطعم، كان نادر نفسه يقف على سطح بناية ذات طابقين، تواجه المطعم مباشرة، رامقًا المنظر بعينين جامدتين، تعارضتْ مع ابتسامة قاسية على شفتيه، وهو يحمل بندقية ما!

هنا، أدركتُ، فيما يشبه الإلهام من فعل هذا.

تمتم نادر:

"يبدو أنكِ قد تذكرتِ ما حدث. كان هذا لغزا عظيما بالنسبة لي: كيف نسيتِ؟".

أرمقه بمقت. لقد أحببتُ وحشا. وحشًا لا يتوانى عن تفجير أدمغة أناس أبرياء، لكن من أجل ماذا؟ وعن أي لغزٍ يتكلم؟

واصل نادر:

"هذه الفيلا تتوسط حديقة مُحاطة بسور عال، وشبكة الهاتف لا تعمل حاليا. سأترك لكما الفرصة للهرب، ومحاولة الفرار، لمدة خمس دقائق فقط، وبعدها...".

ثم أخرج من درج فخيم بندقية مرعبة، كتلك التي يستخدمها القتلة المتسلسلون، وطبعا كانت مألوفة بالنسبة لي؛ فقد رأيتها منذ لحظات في الذكرى المطمورة التي قفزت على السطح، بينما نادر يواصل كلامه مع ابتسامة بدت رقيقة:

"ثم سأشرع في مطاردتكما واصطيادكما كالحيوانات".

***

الفصل الحادي عشر

مفكرتي العزيزة....

لم أستوعب ما قيل. حدقت في وجه نادر لثوانٍ، لكن أمجد تحرك بشكل عملي، وهو يجذبني من يدي للخارج، وأنا أتبعه وعقلي يجمح في أفكاره. تقريبا كنتُ لا أرى أمامي. هنا هوتْ صفعة على وجهي.

"أريدكِ أن تركزي. كفي عن بلاهتك هذه".

تحسستُ خدي بذهول:

"هل صفعتني للتو؟".

قال أمجد معتذرا وهو يركض للخارج:

"تقبلي فكرة أن ذلك الوغد مختل عقليا. لا يوجد وقت للحيرة والتساؤلات".

كان على حق. لو خرجنا من هذا الموقف على خير سأقتله بسبب صفعته هذه!

غادرنا الفيلا، متوجهين للبوابة الحديدية التي تبدو لنا في آخر الممر، والتى كانت مغلقة. الوقت ليل، والمصابيح لسبب ما مفهوم كان بعضها مطفأ، وكان بعضها الآخر المضيء يلقى ظلاله على قوالب القرميد، وقد صارت مخيفة بالفعل، مختلفة عن الصورة المبهجة التي رأيتها نهارا مع الوغد نادر، وهو يقودني لفخّ الموت.

فجأة ارتفع صوت نباح كلاب!

توقف أمجد متوترا.

ثم حوّل طريقنا لجهة أخرى، وسط أشجار الفاكهة، وأنا أسير خلفه بلا هدى، ويده منقبضة على يدي بقوة، كأني طفلة يخشى ضياعها.

توقفتُ وأنا ألهث.

"لقد تعبتُ. فلنسترح قليلا".

"لكنه سيلحق بنا".

"سينفجر قلبي من التعب لو أكملنا الركض".

"وسُيفجِّر رأسينا لو توقفنا".

"لماذا يفعل هذا بنا؟".

"لا تسألي المختل لما هو مختل".

"أظن أن الأمر أكبر من مجرد حكاية مختل".

قلتُ هذا طبعا بصوت متقطع من اللهاث، لكنى دونته هنا كاملا يا مفكرتي الحبيبة.

"فسِّري كلامك".

قالها أمجد، وهو يدفعني برفق خلف جذع شجرة ضخما، يكاد يخفينا عن الأنظار. رمقته بامتنان. إنها فرصة لالتقاط أنفاسي.

"وضحى مقصدك يا سامية".

كان سؤال أمجد أكثر تحديدا هنا. لوحت بيديّ:

"لا أعرف كيف أصف إحساسي هنا. الأمر غريب يا أمجد. يضعني في تابوت لإغراقي، ثم لا يتفاجأ أنى حية، وكأنه يتوقع هذا. ثم يسألني عما أتذكره، كأن ما يهم هنا أن أتذكر ما لا أتذكره. معلومة ما مطمورة في قاع جمجمتي يريد معرفتها".

هز أمجد رأسه مبتسما:

"مطمورة في قاع جمجمتك! يا له من تعبير!".

"هل تسخر منى؟".

قال بسرعة:

"على الإطلاق. أنا أثق بحدسكِ. هذا لا يمنع أنه مختل".

"لكن ما هو المهم فيما نسيته؟".

سألني أمجد بعد لحظة:

"هل هناك ما تنسينه بالفعل؟".

"أخبرتك من قبل أن ذاكرتي كانت تعمل بكفاءة تامة. ثم في يوم ما بدأت الذكريات تنساب منى. بدأتُ أنسى فعليا. أنا لم آخذ لقب" خرقاء العائلة من فراغ".

"إذن، فهو شيء قد حدث منذ عام. أليس كذلك؟"

شددتُ خصلة من شعري:

"لكنى لا أعرف ما هذا الشيء".

تمتم شاردا:

"عظيم".

حدقت في وجهه:

"ما هو العظيم في ذلك أيها العبقري؟".

هز رأسه مجددًا:

"ربما هذا لمصلحتكِ. لا تعرفين".

"اسكت يا أمجد. أنت تهرّف بما لا تعرف أو تفهم".

"ربما. علينا الآن أن نهرب من هذه المتاهة قبل أن يلحق بنا هذا اللعين، ويفرغ رصاصات بندقيته في جسدينا".

"هذه البندقية رأيتها من قبل".

بدا الاهتمام على وجهه:

"أين؟"

"في مطعمٍ ما".

صمت أمجد. قال ببطء:

"أي مطعمٍ هذا؟".

" لا أعرف. ومضة من ذكريات الماضي وثبتْ إلى رأسي. مطعم ما، وفي يمين المكان من إحدى النوافذ-من وجهة نظري طبعا-كان نادر يقف وهو يمسك بالبندقية، وتعبير شديد القسوة على وجهه".

"يا لها من ومضة بشعة! ربما تتخيلين هذا".

"ربما. أتعرف؟ بمجرد أن شعرتُ بهذا انتابني شيء مرعب. ربما لو استمرت الومضة في التألق في عقلي ربما حدث لي شيء. ربما فقدتُ عقلي نفسه. هل هذا ممكن؟".

هز رأسه مجددًا. هذه المرة لم أعرف ما يقصده. نهض:

"أعتقد أنه حان وقت التحرك".

كانت أنفاسي قد انتظمت بالفعل.

"إلى أين سنذهب؟".

"سنحاول الوصول للأسوار الخارجية، وهناك سنبحث عن طريقة لتسلقها".

تبعته في حيرة. هل يظن نفسه قردا رشيقا بكرشه هذا حتى يكون هذا سهلا له؟ توقفت فجأة برعب، وأنا أنظر إلى ستة كلاب ضخمة، تزوم بوحشية، ويتساقط الزبد من أشداقها!

***

زادتْ قبضة يد أمجد على يدي. هل هذه ردة فعلك؟

سألته برهبة وبصوت منخفض، حتى لا أُثير غضبا هذه المخلوقات الحساسة:

"ماذا سنفعل؟".

"إنها كلاب شرسة مُدربة على مهاجمة أي شخص لا تعرفه. وأعتقد أنه تنطبق علينا هذه الصفة. حاولي أن تركزي على نفسك بحيث تغدين أكثر هدوء، ولا تنفعلي فتفرزي مزيدا من...".

وتأمل وجهي الغارق في بحيرة من الماء:

"... العرق!".

قلت بحنق:

"ليس بيدي. أنا أخاف الكلاب".

"حاولي أن تتذكري لحظاتك السعيدة إذن. هذا سيقلل من الخوف، والكلاب تشتم رائحة الخوف كما تعلمين".

"هذه نصيحة غير مجدية بالمرة. سأفقد وعيي من الخوف".

"تذكري اللحظات السعيدة التي كانت معي إذن".

قلت له بغيظ:

"هل هذه هي نصيحتك العظيمة؟".

"لا تنكري أنكِ ضحكتِ منذ قابلتني أكثر من أي وقت آخر. إذا كنتِ تعتبرين نفسك خرقاء العائلة؛ فلابد أن لقبا مشابها لي ينتظرني".

ابتسمتُ على الرغم منى. قال أمجد مستبشرا:

"أرأيتِ؟ لا بد أن الخوف قلّ كثيرا لديكِ الآن".

هنا نبحت الكلاب وهي تقترب أكثر، وكأنها تكذبه. قلتُ وأنا أتراجع للخلف برهبة:

"أمجد يا عزيزي. هذه الكلاب تتمتع بإيجابية ليست عندما نحن البشر. ستنشب أنيابها في عنقينا بعد لحظات لو لم نتصرف".

بدت الحيرة على وجهه، وكأنما وقع في مصيدة. التفتُ حولي بحثا عن مخرج. المشكلة أن المكان حولي مشجر بكثافة، ولا بد أننا سنتعثر بشيءٍ ما سيجعلنا نسقط على ظهرينا أو بطنينا، وستكون فرصة لهذه الكلاب أن تمزقنا إربا. إلى أين المفر؟

قال أمجد:

"ثمة طريقة ما، ولكنى لا أضمن نجاحها".

"نفذها فورا. لا يوجد وقت".

أشار إلى عنقي:

"انزعي عنكِ هذه السلسلة".

"ما هذا الطلب الغريب؟".

"نفذي فورا. لا يوجد وقت".

صوته المنخفض المليء بالغيظ والصرامة جعلني أمد يدي حول عنقي، وأنزع السلسلة، وأسلمها إليه. ماذا سيفعل بها بالضبط؟

راقبتُ أمجد باهتمام لأري ماذا سيفعل. جثا على ركبتيه أمام أضخمهم، وخطر لي أن هذا الأخير لو أنشب أنيابه في حنجرة أمجد فيقضمها دون عناء.

ارتجفتُ للفكرة. رفع أمجد يده بالسلسلة، وراح يحركها بشكل منتظم من اليمين للشمال، ثم من الشمال لليمين. ثم فعل شيئا جعلني أتأكد بأنه معتوه؛ فقد راح ينبح مثل الكلاب! حسنًا، كان النباح هنا مختلفا، أقل صخبا، وبدا منغما، ولاحظت أنه يتناسق مع كل مرة يحرك فيها السلسلة.

كتمتُ أنفاسي مترقبة ردود فعل الكلاب. لا بد أنهم يرون هذا المنظر لأول مرة في حياتهم: إنسان لا يولي الفرار، بل ويتجرأ ويفعل ما فعله أمجد. ثم حدث بعدها شيء غريب: جثت الكلاب هي الأخرى أمام أمجد على أقدامها الأمامية، ثم أعقبتها بالخلفية، وتوقفت عن النباح، وهي تزوم ثم تُريح رؤوسها على الأرض في مشهد خرافي لا يمكن أن أصدق وجوده فعليا إلا لو رأيته. نهض أمجد وعينه الحذرة معلقة بالكلاب، وقال:

"فلنمشِ الآن بهدوء ودون أن نُحدث جلبة".

قلت في ذهول، وأنا أحدق فيه:

"ماذا فعلت؟".

"إنها طريقة قديمة قرأتها في أحد كتب السوفييت. التنويم بالإيحاء".

"لكنهم كلاب وليسوا بشرا. لم يصدف أنى قرأتُ طريقة كهذه من قبل".

هز رأسه بتواضع، وقال كلاما كثيرا عن أن بحر العلم لا شاطئ له، إلى آخر هذه الإكليشيهات المحفوظة، والحقيقة أنى-برغم منطقية كلامه-لم أقتنع. بالأحرى: شعرتُ أن الموضوع ليس بهذه البساطة. كنا قد عبرنا حاجز الأشجار، واقتربنا من الأسوار الخارجية للفيلا.

لن نعدم وجود وسيلة تمكننا من تسلقها والخروج للعالم ما دامت البوابة مغلقة بإحكام.

لكننا توقفنا مبهوتين عندما رأينا نادر الوغد يجلس بالقرب من السور، مسترخيًا على مقعد خشبي وهو يمسك بندقيته المخيفة، والكفيلة بجعلي أعترف بكل الخطايا التي ارتكبتها من قبل.

صحيح أنني لم أفعل خطايا من النوع الفادح، لكن حسب كلام نادر فقد فعلتُ شيئا شنيعا في الماضي، وهذا الشيء لا أتذكره.

قال نادر فور أن رآنا:

"نحتاج أن نتحدث قليلا أيها العزيزان".

***

بعد أن انتهي نادر من تقييدنا، جلس ووضع ساقا على ساق. قلت بضيق:

"هل هذا مفهومك عن التحدث؟".

ضحك من قلبه وقال:

"ماذا أفعل إذا كانت كل وسائلي لجعلكِ تتذكرين لم تُفلح؟".

قلت بنفاذ صبر:

"مرة أخرى تتحدث بالألغاز، و....".

قاطعني:

"كل ما فعلته لكي أجعلك تتذكرين ما حدث".

رمقته بتساؤل.

"بالمناسبة كيف نجوتما من الكلاب المتوحشة؟ إنها مُدربة على الفتك بأي شخص غيري".

قال أمجد ببرود:

"لدي قدرة سحرية في السيطرة على الكلاب. للأسف هذه القدرة لا يمكن أن أجربها عليك".

"ظريف".

سألته بحيرة:

"لماذا تفعل كل هذا؟ لماذا تريد قتلي؟".

"صدقي أو تصدقي أيتها العزيزة سامية؛ فأنا لم أقصد قتلكِ بالمرة. لو كنتُ أريد ذلك، ما كان لكِ أن تتحدثي معي الآن. كل ما فعلته هو أن أساعدكِ على التذكر بما حدث منذ عام. ما هو الشيء الغامض الذي جعلكِ تنسين؟".

"لم أفهم".

"منذ عام حدث شيء ما في أحد المطاعم. لكنكِ لا تتذكرين هذا في الواقع. هذا الشيء حدث بين الساعة الخامسة والسادسة مساء. في ذلك اليوم قابلتِ أحدهم في المطعم، والحقيقة أنى كنتُ أعلم أنكما ستتقابلان، وكان المفترض أنْ أُنهي حياتكما برصاصتين، لكنى فعلتُ هذا لمن قابلتهِ، بينما امتدت يد أحدهم وجذبتكِ بعيدا عن مستوى رؤيتي، من خلال عدسة البندقية المكبرة ذات المدى البعيد".

معلومات كثيرة، جعلت قلبي يخفق من الانفعال يا مفكرتي العزيزة.

أخيرًا بدأت قطع البازل تُشكل شيئا ما مفهوما. سألته:

"أنت قاتل محترف إذن؟".

"هذه حقيقتي".

"وتقول أنكَ لم تنو قتلى حقيقة؟".

ابتسم:

"التعرض لمواقف خطيرة يحفز العقل، ويجعل المرء يتذكر أشياء مطمورة في داخله. كل من يتعرض لخطر الموت يحكى لكِ عن شريط حياته الذي يتألق أمامه بكافة التفاصيل. الزمن هنا يغدو مختلفا حتى عن الزمن النسبي الذي نتعامل به في حياتنا العادية. كنت أتمنى أن تعرضكِ للغرق يتسبب في تذكرك لأشياء كثيرة".

قلت بغضب:

"هل تعرضني للموت من أجل أن أتذكر؟".

"في الحقيقة أنا كنتُ أنوي قتلكِ منذ زمن بعيد، لكن بسبب فضولي عما حدث في تلك الليلة جعلني أؤجل هذا القرار. تعرفين ما يفعله الفضول بالمرء. كما قال الإنجليز. الفضول قتل القط".

وتذكرتُ شيئا قلته لكِ من قبل يا مفكرتي العزيزة؛ فهل تتذكرين بدورك؟

***

كما ترين يا مفكرتي العزيزة أن الفضول كان ما يحركني في تلك اللحظة، الفضول الذي يجعلني أريد معرفة لماذا تتحول قصة الحب المشتعلة الغامضة هذه بداخلي إلى نار مستعرة تحرقني وأنا حية.

***

قلتُ:

"وماذا لو لم ينقذني أمجد من الموت؟".

هزّ رأسه:

"لن أحزن كثيرا في الواقع، لكنى كنت أعول على إنقاذه لكِ. في الحقيقة لو لم يفعل كنت سأفعلها أنا. بالمناسبة لقد كنتُ بالقرب من موقع سقوط التابوت، وكنت أحسب الوقت على ساعتي، وكنت أعرف اللحظة المناسبة للتدخل. لكنى فوجئت بظهوره".

وأشار إلى أمجد، وأكمل:

"وكان مرعوبا فزعا ولم يتردد لحظة في القفز لإنقاذك. يبدو أن الحب يفعل المعجزات فعلا".

قالها بسخرية، وبينما أشاح أمجد بوجهه، احمرّ جهى من الخجل والغضب معا.

وأطلق نادر ضحكة مستمتعة:

"الجميل أنه لم يتردد في اعطاءك قبلة الحياة، هذا بعد أن حاول إنعاشك عن طريق الضغط على صدرك".

تحسستُ صدري في خجل. هذا إذن سبب الألم الذي كنتُ أشعر به، وكأن قاطرة وقفت على صدري. لمعرفتي لوزن الفيل الصغير أمجد؛ فيبدو هذا منطقيا.

"والآن أخبريني: هل تذكرتِ شيئا؟".

"ليس الكثير. تذكرتُ بالفعل وجود شخص ما ضُرب برصاصة في رأسه، لكن وجهه غير واضح لي".

"مثير للاهتمام".

"من هذا الشخص الذي قمت أنت بقتله، ومن أمرك بقتله وقتلي؟".

قال الوغد ببساطة:

"سأجيبك عن نصف السؤال الأول فقط. الشخص الذي قمتُ بقتله هو صاحب هذه الفيلا".

سألته بدهشة:

"ألست أنت صاحبها؟".

"طبعا لا. هل تظنيني مجنونا حتى أدلكِ على مكاني هكذا ببساطة".

"ومن صاحب هذه الفيلا أيها الثعلب؟".

قلتها بسخرية، محاولة السيطرة على بركان الجنون الذي يعربد بداخلي. أجابني وصوته يتغير فجأة:

"صاحب الفيلا هو نادر الحقيقي طبعا".

***

خلتُ أنى لم أسمع الاسم جيدا، وأنى لم أميز نبرة نادر التى أعرفها جيدًا منذ أن كنا نتكلم على الماسينجر. قلتُ أستوثق مما قاله:

"عفوا! ماذا تقول؟".

ابتسم بسماجة:

"هل تظنيني نادر حبيبكِ؟".

"ألست هو؟".

ثم انتبهتُ فى تلك اللحظة أنه صوته قد تغير:

" ولماذا تغيّر صوتك فجأة؟".

ضحك. ضحك جدا، ضحك كثيرا، ضحك كما لو لم يضحك من قبل، وفي تلك اللحظة وددتُ لو قمت بتهشيم صف أسنانه. أظن أن أمجد كانت تراوده نفس الرغبة.

"لم تكن هناك طريقة لإقناعكِ بالقدوم معي غير هذه الطريقة. أن تظني أنى حبيبكِ نادر، الرجل الذي تنتظرينه. أما بخصوص تغيّر صوتي؛ فمن المفروض أن تخمنى أني أجيد تقليد الأصوات ببراعة، منذ كنتُ أتلاعب بكِ فى الهاتف من خلال ذلك الصوت الغليظ.

وبما أنكِ عرفتِ الآن أنى لستُ نادر الحقيقي؛ فليس من المنطقي أن أُصرُّ على تقليد صوته. أليس كذلك؟".

"إذن؛ فهو منْ رأيته في ذهني مقتولا عندما تعرضتُ للغرق".

"هو".

وضرب كفا بكف مندهشا:

"ولا أعرف كيف لا يمكنكِ أن تتذكري بقية ما حدث".

كنتُ مصدومة. لم أجد كلمة يمكن أن تعبر عما شعرتُ به في تلك اللحظة. إذن، فقد قابلتُ نادر من قبل، لكنى نسيت. كيف؟ انتبهتُ في تلك اللحظة أن أمجد لم ينطق بكلمة. كل يفعله هو مراقبة الحوار والاستماع إليه فقط، دون أن يتدخل ولو بكلمة.

كنتُ أتمنى لو نطق في تلك اللحظة. أن يقول أي شيء. ولم يخذلني أمجد كعادته. قال بهدوء:

"لا تصدقي هذا الكذاب يا سامية".

قال نادر، أو نادر المزيف، لا أعرف بما أدعوه به:

"لا تصدقين ادعائي بأني لستُ نادر، أو أني قتلته؟".

قال أمجد ببرود:

"ما رأيك؟".

قال الوغد:

"ما أريد أن أفهمه يا سامية، كيف لا تتذكرين ما حدث في المطعم، أو ما حدث له بعد ذلك؟".

قلت بمرارة:

"ماذا تعنى؟".

"شيء ما حدث قد جعل المطعم يحترق بما فيه، لكنكِ وصاحب المطعم والعاملين فيه نجوا منه بطريقة غامضة. أفهم أن رصاصتي التي اخترقتْ رأس نادر جعلت أصحاب المطعم الخالي يولون الفرار، لكنكِ كنت تحتضنين رأس نادر وأنتِ تبكين بحرقة. كيف نجوتِ من الحريق". كيف؟".

كنتُ أشعر بصداع كاسح يكاد يقتلع رأسي من جذوره. تمتمتُ بوهن:

"لا أريد أن أتذكر. لا أريد أن أتذكر".

نظرة عجيبة كانت في عينيِّ الوغد الذي لم أعرف اسمه بعد.

"لم تخبرني عن اسمك".

"لي أسماء كثيرة، لكنها تتلاشي مثل طلاء الحائط. ويبقي اسمى الشهير:" الظل".

قلتُ وقد أعماني الغيظ والغضب:

"الظل؟ ثق أننا لو خرجنا من هنا سندلي بأوصافك للشرطة".

هز رأسه بعدم اكتراث:

"لا يهم. لو لاحظتي هذه الندبة على جبينى؛ فهي أثر عملية جراحية متقنة جدا قمتُ فيها بتغيير وجهى منذ ثلاث أعوام. سأغير وجهي هذا بوجه جديد، ولديّ من المال ما يكفيني لفعل ذلك عدة مرات".

ثم ابتسم بوحشية:

"في الحقيقة أنا أقطن فيلا نادر منذ عام، حتى أن كلابه الأثيرة إلى نفسه صارتْ كلابي، وكنتُ أدفع فواتير الفيلا بانتظام، وأعيش حياته الاجتماعية المنعزلة بأمان".

"أيها الحقير".

"ثم لماذا تفترضين أنكِ ستخرجين من هنا على قيد الحياة؟".

همَّ أمجد بقول شيء ما، لكن رنين هاتف الظل الخلوي أجّل ذلك. في الحقيقة كان رنينا بوصول رسالة ما على هاتف الظلّ المحمول. بدا على وجهه التفكير، ثم افتّر ثغره عن ابتسامة شيطانية.

عدّل هندامه واتجه للخارج.

صرختُ:

"إلى أين تذهب وتتركنا هنا؟".

توقف وقال وهو يلتفت إلينا:

"وهل هذا سؤال؟ إنها أوامر بمهمة قتل جديدة".

وغمز بعينه:

"لكن هذه المهمة ذات طعم خاص جدا؛ لأنها متعلقة بكما!".

***

الفصل الثاني عشر

مفكرتي العزيزة...

كنتُ مذعورة من جملة الظل الأخيرة.

المعنى الذي خطر لذهني أن عائلتي في خطر، وأن ذلك الوغد ينوى شرًّا بهم.

يبدو أن نفس الفكرة جالت بخاطر أمجد؛ فقد كان يزوم كالوحش الحبيس، وهو يتحرك بصعوبة بالغة، ولأن المسكين يعاني من مشكلة الأملاح؛ فقد كان العرق يتصبب على وجهه، ويُغرق جسده، ولأنى ملتصقة بظهره على الرغم منى، ويفصل بيني وبينه حاجز من الخشب فقط؛ فقد نالنى من العرق جانب.

"حاول أن ألا تتحرك، حتى أفكر في الوصول إلى حلّ".

قلتها، وأنا أقدح زناد فكري. لكن أمجد تجاهلني، وهو يتحرك تلك الحركات العشوائية، وكأنما أصابه مسٌّ من جنون. ثم أطلق صرخة هائلة خلعت قلبى من مكانه. أصابني الرعب، وقلبى يخفق بقوة، وأنا أحاول أن أراه بطرف عيني، لكن من تلك الزاوية اللعينة المقيدة أنا فيها كان هذا صعبا جدا ومجهدا، وكفيلًا بإصابتى بتصلب الرقبة ليومين قادمين. هذا بافتراض أننى سأظل على قيد الحياة.

فجأة، شعرتُ بأصابع تفك قيدي؛ فانتعش الأمل في صدري، وعندما التفتُّ إلى مصدر الأمل؛ كان أمجد ذاته!

سألته بذهول:

"كيف فككتَ قيدك؟".

قال والألم ينضح في صوته، مشيرا إلى إصبعه الإبهام:

"اضطررت لكسر إبهامي".

اقشعر بدني.

" هل أنت مجنون؟".

قال وهو يخرج هاتفه المحمول:

"ربما".

طلب رقما ما. الأمر لا يحتاج لعبقري لأدرك بمن يتصل. أنا نفسي كنت أفعل ذات الشيء، وأنا أطلب رقم والدي.

"أبي. أين أنت؟".

"ما هذا السؤال الغريب يا سامية؟".

كانت هناك ضجة بجواره.

"أنت لست في البيت؟".

"لا، لقد ذهبنا لحضور حفل زفاف أنا وأمك وإخوتك، وكذلك معنا أبويّ أمجد".

كانت علاقة أبي بعائلة أمجد قد توطدت في الفترة الأخيرة، لكن أن يذهبوا معا إلى حفل زفاف؟

كان أمجد يقول في تلك اللحظة، ويبدو أن والدته-بما أن بينه وبين والده ما صنع الحداد-كانت تخبره بآخر التطورات:

"اسمعي يا أمى. لا تعودي للفيلا. خذي أبي وعائلة سامية، واذهبي إلى مكانٍ سأرسل لكِ عنوانه على الواتساب. أرجوكِ نفذي ما أقوله

دون أسئلة كثيرة؛ فلا يوجد وقت. أعرف أن أبي سيرفض بعناد، لكن أرجوكِ افعلوا هذا الآن من فضلك، وأبلغيني بوصولكم برسالة على الواتساب. مع السلامة".

وأنهى المكالمة، وأرسل عنوانا ما لم أره بطبيعة الحال.

سألته بقلق:

"هل هو مكان آمن؟".

قال بسرعة، وأصبع يده اليمنى تجري على الحروف:

"هو كذلك".

ثم تنهد. والتفت إليّ:

"الآن سنتفرغ لذلك الوغد الذي تجاوز الخطوط الحمراء. هل تسمعينني يا سامية؟".

كنتُ أسمعه، لكنى لا أميز كلمة مفهومة مما يقوله؛ هذا لأني كنتُ أحدّق في صورة كبيرة مؤطرة، ملقاة في ركن الصالة بإهمال، وربما هذا ما جعلني لا أنتبه إليها من قبل. اقتربتُ من الصورة وتحسستها غير مصدقة، وأنا أتشرَّب الوجه المألوف الضاحك عليها، وهمستُ مذهولة:

"نادر!".

***

أجل يا مفكرتي العزيزة...

لقد كان هو نادر. تسألينني كيف عرفت؟

يبدو أن فضولكِ كان هو نفسه الذي يشتعل في صدر أمجد، وهو يقترب منى متساءلا بتوجس:

"ما الأمر؟".

أشرتُ إلى الصورة، وقلتُ بصوتٍ مبحوح:

"هو!".

تمتم:

"هو؟".

أومأتُ برأسي. قال بغيظ:

"هل من المفروض أن أفهم من إيماءتكِ هذه؟".

"أخبرتك من قبل عن نادر الخيالي، والذي قابلته في المطعم. هل تذكر؟".

حكّ ذقنه كمن يستجمع ذاكرته المبعثرة بطريقته الغريبة هذه:

"أعتقد هذا. يوم اتهمتني بأني أحمق، وتركتِ المطعم غاضبة، قبل أن تكتشفي أنكِ كنتِ تكلمين سرابا".

أشرتُ إلى الصورة:

"إنه هو نفس الشخص".

قال بدهشة:

"نادر الخيالي؟".

قلتُ بسعادة:

"نعم. يبدو أنه بعد كل شيء ليس خياليا".

ثم أغمضتُ عينيّ شاردة:

"لا تتصور فرحتي عندما عرفت من ذلك الظل الوغد أنه ليس نادر، وأنه ينتحل شخصيته فحسب".

وجلستُ، وقد عجزتْ ساقاي عن حملي:

"هل من الممكن أن يكون قد قتله فعلا، أم أنه يتلاعب بي؟".

قال أمجد بضيق:

"أري ألا نتسرع في الاستنتاجات يا سامية. لدينا الآن ما هو أهم من مسألة نادر هذا. ثمة مجنون يترصدنا، ويتحرك حسب أجندة مجهولة بالنسبة لنا".

"أشعر بالحيرة يا أمجد. أكادُ أُجنُّ حرفيًا، ولا ينقصني الجنون كما تعلم. لماذا هناك لغز عملاق يحيط بنادر؟ ألا يمكن أن أحب شخصا بدون تعقيدان، بدون ألغاز، بدون ألم؟".

"مرة أخرى يا سمية؛ هذا ليس وقت التساؤل. هناك أولوية أمامنا تتطلب أن نوليها الاهتمام".

كان على حق. لكن هذا لم يمنع من أن قلبي كان يأكلني حرفيا من القلق والخوف والحيرة. خطرتْ لي فكرة. نهضتُ بحماس، وبدأتُ أبحث في مقتيات الفيلا.

"ماذا تفعلين؟".

"اريد معرفة المزيد من المعلومات، من المعرفة".

أرجو ألا تكون المعرفة المحرمة التي نندم بعد أن ننالها. لكن كيف أري نادر الخيالي ثم أكتشف بعد ذلك أنه فعلا نادر، وأنا لم أقابله من قبل؟

لكن: هل أنا فعلا لم أقابله من قبل؟

لغز جديد يُضاف إلى سلسلة الألغاز المحيطة بي كسور عالٍ يصعب تسلقه.

اقشعر جسدي لذلك الخاطر. كنت قد وصلت إلى ركن آخر من الفيلا، يقع في طرف بعيد عن مرورنا به، وهنالك وجدت تلك الصورة الملقاة بإهمال على الأرض، وكانت تختلف بحجمها الصغير عن صورة نادر نفسها الكبيرة. أطلقتُ صرخة من حلقي فور أن وقعتْ عيناي على الصورة. وثب أمجد نحوي فزعا:

"ماذا حدث؟".

أشرت للصورة. نظر إلى حيث أنظر؛ وهنا وجدته يحك ذقنه، وكأنه يفكر في تلك المعلومة الجديدة، المعلومة التي قد تغير كل شيء عن ذي قبل.

الصورة كانت تحمل وجوه أربعة أشخاص: ثلاثة رجال وامرأة.

المرأة لا أعرفها، وإن بدت ملامحها مألوفة نوعا، بينما الثلاثة أعرفهم: نادر، وحامد، وتامر!

***

جلسنا والصمت يحلق من جديد بأجنحته فوقنا، ويمزق حُجب الصمت، مذكرًا إياي بلقائي الأول بأمجد، حينما أتى مع والديه لخطبتي، وها نحن ذا نخوض مغامرة عنيفة لو أخبرني أحدٌ من قبل أني سأمرُّ بها لاتهمته بالجنون.

كنتُ أمسك الصورة بيدي، وأنا أُمرِّر أصابعي على نادر تحديدا، بينما أمجد يتجه نحوي حاملا قدحي نسكافيه، يتصاعد منهما البخار ذي الرائحة المحببة. ناولني القدح، فأومأتُ برأسي شاكرة.

بعد أول رشفة من النسكافيه، والذي كان لذيذا، قلتُ:

"تساؤلات، تساؤلات!".

وأشرتُ للصورة:

"ما الذي جمَّع الشامي مع المغربي؟".

ارتشف من قدحه رشفة بدوره ولم يتكلم بكلمة، وإن بدا الاهتمام على وجهه. راق لي هذا. أمجد مستمع جيد، وهي صفة-لو علمتِ-عظيمة في الرجال.

تابعتُ:

"تامر خطيب مروة، قد يكون من المنطقي أنه يعرف حامد، الذي خطف هذه الأخيرة من قبل بحكم وجودهما في مكانٍ واحدٍ، بعد أن جُنَّ بحبها، لكن ما دخل نادر بهما؟".

قال أمجد:

"من الواضح أن نادر هذا تتساقط علامات الاستفهام منه حيثما حلّ".

وابتسم بفتور:

"من أحببتِ بالضبط؟".

"هل تغار؟".

هزّ كتفيه بلامبالاة، أو ما بدا لي أنه كذلك. لكنه على حق. من هو ذلك الشخص الذي أحببته؟ لماذا يُحيط به كل هذا الغموض المستفز.

"أنا مُتعب".

قالها أمجد، وهو يُريح رأسه على مسند المقعد. أشفقتُ عليه. لقد مضت ربع ساعة تقريبا منذ رأيتُ الصورة. كان من المفترض أن نغادر الفيلا بسرعة، قبل أن يعود الظل، لكن قوة المفاجأة، وما شعرتُ به من تثاقل ساقيّ جعل التحرك صعبا.

سألته:

"ماذا سنفعل الآن؟".

"نستريح طبعا. لقد كان اليوم طويلا، ونحتاج للراحة، وإلا فلن نُكمل رحلة الجنون هذه".

ابتسمتُ ولم أُعلق بكلمة. حدث هذا لثانيتين فقط، لكن بعدها وجدتُ نفسي أقول بعفوية:

"أنا ممتنة لوجودك يا أمجد حقا".

أشرق وجهه بأمل:

"هل معنى هذا أنكِ في سبيلكِ أن تحبيني؟".

ضحكتُ:

"ألم تيأس؟".

قال وهو ينهض:

"أبدا".

احمرّ وجهي من الخجل. تحب الفتاة هذا في الرجل.

أليس كذلك يا مفكرتي العزيزة؟

طبعًا لم أنس أن آخذ هاتفي المحمول الذى تركته على المنضدة، قبل أن يكشف الظل عن وجهه القبيح، وهو يخدرني ويضعنى في التابوت. كان الهاتف مطفأ؛ فحاولتُ تشغيله؛ لكن بطاريته كانت تحتاج للشحن من جديد. تذكرتُ أن مرشر الشحن الضعيف قبل أن أدخل الفيلا هنا مع نادر، أو مع من ظننته هو.

غادرنا الفيلا، واستقللنا سيارة أمجد التي وقعتُ في غرامها. لا، لا تقولي أنى في سبيلي لحب صاحبها. هذان أمران مختلفان كما تعلمين، وخاصة أن هناك أملٌ في وجود نادر نفسه؛ فمن الجميل أن أعرف أنى لم أحب طيفًا بعد كل شيء. تقولين أن الظل يقول بأن نادر هو من قتله؟ هل تصدقيننى لو أخبرتكِ بأني أشعر بأن نادر على قيد الحياة؟

كنتُ أشعر بالتعب والإعياء، وكأن كل هذه الأسئلة المتلاطمة أرهقتْ عقلي، وضغطتْ عليه بقوة لطلب قسط من الراحة. وغفوتْ.

استيقظتُ فجأة برعب، ونظرت حولي؛ وكان الظلام يحيط بي، بينما أمجد يقود السيارة بانتباه بالغ. ابتسم حين رآني أستيقظ:

"أشرقي".

مسحتُ وجهي:

"ألم نصل بعد؟".

"اقتربنا".

"هل هذا المكان خاص بأحد أصدقاءك الموثوق فيهم؟".

قال ببساطة:

"بل هو ملكي".

قلت بدهشة:

"وكيف لم تعرفه والدتك؟".

"لم تكن تعرفه من قبل".

أرمقه باستغراب. لم أفهم تصرفه هذا. ربما هي شقة بسيطة كان يقضي فيها وقته بعيدا عن الفيلا. نوع من الخلوة، أو البحث عن السلام الداخلي. أستبعد أن يكون أمجد ممن يتخذون شققا خفية لتحويلها لوكر ملذات. وصلنا العمارة؛ لتتحطم ظنونى هذه. العمارة فاخرة فعلا، ومستوى الرقي فيها ينبيء بأنها غالية الثمن. وتأكد هذا عندما ضغط الجرس، وأتى صوت والدة أمجد المميز، والذي كان متشككًا ينضح بالحذر:

"من؟".

"أمجد يا أمى".

فتحتْ أم أمجد الباب، وأخذته في حضنها. وكانت أمي وراءها ففعلت المثل. كانت دقيقة من الدفء العائلي اللطيف، وبعدها جلسنا، مع كومة من الأسئلة التي لم نجب معظمها. كان أبرزها من والد أمجد الذي قال بضيق:

"لم تخبرنا أنك تملك هذه الشقة من قبل يا أمجد".

"لم تأت فرصة لذكر ذلك يا أبي".

أشار أبوه لمحتويات الشقة الفاخرة وقال:

"أعتقد أن ثمنها يتجاوز النصف مليون".

ابتسم أمجد وقال بذات البساطة المستفزة، وكأنه يلقى بخبر بسيط:

"بل مليون إلا ربع، وكان هذا منذ عامين. ثمنها الآن يقترب من ضعف هذا المبلغ".

شهقت أمه، ولها الحق في ذلك. صحيح أنهما تعيش في فيلا، وتبدو فى مستوى فخيم هي وزوجها، لكن هذه المعلومة-كما رأيتُ أمامي-كانت مدهشة بالنسبة لهما. هذا جانب لا أعرفه في علاقة أمجد بأسرته التي يشوبها بعض الغموض، وفي أمجد ذاته.

تثاءب أمجد:

"لقد كان يوما طويلا. طويلا جدا".

وافقته بإيماءة من رأسى؛ برغم علمي أنه يتهرب من فضولهما الكاسح نحو امتلاكه كل هذا الكمّ من المال الذي يمكنه من شراء شقة كهذه.

كانت حجرتى لطيفة برغم صغر حجمها، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أغطُّ في نومٍ عميق. عندما صحوتُ نظرتُ حولي في ذعر، متساءلة عما أتى بي إلى هنا، لكن الذكريات بدأت تناسب إلىّ بنعومة. هرشتُ شعري، وأنا أغادر الحجرة بعفوية، وهنا شعرت بحرج حقيقي وقد وجدتهم قد صحوا جميعا وهم في كامل نشاطهم؛ مما جعلني اتمتم:

"معذرة".

ثم عدت لحجرتي بسرعة، ولم تمض ربع ساعة حتى عدتُ مرة أخرى إليهم. تحاشيت نظراتهم، بينما ابتسامة خبيثة مقيتة على شفتي أمجد، الذي كان خلف مطبخه الأمريكي. ماذا يفعل هناك؟ لا أعرف كيف يتصرف هذا البشرى عموما؛ فلأرح نفسي من مؤنة السؤال. لكنى لو

جلستُ فساكون في مرمى سهامهم، وسوف يسألوننى عما حدث بالأمس، وأنا غير مستعدة حقيقة لسرد ما حدث؛ إذ أني نفسي حائرة، وفي" حيص بيص"، ناهيكِ على أن الكثير مما حدث لا أفهمه، ثم سأضطر بالتبعية للتكلم عن نادر، وهو أمر لم أحبه.

تنفستُ الصعداء وأنا أقف بجوار أمجد في المطبخ. كان يرتدي المريولة، وهو أمام الأواني يتذوق هذا، ويضيف ملحا لذاك.

"لم أكن أعلم أنك تعرف الطهو".

"في عالمٍ موازٍ سأكون شيفًا يقدم برنامجه الخاص لربات البيوت".

ضحكتُ، ويبدو أن ضحكتى كانت عالية؛ فقد استدارتْ أعناق الجالسين نحوي، وابتسامة خبيثة على شفتى والدتي، وهي تتبادل نظرة خاصة- لم يغب مغزاها عني- مع والدة أمجد. لا بد أنهم يقولون الآن" ما جمَّع إلا لما وفق".

"يبدو أن هناك العديد من علامات الاستفهام بخصوصك يا أخ أمجد".

قلتها وأنا أتذوق الحساء بملعقة؛ لأعرف أية مصيبة سأتناولها من يديه. قال بوقار:

"انا شخص مليء بالأسرار يا عزيزتى. لا يغرنكِ كرشي الصغير، وصلعتي اللامعة".

لولا وجود الحساء في فمي لأطلقتُ ضحكة أخرى، لكن أنا مضطرة للابتعاد عن الشبهات، خصوصا مع الأعين الفضولية المترقبة، وكأن

والدتي تتأهب بحنجرتها لإطلاق زغروطة فرحة. لا تعرف المسكينة أن الموضوع مختلف تماما عما تتصوره.

قال مبتسما:

"أتذكرين عندما دسستِ المكنسة في جنبي".

قلتُ بحرج:

"كنتُ أطفشك".

قال ببساطة:

"أعلم".

"لكنك ظللت ملتصقًا بي مثل صمغ الأمير، وهو شيء يحيرني في الواقع".

ابتسم بسماجة:

"تستطعين القول أني عنيد بعض الشيء".

سألته وأنا أرقب ملامحه عن كثب:

"فقط؟".

"بمعنى؟".

"هل الأمر متعلق بالإصرار فقط، أم أن هناك سببا آخر لخطبتك لي؟".

"يبدو أن الأحداث الأخيرة جعلتكِ تتشككين في كل شيء".

"هل تلومني؟".

لم ينطق بكلمة.واصل عمله كطبّاخ، بينما غرقتُ في تهويماتي الخاصة كالعادة. في محاولة مني لعدم ترك نفسي لتلك العادة المقيتة، سألته:

"بالمناسبة:ما هو العمل الذي يأتي لك بكل هذا الثراء يا أمجد؟".

نظر إلى بصمت. أشرتُ لما حولي بسرعة:

"في البداية كنتُ أظنك من الأثرياء المدللين، لهذا لم أسألك عن عملك، لأنه قد خطر لي أنك لا تحتاج إلى ذلك. لكن الآن يبدو أنك تمتهن عملا، ويبدو أنه يدر ربحا هائلا عليك".

وضع أمامه الخضراوت، وراح يقطعها كأي شيف يعرف عمله، بسرعة واحترافية، وبشكل منتظم؛ مما يؤكد أنه فعل هذا كثيرا من قبل، وقال:

"والدي صاحب شركة كبيرة في الاستيراد والتصدير، وبما أني ابنه الوحيد؛ فقد كان يتمنى أن أكون ذراعه اليمنى في العمل، لكنى رفضت، وهو ما يفسر لك سر هذا الجفاء الذي بيننا. كنتُ أخبره أنى أريد شق طريقي الخاص بعيدا عن ظله".

هززتُ رأسى مبتسمة:

"لن أعيش في جلباب أبي".

أومأ برأسه.

"لم ينفك أن يذكرني بأني سأفشل، وأن الحياة قاسية، وأنى محظوظ؛ فلماذا أتبطر على النعمة وأركلها بقدمى؟".

كان هذا القول مألوفا بالنسبة لي؛ فقد كان يفعلونه عندما يتقدم كل عريس لي. نحن متشابهان إذن!

"لكنى رفضتُ ذلك، وقررت مزاولة عملي الخاص، ويبدو أنى قد حققت نجاحا مبهرا".

"جميل. ما هو عملك الخاص هذا؟".

فتح فمه ليجيب أو ليتكلم عموما، لا أعرف، عندما أتى صوت أبي أمجد المدوى:

"تعاليا هنا بسرعة".

بان القلق على ملامح أمجد، بينما هرعت أنا إليه. كانوا يجلسون أمام شاشة التليفزيون الكبيرة التي تحتل ربع الحائط، وكان هناك مذيعا يتحدث عن جريمة قتل بشعة حدثت في فيلا أحد الأثرياء. ثم ظهر وجه مألوف. كان تامر نفسه الذي صار زوج مروة، والذي قال بحزن:

"لقد وجدت حمايَ مقتولا في مكتبه، وأعرف جيدا من قتله: سامية رمضان، وأمجد سعيد".

***

الفصل الثالث عشر

مفكرتي العزيزة...

كانت هذه لحظة مميزة جدا في حياتي، لكن ليس على الجانب الإيجابي للأسف، لحظة مشحونة بالتوتر والحيرة والخوف وعدم الفهم والتوجس والغضب، ضعي كل هذا في الخلاط ستخرج لكِ لحظة كتلك التي أشرتُ إليها سابقا، وقد استمرتْ لدقيقة ثم انفجر الأب.

تكلم كثيرا عن إهمال ابنه، وعن عدم تحمله للمسئولية، لكنى كنتُ أعرف ان السبب الحقيقي لغضب الأب أن ابنه يمتلك جانبا لا يعرف شيئا عنه. هذا يُشعره نوعا بالمهانة. التزم أمجد الصمت، حتى ترك والده يُفرغ شحنة الغضب هذه، وبينما كان وجهه الأحمر يميل للوردي الفاتح، توطئة لأن يستعيد لونه الطبيعي، كانت زوجته تعد له عصيرا؛ إذ أنه كلمة السر في شخص مثله.

قال أمجد:

"الغريب يا أبي أنك لم تسألنى إن كنتُ قد ارتكبتُ هذه الجريمة أم لا".

"بالطبع لم تفعل؛ فأنت لستَ قاتلا".

ابتسم أمجد بتأثر للحظة.

قال أبو أمجد:

"الغريب أننا كنا فى هذا الزفاف بالأمس".

هتف أمجد مندهشا:

"ماذا؟"

قال أبو أمجد وهو يلوح بيده:

"أبو مروة رجل أعمال شهير، وأعرفه بشكل سطحي، وهو دعاني كما دعا الكثيرين من رجال الأعمال".

سألته:

"ألم تلاحظ شيئا غريبا؟".

"مطلقا. كان أبو مروة طبيعيا فى تعامله، والليلة لطيفة".

قالت أمى:

"ما عدا أن مروة المسكينة لم تكن سعيدة، بل كانت أقرب إلى الحزن".

قالت أم أمجد:

"لاحظنا هذا بوضوح".

انتحيتُ بأمجد جانبا في ركن الصالة، ونحن نتكلم همسا. في الحقيقة بدا من العيون المرتابة حولنا، أنهم لم يعودوا مستبشرين بتوطد العلاقة بيننا. الآن تأكدوا بأن اجتماعنا لا ينتج عنه إلا الكوارث فقط، والدليل الموقف السخيف الذي نحن فيه.

"إذا كان هذا قصد الوغد بأن تلك الجريمة متعلقة بنا؟".

قال أمجد:

"لا تنسى أن الشاهد الوحيد هنا ذللك الوغد تامر. كان عندي حق أنى لم أسترح إليه فور أن رأيته، وأنت حسبتنى أغار منه".

قلت متوترة:

"ماذا سنفعل الآن؟".

"نعرف أين تكمن الحقيقة. ما الذي دفع ذلك الكذاب تامر لكي يتهمنا في تلك الجريمة ونحن لم نرتكبها؟ ما مصلحته؟".

"أتظن أننا لو سألناه سيجيب هذا ببساطة؟".

سألته بعصبية، وقد علا صوتى قليلا. ألقى نظرة على الجمع الذي يراقبنا بصمت، ثم قال وهو يهمس:

"اخفضي صوك. من المهم أن نبدو متماسكين".

تنهدتُ بتوتر. إنه على حق. خطرت ببالى فكرة. قلت بحماس يناقض عصبيى منذ لحظات:

"يمكن أن تساعدنا مروة في ذلك".

قال بحذر:

"مروة؟".

"نعم".

"لاحظى أن من مات هو أبوها. ما الذي يجعلك تظنين أنها ستوافق على مقابلتنا أصلا؟".

"ليس أمامنا سوى المحاولة".

***

مكثتُ ثلاثة أيام في شقة أمجد قبل أن نغادر العمارة؛ إذ أنه لن يكون من اللائق أن نطلب مقابلة مروة وهي تدفن والدها. كنتُ قد شحنت هاتفي المحمول قبل أن نترك الشقة مباشرة، بل وقمتُ بأخذ بطارية احتياطية، وتوجهنا إلى السيارة المركونة في موقف قريب من السيارة؛ لذا اضطررنا لأخذ طريق فرعي قصير، لكن صوت سرينة سيارات

الشرطة صكّ مسامعنا. طبعا شعرتُ بالرعب، ونحن نختبئ خلف شجرة عملاقة تفصل بين الشارع الرئيسي والفرعي.

قلت:

"هل هم هنا من أجلنا؟".

قال متحيرا:

"لا أظن. فحسب معلوماتي لا أحد من أسرتينا قد باح بعنوان الشقة لأحد. لا بد أنهم قادمون من أجل شخص آخر يقطن في العمارة. إن شقتي ليست الوحيدة المأهولة بالبشر".

"أرجو أن تكون على حق".

"وأنا كذلك" .

وركبنا سيارته، واتجهنا إلى مطعم راق في المنيل، كنتُ أذهب إليه وحيدة بعد أن أخرج من صالة السينما، عندما يصدر فيلم جديد أنتظر نزوله. كان على أمجد أن يتخذ طرقا جانبية، حتى نصل للعنوان.

سألني أمجد ونحن نقترب من المطعم:

"لكن لماذا هذا المكان؟".

"حتى يتسنى لنا الهروب، لو قامت مروة بإبلاغ الشرطة. وجودنا في مكان مزدحم يختلف عن وجودنا في مكان خالٍ".

لمعت عيناه فيما بدا لي أنه إعجاب؛ مما أشعرني بالخجل. أنا نفسي مندهشة من نفسي. كيف أكون متهمة بجريمة قتل، ومطاردة من الشرطة، ومن قاتل مختل، وأكون على هذه الدرجة من الثبات الانفعالي، وعقلي يعمل كما يجب؟ هل بدأت لعنة العته تزول عني؟

ويبدو أن الجلالة قد أخذتني؛ فقد قلت لأمجد قبل أن نتوقف أمام المطعم:

"لا أريدك أن تجلس معنا. أريد تكليفك بمهمة أخرى".

***

مفكرتي العزيزة....

كنتُ جالسة، دافنة وجهي في قائمة الطعام، وأنا أرجو ألا يُصاب أحدهم بنوبة ذكاء تجعله يلاحظ وجهي. أتذكر تلك الواقعة لمذيع أمريكي كان يستوقف المارة، ويعرض عليهم صورة رجل، ويسألهم إن كانوا قد رأوا تلك الصورة من قبل. الغالبية (إن لم يكن كلهم، لا أتذكر) أنكروا أنهم رأوا صاحبها من قبل. كما توقعتِ؛ فصاحب الصورة هو المذيع نفسه!

كيف يمكننا أن نرى لكن دون أن ننظر، أو ننظر دون أن نلاحظ؟

تعلقت عيناي فجأة بباب المطعم. كانت مروة، التي كانت ترتدى ثياب الحداد، ونظارة سوداء، وتتلفتْ حولها في توتر، يُمكن فهمه بما أنها ذاهبة لرؤية من قتلت والدها!

رفعتُ يدي ألوّح بها؛ فانتبهت لي، وتقدمت نحوي، وهي تقدم قدما وتؤخر أخرى.

جلستْ، ثم خلعت نظارتها. عيناها حمراوين. شعرتُ بالشفقة عليها. تمتمتُ ببعض كلمات التعزية والمواساة؛ فردت بما يشابهها. في الواقع كانت همهمات غير مفهومة من كلينا، لكنها أدت الغرض منها.

"لماذا طلبتِ مقابلتي؟".

سألتنى مروة وهي تنظر حولها بتوجس. قلت وأنا أحدق في عينيها بثبات:

"لابد أن تعرفي أنى بريئة من دم والدك، وأن ما يقوله تامر هذا...".

قاطعتنى بصوت منخفض:

"أعلم".

حدقت في وجهها:

"تعلمين؟".

"لو لم أكن واثقة من براءتك؛ لم أكن لأحضر لمقابلتك".

"لكن لماذا أنتِ متأكدة من أن زوجكِ كذاب؟ لماذا فى الأصل قد تزوجته ما دام هو كذلك؟".

لوحدت بيدها باستسلام:

"كان والدي يريد الاطمئنان علىّ، وهو يثق في تامر منذ زمنٍ بعيدٍ، منذ كان مجرد موظف صغير لديه في شركته منذ خمس سنوات، وحتى صعد بسرعة الصاروخ للقمة".

"لقد كان الفقيد لا يتمتع باختيار الرجال المناسبين فيما يبدو".

قال بمرارة:

"لقد تغير كثيرًا بعد رحيلها".

قلتُ باهتمام:

"منْ؟".

"مايسة".

نطقتْ مروة الاسم الأخير بصوت منخفض ملآن بالتأثر؛ مما أصابني ذلك برهبة، جعلتني ألتزم الصمت دون حتى أن أسأل.

"مايسة هي شقيقتي الكبرى، وقد توفيت في حادث سيارة أليم بعد أن تعطلت فرامل سيارتها".

يا للهول!

"أنا آسفة يا مروة؛ فلم أكن أقصد..."

قاطعتني وهي تبتسم وتلوح بيدها وتمسح دموعها، كل هذا في حركات متوالية:

"لا عليكِ. أنتِ لم تذكريني إياها؛ فأنا لم أنسها بعد. للأسف لم نكن مقربتين من بعضنا البعض، وإن كنتُ متأكدة أنها كانت تحبني فعلا. كانت مايسة شعلة نشاط، وكانت تعمل سكرتيرة لأبي. كان من الممكن أن تأخذ المنصب الذي تريده، إلا أنها رفضت ذلك، وقررت أن تعمل بجد واجتهاد حتى تستحق مكانتها".

"يبدو أن شخصية كانت متميزة".

"إلى أقصى حدٍ، وبينما كنتُ أقضي وقتي في النوادي وفي السفر، والتسوق، كانت هي تعيش في عالم آخر من الجدية والالتزام. أعتقد أن أغلب من عملوا في الشركة وقعوا في غرامها، حتى تامر نفسه".

كدتُ اقفز من مقعدي وأنا أصرخ:

"ماذا؟".

كان صوتي عاليا لدرجة أن بعض الجالسين رمقوني في ضيق، ولسان حالهم يقول ماذا دها هذه المعتوهة؟

أومأت مروة برأسها:

"هو ذاك. كان واقعا في غرامها".

"ومع ذلك تزوجته؟".

"لقد رأيته بعد أن ماتت مايسة، وقد طالت ذقنه، وشحب لونه، ونحل حتى كاد جسده يتلاشى من الحزن. في تلك اللحظة حسدتُ مايسة على أنها تنال كل هذا الحب. أؤكد لكِ أنى لستُ حقودة، وأن لديّ رضا عن نفسي يحميني من مقارنة نفسي بأي أحد، لكن للحظة تمنيتُ أن يحبني شخصٌ بتلك الدرجة".

"لقد أحبكِ حامد أكثر من ذلك، ومع هذا فقد رفضته".

"حقا لا أعرف، برغم توافر الحب في الاثنين، أو هذا ما ظننته".

قلت بإشفاق:

"هل تشكين في مقدار حب حامد لكِ، أو في وجود الحب أصلا؟".

"بل أشك في حبّ تامر لي. لقد وافقتُ وقلت نعم فى لحظة اضطراب، وها أنا ذا أدفع الثمن. هناك شيء مرعب بدا يُفصح عن نفسه خلف عينيه".

"كثيرات يتعرضن لهذا، لكن....".

قالت مروة بعصبية:

"أوكد لكِ أن الأمر ليس كذلك. إنه يخيفني".

قلتُ بعد لحظة:

"بعد أن رأيتُ تامر لأول مرة قال أمجد ملاحظة بدت لي غيرة في وقتها، أنه لا يستريح إليه".

قالت مروة وابتسامة شاحبة تجد طريقها لشفتيها:

"كيف حاله؟ وأين هو؟".

"إنه ينفذ مهمة من أجلي".

"إنه يحبكِ بالمناسبة".

احمرّ وجهي:

"لماذا تقولين هذا؟".

"أي شخص يرى كيف ينظر إليكِ سيعرف ذلك على الفور. بيت الشعر يقول" الصبُّ تفضحه عيونه". هذا صحيح تماما".

في محاولة مني للهروب من ذلك الفخ السخيف قلتُ:

"ربما كان مزيفا مثل تامر".

"لا، الأمر مختلف".

كنتُ أعلم-يا مفكرتي العزيزة-أنها على حق. لا توجد مقارنة بين أمجد وتامر أصلا. تامر توجد عتمة بداخله، ظل كاسح يجذب الضوء، وربما يُعجب هذا بعض الفتيات؛ ممن ينجذبن لتلك الشخصيات المظلمة. لكن أمجد واضح وضوح الشمس، صحيح أنه يدهشني في بعض التصرفات، لكنه يظل كتابا مفتوحا.

"نعود لموضوعنا: لماذا أنتِ متأكدة أننا لم نقتل والدك؟".

"لأني أول من رأيتُ جثته بعد موته".

***

سألتها كمن أتحقق من قولها:

"ماذا؟".

"كنتُ في حجرتي عندما وجدتُ رسالة على الواتساب من أبي يخبرني فيها أنه يموت! هكذا جريت مسرعة كالمجنونة وأنا أولول، ووجدته ينازع بعد أن اخترقت رصاصة موضع القلب. لم يمت أبي لفوره؛ مما سمح له بإرسال الرسالة. ثم فارق الحياة دون أن ينطق بكلمة".

"لا بد أن الموقف كان صعبا عليكِ".

"هذا صحيح. لقد انقلبت معدتى، وجاءتنى نوبة قيء حادة، جعلتنى أهرع لحمام أبي الخاص، وأُفرغ ما في جوفي".

"لماذا أنتِ واثقة من براءة كلينا؟".

"لأن تامر نفسه قال بعد ذلك أنه دخل على المكتب ورآكما ترتكبان الجريمة، ثم تهربان من النافذة المفتوحة، وأنه أراد طلب الإسعاف لكن السر الإلهي خرج قبل أن يتحرك. فكيف تتوافق روايتي مع روايته؟".

قلت بغيظ:

"ذلك الكذاب! لكن لماذا يفعل ذلك؟".

"علمي علمك".

"ولماذا لم تقولي الحقيقة؟".

"لقد أخبرتُ تامر بكذبه هذا في المقبرة فمال نحوي، وقال أننى لو نطقتُ بكلمة فسوف ألحق بأبي، وسيلحق به حامد أيضا".

سرتْ قشعريرى في جسدي. ما ذلك الوحش الذي تزوجته؟ إنه يهددها صراحة بالموت!

قالت مروة بحزن:

" لستُ العضو الأقوي في هذه العائلة. أنا ضعيفة. كان أبي يفاخر بقوة شخصية مايسة، ويجهزها لكي تكون خليفته من بعده في سلسلة شركاته. أما أنا فكنت على العكس لا أصلح لأي شيء".

انتبهتُ لنقطة ما في حديثها:

"ما دخل حامد في الأمر؟".

"لقد توسلتُ لأبي أن يستخدم علاقاته في إخراج حامد من مأزق اختطافي. إنه مسكين دفعه العشق لفعل تصرف مجنون، وبرغم أنه آذاني نفسيا، لكنى متفهمة جدا جنونه بي. وربما كنتُ أحب جنونه هذا".

"وأين حامد الآن؟".

"إنه في مستشفى خاصة.أخبرني بأن أحدهم ساعده على العلاج، وطلب منى ألا أعطي عنوانه لأحد".

"تعرفين طبعا بأن حامد وتامر كانا يعرفان بعضهما البعض؟".

"بالطبع. كان يعملان في نفس الشركة".

أخرجت الصورة الصغيرة وناولتها لمروة التى قالت وعيناها تبرق بتأثر:

"هذه مايسة شقيقتى الكبري ومعها تامر وحامد ونادر".

إذن فهذه هي مايسة؟ لهذا بدت ملامحها مألوفة؛ ففيها بعض التشابه من وجه مروة.

قلت وقلبي يخفق:

"تعرفين نادر إذن؟".

"بالطبع؛ فقد كان الرجل الذي ظفر بقلب مايسة؛ أحبها وأحبته".

***

طعنة جديد تُضاف إلى الطعنات التي تتوالى عليّ. إلى متى يمكن لقلبي أن يحتمل ذلك ؟ لكن كان عليِّ أتظاهر بالقوة.

"إذن فهي حبيبته؟ كانا متفقين على الزواج إذن".

قالت بحزن:

"هذا صحيح. لكن أتى الموت وحرمهما من ذلك".

إذن هذا يفسر الحزن الذي كان في حديث نادر عندما كنا نتحدث بالساعات. كان قلبه معلقٌ بأخرى، يحرقه الغياب، ويؤلمه الفقد.

"لكن ليست لديك تفاصيل عن تلك العلاقة".

"ربما يعرف حامد أكثر منى؛ فقد كان لصيقا بهما في الشركة، قبل أن يغيّر مساره، ويعمل بالمسرح".

"أعطنى عنوان المستشفى".

قالت بتردد:

"لكنى أعطيته كلمة بأني...".

"لا تقلقى. سرك فيه بئر عميق. لكن بما أنكِ لن تتفوهى بكلمة تبرأنا من هذا الاتهام؛ فأنا مضطرة للبحث عن طرق أخرى لإثبات براءتي أنا وأمجد".

بدا عليها التفكير، ثم أخرجتْ ورقة صغيرة من حقيبتها ودونت عليها العنوان الذي ألقيتُ عليه نظرة سريعة.

كانت جلستنا بجوار النافذة الزجاجية التي تكشف الشارع وما يحدث فيه بوضوح. لذا عندما وجدتُ سيارتي الشرطة اللتين تقتربان انتصبتْ قرون الاستشعار في مقدمة رأسي. لقد عرفتْ الشرطة بمكاننا.

***

الفصل الرابع عشر

مفكرتي العزيزة...

نظرتُ إلى مروة بلوم:

"لقد أخبرتِ الشرطة بمكاننا".

قالت بذعر:

"لم أفعل. صدقيني لم أفعل".

"كيف عرفت الشرطة بمكاننا إذن؟".

"لا أعرف. أنا لم أخبر أحدا. ثم إني لو أردتُ فضحَ مكانكِ لم أكن لأجلس هكذا معكِ، وأُدلى بكل ما أعرفه لكِ".

كانت على حق. قلت بتوتر:

"ربما أرسل زوجكِ الوغد من يسير خلفك ويتتبعك".

"لن أستبعد هذا".

نهضتُ من مكاني بسرعة، في نفس اللحظة التي دخل فيها رجلا شرطة من الباب الرئيسي للمطعم، والذي كان له أكثر من مدخل، وفجأة دوت سرينة إنذار الحريق في المطعم، وبان الذعر في العيون، وراح رواد المكان يتدافعون للخارج، وكنتُ من ضمنهم طبعا، وفى الزحام شعرتُ بيد تمسك بذراعي. وبحركة تلقائية وجدتني أدفع بكوعي في بطن صاحب اليد، والذي أطلق أنة ألم، لكنه لم يسقط أرضا؛ فقط قال بغيظ:

"منذ قابلتكِ وأنتِ لا تكفين عن إيذائي".

كان هو أمجد؛ فقلت معتذرة:

"كنتُ أظنك...".

قاطعني:

"صدق حدسكِ إذن؛ فقد أبلغتْ مروة الشرطة. كانت فكرة ذكية أن تجعليني أطلق إنذار الحريق في حالة رؤيتي للشرطة".

"لا أظنها أبلغتهم. ربما كان زوجها يُرسل خلفها من يتتبعها".

"ربما".

فجأة ظهر ضابط شرطة يصرخ:

"اثبتا في مكانيكما".

كان صوته جهوريًا لفت إليه أنظار الحاضرين، وطبعًا مجموعة من العساكر اقتربوا منا وهم يركضون في أزيائهم الرسمية. من حسن الحظ أن سيارة أمجد كانت بالقرب منا؛ فقد قفزنا إليها، وانطلق أمجد في نهر الطريق، وهو يحاذر أن يصدم هذا أو ذاك. برغم ثباتي الانفعالي الذي حدثتكِ عنه سابقًا، إلا إني في تلك اللحظة كنت مرعوبة، وقلبي لا يكفّ عن الدقّ بسرعة، وأنا أتساءل: أية ورطة تلك التي غصتُ فيها حتى النخاع؟ كيف تعقدت الأمور لتلك الدرجة؟ كانت سيارة الشرطة تنطلق خلفنا، ولا بد أن المارة كانوا مستمتعين بذلك المشهد الذي قلما يرونه، إلا في الأفلام الأمريكية طبعا.

"ماذا سنفعل؟".

سألتُ أمجد؛ فقال وعينه على الطريق أمامه، وعلى المرآة التي تنقل إليه ما يحدث في الخلف:

"المهم أن نخرج إلى الدائري. هذا سيتيح لنا فرصة أكبر في المناورة والاختفاء".

"بسيارتك العجوز هذه؟ لا أظن".

"سيارتي هذه كان لها الفضل في إخراجنا من مواقف سخيفة من قبل. لماذا تنسين هذا دوما؟".

لم أجادله. فقد كان على حق.

"هل أخبرتكِ مروة بشيء مفيد".

"أخبرتني عن مكان حامد".

"ذلك المختل؟".

قلتُ وأنا أرقب سيارة الشرطة التي تقترب أكثر:

"من المهم أن نعرف منه تفاصيل أكثر عن نادر".

"لا أعرف لماذا تُعطى هذا الأمر أكثر من أهميته؟".

"تقصد نادر؟".

"ومن غيره؟ أعتقد أن مشكلتك الحقيقية تكمن وجود ذلك الشخص في حياتك، وفى عدم وجوده في نفس الوقت".

"ربما. لكن من المهم أن أعرف الحقيقة".

"ليست الحقيقة مهمة أو مطلوبة في كل الأحوال. ربما يكون الجهل نعمة كما قال ذلك الخائن في فيلم The Matrix".

"حتى لو كان كذلك، لكنى أريد معرفتها".

سيارة الشرطة تقترب أكثر. وفجأة انحرف أمجد للدائري، وزاد من سرعته، وهو يناور هنا وهناك، وساعد على هذا صغر حجم سيارته،

وللعجب الشديد كانت سيارته تناور بكفاءة عظيمة تخالف منظرها المتهالك.

في النهاية صرنا غير مراقبين أو مطاردين. حسنا. لقد كنا مخطئين؛ فقد برزت سيارة أخرى، وتعرفت فيها على وجه الظلّ المقيت وهو يقودها مبتسما!

***

ألا توجد طريقة للقضاء على هذا الوغد؟ هكذا قلتُ لنفسي، بينما هو يقترب من سيارتنا بسرعة ساعده عليها طرازها الحديث، وإمكانياتها العالية.

قال أمجد بغيظ:

"كيف توصل إلينا؟".

"ربما كان يراقبنا منذ البداية".

نظر إليّ، كمن يريد معرفة ما الذي أقصده. اقترب الظل أكثر وراح يحتكّ بسيارتنا، وابتسامته العابثة تتسع كأنه مستمتع بما يفعله. لكن أمجد كان يناور بحرفنة يُحسد عليها. لكن ماذا تفعل الحرفنة أمام ذلك المسدس الضخم الذي أخرجه الظل وأطلقه علينا. انحرف أمجد مجددا، وهو يتحرك بطريقة عشوائية، وهو يحاول الإفلات من مراقبة الظل اللصيقة بينما الرصاصات تتناثر حولنا. هل كان حظا حسنا، أم أن الوغد كان يتسلى بإرعابنا حتى الموت؟ يبدو أنه ملَّ وأراد وضع نهاية لتلك المطاردة؛ فصوب مسدسه ناحية عجلات سيارتنا، وفجر إحداها.

هنا انحرفنا بشدة، ولولا سيطرة أمجد الفولاذية على مقود السيارة لهوينا من أعلى الطريق إلى النيل.

تباطأ أمجد على الرغم منه، في نفس اللحظة التي ظهرت فيها سيارة شرطة جديدة؛ لتعرف ما هو خطب هؤلاء المجانين الذين يطاردون بعضهم البعض على الدائري. بطبيعة الحال توقف الظل عن مطاردتنا.

" لدي فكرة".

قالها أمجد وهو ينظر إليّ.

"ماذا؟".

"سنقفز من السيارة الآن".

صرختُ بفزع:

"هل جننت؟".

"الحل الوحيد أن تظن الشرطة وذلك المجنون الظل أننا متنا أو على الأقل تعرضنا لحادث مميت، حتى يعطونا فرصة لالتقاط أنفاسنا".

كانت فكرة منطقية، وإن كنتُ مرتعبة من فكرة إلقاء نفسي من سيارة منطلقة على الدائري. هذا يفلح في على شاشة الدراما، لكن ماذا عن الواقع؟

"هل لك قلب حتى تفعل هذا في سيارتك الحبيبة؟".

عضّ شفتيه:

"المضطر يركب الصعب. وفى حالتنا تلك نحن مضطران للاستغناء عن السيارة التي نركبها".

مدَّ أمجد يده وفتح باب السيارة، حيث صارت زاوية تحركنا شبه مخفية عن رجال الشرطة، وحيث سيتمكنون من رؤية السيارة وهي تهوى في النيل، دون أن يدركوا أننا ألقينا بأنفسنا منها قبل سقوطها في الماء. تسارع الأدرينالين في جسدي، وأنا أدمدم بكلمات مذعورة، وأمجد يفعل المثل وهو يفتح باب سيارته أيضا. كانت هناك مئة متر تقريبا تفصلنا عن النيل القابع بأسفل. قال أمجد:

"سأعدُّ حتى الرقم ثلاثة وبعدها نهوى معا. واحد. اثنان.. ثلاثة".

وهويتُ من السيارة، وتدحرج جسدي على الأسفلت حيث شعرتُ بآلام مبرحة، ومن حسنِ حظي أن السقطة كانت بالقرب من حاجز أسمنتي على قارعة الطريق، وهذا ما أتاح لجسدي أن يختبئ خلفه بدون أن يلاحظ أحد. نهضتُ وجسدي يئن، والآلام تعصف برأسي، وسال خيط من الدم من جبهتي؛ فقد ارتطمتْ بحصاة حادة، وأمام عينيّ أمكنني أن أرى السيارة وهي تُحطم جزءًا من الطريق وتهوى إلى النيل. نجحت الخطة إذن. تلفت حولي. أين أمجد؟ وهنا خطر لي خاطر مرعب: ماذا لو لم يسقط أمجد من السيارة قبل أن تهوى سيارته؟

***

الفصل الخامس عشر

مفكرتي العزيزة...

أنا وحيدة. ها أنا ذا مختبئة خلف الجدار الأسمنتي، هناك رجال شرطة، بعض المارة، والكثير من الفزع، ولم يكن أمجد هناك. كلما أردتُ أن أهديء نفسي عن طريق وضع احتمالات مبهجة بأنه نجا، لكنه يختبئ أيضًا؛ يهاجمني اليأس مجددًا بأنه لو نجا لبحث عني، ولو كانت مشقة الطريق تمنعه من الوصول إليَّ؛ لحاول الاتصال هاتفيا. كل الاحتمالات تؤدي إلى سكة أني فقدته، أو في سبيلي لفقده. وهو احتمال مرعب. لم أشعر بنفسي إلا وأنا أبكي، وكأني أشعر باليُتم.

ذكرني هذا بأن أُخرج هاتفي المحمول وأتصلّ بوالدي. سرّني أنهم جميعا بخير، وأنهم يمكثون مع أبي أمجد في فيلته، وقد عينّ الرجل حرسا خاصا، يجوب الفيلا ليل نهار بأعين الصقور، وهكذا فقد انزاح همَّ من فوق عاتقي. كان بودي العودة لمكان سقوط سيارة أمجد-التي سأفتقدها أيضا-وأتبين جلية الأمر، لكن الزحام والجوّ المشحون بالتوتر والترقب يمنعني من تحقيق هذا. إذن عليّ التحرك فورا إلى حيث يوجد حامد.

حامد الذي يحمل في جعبته بعض الإجابات على أسئلتي، أو هذا ما أرجوه. تحركتُ في الاتجاه المضاد، حيث وصلتُ إلى أحد الكباري القديمة، وجلستُ إلى أحد الجدران ألتمسُ بعض الراحة، وأسندتُ

رأسى وأنا أبكى. ما الذي يحدث لي؟ أفقد نادر، ثم أمجد، وأنا أدور فى سلسلة مرهقة من التساؤلات المجنونة، والأحداث الرهيبة؟ فجأة شعرتُ بحركة بجواري. نظرتُ حولي وأنا آمل أن يكون أمجد، وقد نجا، لكن- للاسف- كان أحد المتشردين، والذي كان يرمقني بفضول ثم ابتسم، ليكشف عن صف من الأسنان السوداء. بادلته الابتسامة، ثم ضممتُ حقيبتى إلى صدري، وأنا أسترخي أكثر، قبل أن أغيب فى نوم عميق بلا أحلام. وعندما استيقظتُ وجدتُ أنه قد مضت ساعة ونصف تقريبا على استغراقي في النوم. والمرعب أن حقيبتى لم تكن معى. هببتُ من مكانى فزعة وأنا أبحث عنها ببصرى؛ فوجدتها على بعد خمسة أمتار تقريبا. خطر ببالي أنه المتشرد ذو الأسنان السوداء. كانت الحقيبة خالية من النقود، ومن هاتفي المحمولين. شعرتُ بضيق، كأن هذا ما ينقصني. جيد أنه لم يأخذ البطاقة الائتمانية. نهضتُ، وأوقفتُ سيارة أوبر، وأعطيته عنوان المستشفى.

كانت مستشفى صغيرة على أطراف العاصمة، في منطقة هادئة. أعطتنى موظفة الاستقبال رقم حجرته فور أن أعطيتها اسم حامد الثلاثي. كان في حجرة بالطابق الأول بعد الأرضي. وكان يتناول الطعام. فور أن رآني بدر منه انفعال حاد. فقلتُ مطمئنة له:

"لقد أخبرتنى مروة بمكانك".

اطمأنت ملامحه. قال:

"كيف حالها الآن؟".

جلستُ على مقعد بالقرب منه:

"حزينة لأنها تزوجتْ تامر، وحزينة لفقد أبيها".

عضّ شفتيه:

"لقد حذرتها مرارًا من هذا الثعبان، وعندما لم تصدقني اختطفتها، وها هي ذي الأحداث تؤكد أنى كنتُ على حق".

ثم سألنى:

"لماذا أنتِ هنا؟".

أخرجتُ الصورة من حقيبتى، وأريتها إياه، وأنا أضع إصبعى على نادر:

"كلمنى عنه".

قال وهو يبتسم:

"آه. أخيرا!".

نظرتُ إليه بحيرة. ما معنى انفعاله هذا؟

"لقد كان زميلك في الشركة قبل أن تتركها وتعمل كممثل مسرحي. أليس كذلك؟".

"لم يكن زميلى فقط. لقد كان صديقي".

انقبض قلبي من الفعل" كان". كلما أمسكتُ بخيط، ذاب من بين أصابعى. كلامه يتوافق مع كلام الظل. فهل يكون نادر قد قُتِل فعلا؟

"حدثنى عنه".

"كنا ثلاثة من الأصدقاء: تامر ونادر وأنا. أما نادر فكان شابا صادقا، رقيق الطبع، رومانسيا، وأما تامر فقد كان طموحا، ولتحقيق طموحه فقد كان مستعدا لفعل كل ما يلزم، حتى لو كان ينافي الأخلاق والإنسانية".

"هذا يتفق تماما مع صدر منه مؤخرا. ذلك الوغد!".

"لكن ذات يوم حدث شيء في الشركة غير متوقع".

"مايسة؟".

أومأ برأسه:

" كان هذا منذ خمس سنوات، وكانت مايسة قد تخرجتْ في كلية التجارة، وكان أبوها يريدها أن تتولى منصبا كبيرا، لكنها رفضتْ وفضلت أن تبدأ من أسفل، وأن تعمل كسكرتيرة له، وبطبيعة الحال كنا نحتك بها في معاملاتنا اليومية، وبدأتْ شرارة الحب تشتعل بين نادر ومايسة".

شعرتُ بالغيرة، لكنى تماسكتُ، ولم يظهر شيءٌ من هذا على وجهى.

"عندما أتت مايسة أكادُ أجزم أن الكثيرين قد وقعوا في هواها بشكل أو بآخر، لكنها وقعت فى هوى نادر".

"يا لها م محظوظة!".

درجة الغيرة تتزايد هنا، مع الكثير من الغضب. لم يخبرني نادر قط عن مايسة هذه.

"ما عرفته فيما بعد أن تامر النذل حاول أن يشوّه صورة نادر أمام مايسة ويثنيها عن فكرة الارتباط به، لكنها رفضته، بل ووبخته؛ لأنه يخون صداقة نادر بهذا الشكل المقزز. ومن ضمن ما أخبرته به أنها حتى لو لم ترتبط بنادر فلن ترتبط بتامر. كانت تحتقره والحق يُقال، وكأنها كانت تستشعر نفسه المظلمة. ما عرفته أن العلاقة بين تامر ونادر صارت فاترة؛ عبارة عن هزة رأس فقط، لكن نادر على الرغم

من قربهِ من مايسة، لكنه لم يحاول أن ينتقم من تامر؛ بإيغار صدر مايسة عليه بحكم أنها ابنة الرجل الكبير".

" ماذا حدث بعدها؟".

"اتفقا على الزواج، وبرغم معارضة والد مايسة في البداية(ولا أشك أن لتامر يدا فى هذا الرفض)، لكن مايسة كانت لها الغلبة فى النهاية. لكن أتى الموتُ وحرمهما من الزواج، حيث سقطت سيارتها في النيل".

"لا بد أن نادر مرَّ بفترة سيئة للغاية".

"ليستْ لديكِ أدنى فكرة عما وصل إليه حاله. الحقيقة أنه كان يتكلم طوال الوقت أنه لم يكن من المفروض أن يظل حيا".

قلتُ باهتمام:

"كيف؟".

"لقد كان من المفترض أن يذهب معها في هذا المشوار فى سيارتها، لكنه تأخر بسبب عمل طارىء لم يكن لأحدٍ أن ينهيه سواه".

شعرتُ بالشفقة على نادر فى تلك اللحظة. لقد قاسى كثيرا. لكن كيف لم أستشعر هذا الحزن خلف صوته؟ كيف لم أعرف أن ثمة امرأة فى ماضيه، يحبها كل هذا الحب؟ أرهفتُ سمعى إلى حامد؛ فما هو آتٍ سيكون أكثر أهمية:

"تعرفين فى مثل هذه الأحوال عندما تجدين أن أحد أصدقاءك على حافة الهاوية بسبب فقده لفتاة؛ فأنتِ تنصحينه بتجربة حظه مع أخرى، وهذا ما نصحنا به نادر. لقد ظلَّ عامين تقريبا منعزلا، يأكله

الحزن، ويكاد اليأس يلتهمه فى هوة عميقة بلا قرار، وقد وافق بالكاد على أن يتكلم مع فتيات أخريات، حتى على سبيل أن يتخلص من إلحاحنا الشديد، بعدها قابلكِ أنتِ على الفيسبوك، وبدأت تنشأ قصة جديدة في حياته".

اعتدلتُ فى مكاني. هذا كلام مهم جدًا. إنها المرة الأولى التى أرى نفسي فيها من الناحية الأخرى من النهر.

"كان نادر قد ترك العمل فى الشركة، واعتكف بفيلته. هو من عائلة ثرية فى الأصل، وقد كان يحكى لي تفاصيل حبه لكِ، وللأسفُ كنت أحمق".

قلتُ بضيق، وقد خمنتُ فعلته:

"كنت تحكي لتامر ما يحكيه نادر لك".

قال بخجل:

"هذا صحيح. وكان هذا يُصيب تامر بالغيظ الشديد. فى تلك الفترة كنتُ أرى مروة من بعيد فى الشركة. بعد موتِ أختها بدأت تأتى للعمل، وكأنها تحاول أن تساعد والدها على لملمة جراحه وحزنه على فقد ابنته الكبرى. وكنتُ مهتما بها، لكنى لم أجرؤ أن أحاول حتى فتح سكة لي معها. وذات يوم أخبرني تامر بأنه يشكّ أن ثمة شيء ما يُولد بين نادر ومروة، وأن نادر فقد عقله بسبب حزنه؛ فهو يتعرف على فتيات على الإنترنت، وفى ذات الوقت لا يتورع أن يجرب حظه مجددا مع شقيقة حبيبته الراحلة. ووسوس لي هذا الشيطان بأن

أؤلمه بأن أتقدم للزواج منكِ على سبيل النكاية، وقد راقتْ لي الفكرة بشدة، لدرجة أني عندما أخبرتُ والدتي بالأمر كادت تطير من الفرح".

"أنت على حق يا حامد".

قال بدهشة:

"في أي شيء؟".

"في أنك أحمق!".

طأطأ رأسه فى خجل.

"من حسن الحظِ أنك رفضتنى؛ فلو لم تفعلي فربما انسقتُ فى الأمر وأنا كاره، بينما عقلى معلقٌ بمروة".

"لكنك لم تتوان أن تُخبر الجميع بأنك من رفضتنى، وأننى سطحية وغبية ولزجة. تهمة الجنون أهونُ علىّ مما قلته. أتذكر أنك كنت ضجرا عندما تقدمت لخطبتي برغم اهتمامك في البداية".

سرنى أنه لم يجرؤ أن ينظر إلى مباشرة. فجأة ومض فى عقلي شيء ما، ربما يفسر الكثير من الغموض المتلاطم حولي:

"هل أخبرت تامر بموضوع تقدمك لخطبتي؟".

قال حامد:

"بكل التفاصيل".

"حتى موضوع التليفزيون القديم، وأنه ١٤ بوصة؟".

"أجل".

"إذن الظلّ كان يعرف هذه التفاصيل من تامر نفسه!".

"الظل؟ عمن تتحدثين بالضبط؟".

"إنه قاتل مختل عقليا، ولا أشك لحظة أنه من قتل والد مروة مع سبق الإصرار والترصد، بأوامر من تامر نفسه".

كاد حامد يقفز من سريره فزعا:

"ماذا؟".

"أنت نفسك حذرت مروة من تامر؛ لدرجة أنك قمتَ باختطافها، وتقييدها، وحرمانها من نور النهار".

"كنتُ أحاول أن أحميها. لكن أن يلجأ تامر للقتل؟".

"لن أستبعد شيء عنه. لقد زعم أنه رآني وأمجد ونحن نقوم بقتل سعيد والد مروة. أعتقد أن شاهد الزور لن يتواني عن تلطيخ يده بالدم لو استلزم الأمر. لكن فى هذه الحالة يوجد شخص قادر على تنفيذ هذه المهمة بدلا منه".

"من أجل أن يسيطر على إمبراطورية شركاته. أليس كذلك؟".

أومأتُ برأسى. ثم اقتربتُ منه، كمن أفضى له بسرّ خطير:

"هل تريد رأيي؟".

"قولي".

"أظن أن حادث موت مايسة مُدبر، وأن من قتلها هو الظلّ نفسه بإيعازٍ من تامر".

***

قال حامد بصوت مبحوح:

"ماذا تقولين؟".

نهضتُ من مقعدي، وأنا أدور حول نفسي فى الحجرة، وجسدى يرتجف من الانفعال:

"راجع معي الأحداث بشكل منطقي. تامر شخص طموح، يفعل كل ما يلزم من أجل أن يحقق طموح الثراء والسيطرة، وهذا ما أخبرتني أنت به من قبل. الحل الوحيد لكى يحوز على إمبراطورية والدها هو أن يرتبط بمايسة نفسها. لكنها ترفض، وتطعنه في كرامته. لا أشك أنه كلف الظل بأن يقوم بالتخلص من مايسة ونادر فى ضربة واحدة، لكن مايسة تموت، وينجو نادر بسبب تصرف بسيط يلزمه بالمكوث فى الشركة. وبسبب انهيار نادر لفقد مايسة، يعدل تامر عن ذلك، ويكتفى بمراقبة حزن نادر الجارف على مايسة".

قلتُ هذا ونيران الغيرة تحرقنى بالداخل، لكنى مجددا تماسكت. جميل أن تتلبسنى روح شرلوك هولمز:

"لقد كان فى هذا تتمة انتقامه من نادر الذي يمقته كثيرا. لكن عندما عرف بأنه فى سبيله لقصة حب جديدة؛ صمم أن ينغص عليه ذلك، ولهذا أخبرك بتلك القصة الغريبة مستغلا إياك حتى تتقدم لي، ويحدث ما حدث، فى نفس الوقت يقوم بإبعادك عن مروة، وحيث يتحقق هدفه في الاقتران بمروة، ومن ثمّ بعدها السيطرة على مملكة أبيها بعد الزواج منها، ثم التخلص من الرجل الكبير".

كنتُ فرحة بنفسى. لقد عاد ذكائي الحاد مرة أخرى يتألق كحدِّ الموسى. أما حامد فقد كان مذهولا، وهو يقول:

"يا له من شيطان! لا بدّ أنّ نادر سيُصعق من هذه التفاصيل عندما يعود".

قلتُ بحزن:

"هذا لو عاد. ألم تعرف. لقد قتله الظل، حيث اخترقتْ رصاصة رأسه. لكنى نسيتُ هذا. الغريب أن قلبي يشعر بأنه ما زال حيا. كيف يتأتى هذا؟".

كانت هناك نظرة حيرة فى عينيه.

"إذن فهذا هو سبب دخوله فى الغيبوبة".

قلت بحيرة:

"لحظة يا حامد؛ عن أي شيء تتكلم؟".

"نادر ما زال على قيد الحياة يا آنسة. لقد دخل فى غيبوبة عميقة منذ عام. الأطباء يقولون بأن إشاراته الحيوية تستعيد طبيبعتها، وتتحسن باطراد يوما بعد يوم. ربما بعد شهر من الآن سيكون قد استيقظ من غيبوبته".

خفق قلبي. سألته برهبة وكأنى لم أستوعب بعد:

"عما تتحدث يا حامد؟".

"أتحدث عن نادر طبعا. إنه معى هنا فى هذه المستشفى".

***

مفكرتي العزيزة....

لكِ أن تتخيلي ذهولي وجسدي الذي لم يكفّ عن الارتجاف. لقد عاد نادر كثيرًا في الفترة القليلة الماضية، لكنه لم يعد فى نفس الوقت. عاد

على هيئة نادر الخيالي، ثم عاد مرة أخرى، وإن كان الظل قد قام بانتحال شخصيته، وأنا كالحمقاء صدقت ذلك، ثم ها هو ذا يعود مرة أخرى؛ فهل تكون التالتة تابتة؟

"تقول أنه هنا فى المستشفى؟".

"نعم، فى الطابق الثاني".

"هل انت فى وعيك يا حامد؟ هل تقول الصدق؟ أرجو ألا تتلاعب بي؛ فأنا لا ينقصنى ذلك".

"لقد رأيته بعينيّ هاتين اللتين سيأكلهما الدود".

نهضتُ بسسرعة:

"لن أصدقك حتى أرى بعينيِّ أيضا".

بدا عليه الامتعاض، وكأن السير بعد وجبة دسمة كهذه متعبا بالنسبة له. ذكرني بأمجد وبحبه للطعام. أين أمجد الآن؟ هل هو في أعماق النهر يأكله السمك، أم أنه على قيد الحياة؟ أشعر أنه ما زال حيا. كنتُ أشعر بأن نادر على قيد الحياة برغم تأكيدات الظل بأنه قتله بنفسه، وبرغم الومضة التى رأيتها فى عقلي. لقد دلني قلبي على أن نادر حي، وها هو ذا حامد يؤكد على ما استشعره قلبي، وبالتالي فأنا مطمئنة أنا أمجد أيضا حيٌّ؛ فقلبي ينبئني بذلك.

مهلا: قلبي ينبئنى بذلك؛ فهل معنى ذلك أني أحببتُ أمجد؟ كنتُ مضطربة حقا، وأنا أتحرك خلف حامد الذي يتكلم مع هذا، ويمازح ذاك. يبدو أنه محبوب هنا.

فى الطابق الثاني، وفي حجرة تقع فى نهاية الممر وقفتُ مع حامد، وأنا لا أصدق أننى فى سبيلي لمقابلة نادر لأول مرة، وفي أغرب مكانٍ ممكن.

لحظة. المفترض أنى قابلتُ نادر بالفعل من قبل، لكنى- لسبب ما مجهول- لا أتذكر ذلك. سألقاه الآن، سألقاه الآن. هذا ما كان يتردد في جنبات عقلي وقلبى كالصدي. دفع حامد باب حجرة نادر، وإذا هو هناك.

الرهبة، الخوف، الفرحة، عدم التصديق، مزيج فوضوي من تلك المشاعر، كاد يتسبب فى إفقادي الوعي، لكنى تماسكتُ، كان لا بدّ أن أتماسك. كان نادر ممدا على فراش أبيض، وجهه شاحب، وهناك عشرات الأجهزة المتطورة التى تتصل بجسده، وتنقل إشرات جسده العصبية على المونيتور. كان الممر شبه خال. لا يوجد أطباء أو مرضى أو ممرضين، كأنى في مبني للأشباح. خطوتُ للداخل، وجلستُ بجواره، وأنا أحضن يده. همستُ في أذنه، وكأن أُرسل له رسالة حيثما هو كائن: **"أنا هنا يا نادر".**

ملأتُ عيني بوسامته. كان من المفترض أن أفهم. ما دام نادر الخيال يتصح لي أنه نادر القابع أمامي الآن؛ فلا بد أني رأيته من قبل. عقلي- ذلك الخبيث المراوغ- يُرسل لى رسالة خفية بأنى قابلته من قبل. أية قوة قاهرة تلك التى جعلتنى أنسى؟ ولأول مرة تبدو فكرة أن أخضع لجسة تنويم مغناطيسى منطقية. فور أنّ عبرت الفكرة لذهني شعرتُ بصداع كاسح، وخوف مبهم من تلك الخطوة، كأنى لو فعلت ذلك؛ فسأفتح على نفسي باب من أبواب جهنم!

سألتُ حامد:

"تقول لي بأن الأطباء متفائلين بخصوص حالة نادر".

"هذا صحيح. يقولون بأنه في سبيله لأن يصحو".

نظرتُ إلى حامد:

"كيف وصلت إلى هنا يا حامد؟ كيف تدفع تكاليف العلاج هنا أصلا؟".

جلس على المقعد المجاور لي، وقال بحيرة:

"الحقيقة أني لا أدفع شيئا".

"كيف؟".

"وصلتنى رسالة ذات يوم على الواتساب من أحدهم يخبرني بأنه صاحب هذه المستشفى، وهو يتكفل بعلاجي على نفقته؛ فوافقت".

"بهذه البساطة؟".

"لو تقصدين موافقتي؛ فالإجابة نعم. أما لو تقصدين صاحب المستشفى؛ فهو شيء غريب بالفعل، لكنى لم أتوقف أمامه كثيرا".

قلتُ وأنا أفكر فى نفس الوقت:

"وهو يتولي مصاريف علاج نادر أيضا، ولعام كامل".

"يبدو أنه واسع الثراء".

قلت بشرود:

"يبدو أنه كذلك".

ونهضتُ بحماس:

"فلنعرف منْ هو صاحب هذه المستشفى".

نزلنا للطابق الأرضي، وسألنا أكثر من شخص؛ لكن لا أحد يعرف على وجه التحقيق، بل اختلفت الإجابات وتفاوتتْ، حتى كاد اليأس يصيبنا؛ فالبعض يقول أنه رجل أعمال شهير يعمل في تجارة الحديد الصلب، والبعض الآخر يقول أنه طبيب من عائلة مرموقة بنى هذه المستشفى، وإن كان لم يره أحد.

ثم توقفتُ فجأة أمام صورة كبيرة معلقة خلف المرأة المسئولة عن الاستقبال، وكانت أربعينية حسناء. كانت الصورة تحمل وجها مألوفا بالنسبة لي. كان أمجد، وهو يتوسط طاقم من الأطباء والممرضين وعمال المستشفى، وهو يبتسم، بينما كرشه يبدو بارزا كعادته، حتى لكأنه صار ماركة أمجد المسجلة الخاصة به، على كثرة الكروش حوله!

سألتُ الموظفة بصوت مرتجف، وأنا أُشير لأمجد:

"منْ هذا يا مدام؟".

قال ببساطة بعد ان ألقتْ نظرة خاطفة على الصورة، ثم عادت لممارسة عملها بروتينية:

"إنه أمجد بك، صاحب هذه المستشفى".

***

الفصل السادس عشر

مفكرتي العزيزة...

أعتذر إليكِ بسبب انقطاعي عنكِ لفترة طويلة. مضتْ أربعة أشهر منذ كتبتُ إليكِ فى آخر مرة، في تلك الفترة جرتْ مياهٌ كثيرة تحت الجسر. للأسف أوشكتْ صفحاتكِ على الانتهاء.سأحاول أن أقول كل شيء، لكن دون أن أُصدعِّكِ بالتفاصيل. كما تعرفين فقد كان الحل يتمثل فى خضوعي لجلسة تنويم مغناطيسي أمام الدكتور صبحي، وربما كانت هذه هى المرة الأولى التى أذهب فيها وأنا بمفردى، دون أن أصطحب أحدًا من أسرتى؛ إذ أنهم كانوا يخشون من ضياعي في السابق، لكن الأمور تغيرتْ بعد أن دخل أمجد في حياتي؛ وإننى الآن لأتساءل- بعد أن عرفتُ أن المستشفى التي يُعالج فيها نادر هى ملك لأمجد ذاته، وأنه كان يتولى رعايته لعام كامل- إن كنتُ أنا في الأصل منْ دخلتُ حياته؟

العيادة تقع في الدور الثالث، تطلُّ على النيل مباشرة، في منطقة المنيل. الدكتور صبحي مثل عهدي به: وقور ورزين، ومفكرة صغيرة يدون فيها ملاحظاته بخصوص مرضاه. وها هو ذا يدوّن بعض النقاط، وخاصة وقد حكيتُ له ما حدث معي بالتفصيل. هو يعرف أنه بريئة من تهمة القتل، وإن حرص أن يصرف سكرتيرته وممرضه قبل حضوري، بعد أن صممتُ على هذا، وهكذا أتيتُ من المستشفى للعيادة مباشرة، دون

أن أمرُّ بفيلا أبي أمجد حيث توجد عائلتي معهم. لا بد أنه قد فوجيء عندما قلتُ له:

"أريد عمل جلسة تنويم مغناطيسي يا دكتور صبحي".

تنهد، وأسفر وجهه عن ابتسامة مشرقة:

"ياه! أخيرًا يا سامية!".

ابتسمتُ بفتور دون أن أُعقّب بكلمة. لم أخبره أن قبضة باردة تعتصر قلبي، وعقلي يهيب بي أن أتراجع كعادتي، لكني بذلتُ جهدا جبَّارا لتجاهل صوته المزعج الذي يزعق دون توقف في رأسي، وكأنه سرينة قبيحة تخلخل نظام الصمت الأبدي.

سألني الدكتور صبحي بهدوء.

"هل تعرفين الفرنسي جان شاركو؟".

"لم أتشرف بمعرفته من قبل".

ضحك الدكتور صبحي:

"إنه أستاذ سيجموند فرويد ذاته، وبينما كان شاركو يؤمن بجدوى التنويم المغناطيسي-وهو في ذلك على حق-كان سيجموند يغرد بعيدا عن أستاذه، ويعتمد طريقته المشهورة في التحليل النفسي".

"المهم أن تخرج بطريقة شاركو بما يختبيء بداخلي يا دكتور".

"سنفعل. ما دامتْ لديكِ رغبة في تحقيق ذلك؛ فسيكون لهذا تأثير إيجابي".

ونهض، وقام بتشغيل جهاز تسجيل قديما، انبعثت منه موسيقا كلاسيكية، بعثت شيئا من الهدوء والراحة على المكان. الآن، صرتُ مسترخية على الشيزلونج، والدكتور صبحي يقول:

"الآن، ستقولين جملة: مطلووووب.. تصمتين لحظة.. ثم تقولين: عريييس.. ثم تصمتين مجددا.. ثم تقولين.. غير.. ثم لحظة صمت.. ثم تقولين: ممل.. قوليها كما أنطقها هكذا منغمة: مطلوب.. عريييس.. غيييير... ممل.. ستشعرين بجفنيكِ يتثاقلان، وعينيك ينغلقان بعدها، ثم سترين نقطة ضوء وسط العتمة، وهناك ستعرفين الحقيقة".

وهنا، لم أشعر بنفسي، إلا وأنا أنزلق... ناحية نقطة الضوء.

***

كما تعرفين يا **مفكرتي العزيزة** أنني أحب الشتاء...

أعتقد أنه لا توجد فتاة لا تحبه. البرد الممتزج بالضباب، والمنتشر كأشباح أسطورية تتسرب من خلال أنفاسنا، والبحث عن شيء ما ساحر نتوق له، وإن كنا عاجزين عن تحديد ملامحه.

أحيانًا أقول لنفسي بأن ما يعطي لحياتنا معنى أننا نبحث عن ذلك الشيء الغامض، فماذا لو كففنا عن البحث بعد أن نجده؟

في ذلك الجوّ البارد المشبع بعاطفة ما غامضة؛ فاجئتُ نادر بطلبي لمشاهدته.

"وماذا عن اتفاقنا يا سامية؟".

سألني؛ فأجبته بعصبية:

"فليذهب إلى الجحيم!".

ثم وجدتُ نفسي أُطلق ضحكة خجول. لا توجد فتاة لا تحب أن يقتحم الرجل من أجلها الأخطار، لكنى أقوم بالدور هنا، والحقيقة أنى مندهشة من حرص نادر الشديد على ألا يظهر فى حياتي، كأنه يريد التأكد من مشاعره نحوى، أو يريد التخلص من ظلّ لعلاقة سابقة يلازمه بإصرار.

أشعر بهذا دوما، وإن لم يفصح نادرعن شيء، واحترمتُ هذا. اتفقنا أن نتقابل في مطعم هاديء على أطراف المدينة قد تم افتتاحه حديثا.

وبرغم أني من أصررتُ على مقالته، إلا أن صوته بدا متشوق جدًا لرؤيتي. طبعًا ارتديتُ أفضل ما عندي، وراح قلبي وعقلى معًا يرسمان سيناريوهات اللقاء الأول. مرة أخرى تبرز قصيدة" أغدا ألقاك؟" لأم كلثوم. وصلتُ المطعم قبل الموعد بساعة تقريبا. فرصة لكي أُلملم شتات توترى وقلقى، وأعدّل هندامي، وأنتظر.

كانت عيناي معلقتين بباب المطعم، الذي كان خاليًا في تلك الساعة من النهار؛ إذ أنه لم يشتهر فى المنطقة بعد، ورواده قلة بطبيعة الحال، وإن كانت فى تلك الساعة من النهارد لا يوجد غيرى. في الموعد المحدد وصل نادر، ومع وصوله راح قلبى يمارس عادته الذميمة في الخفقان أكثر من المعتاد، حتى أنى سمعت ضربات قلبى بوضوح في قفصى الصدرى.

كان مبتسما، ويبدو سعيدا حقا برؤيتي. جلس دون أن ينطق بكلمة، وفعلتُ المثل. لكن مع ذلك يبدو أن حديثا من نوعٍ خاص قد دار بيننا، حتى أن النادل اقترب منا متوجسا لهذا المنظر الغريب: امرأة ورجل يلتزمان الصمت المطبق!

طلبت عصير فاكهة، بينما اكتفى هو بفنجان قهوة.

"وقد يجمع الله الشتيتين بعدما... يظنان كل الظن ألا تلاقيا". قالها مبتسما. قلتُ مستفسرة:

"قيس بن الملوح. أليس كذلك؟".

أومأ برأسه.

"لم أفهم لما اتفقنا أصلا أن نبتعد هذه المسافة".

"أحسب أن ذلك حتى لا تحترق القلوب لو اقتربتْ أكثر يا نادر".

أومأ برأسه متفهما.... كيف مرَّ الوقت؟ لا أدرى، لكننا تحدثنا كثيرا جدا. ثم أتت لحظة شعرتُ فيها بالإرهاق، وطلبتُ فيها الذهاب للحمام لتعديل هندامي. كان حمام المطعم ينقسم لقسمين أحدهما للرجال، والآخر للنساء، وكان البابان مقابلين لبعضهما البعض، مع وجود مسافة معقولة تبلغ ثلاثة أمتار تقريبا. دخلتُ التواليت، وأنهيتُ زينتي في فترة قصيرة، وأنا أطير من السعادة، ثم عدتُ على أجنحة الشوق إلى نادر، لكن قبل أن أصل إليه، رأيتُ المشهد المفزع:

كان نادر يتأمل هاتفه المحمول وهو ينتظر عودتي، عندما انفجر رأسه! لم ينفجر كلية، لكن نافورة من الدم انبثقتْ بغزارة من جانب رأسه، الذي هوى على المنضدة أمامه. بدون تفكير هرعتُ إليه واحتضنته وأنا

أصرخ بدون توقف. صرخات ملتاعة، وقلبي يحترق بداخلي، حتى خلتُ أنه سينفجر هو الآخر. كان نادر ما زال في وعيه، وكان متشبثا بي، صوته هامس مصمم على ما يقوله، ويستعد للتلاشي:

"لستُ نادما على حضوري لرؤيتك".

هنا، راحت الرصاصات تتدفق إلى المطعم من جديد من النوافذ، لدرجة أن العاملين اختبئوا وهم يصرخون. فجأة ظهر رجل وسحبني بقوة من أمام نادر، لكنى قاومته بشراسة مجنونة، ولأن أظافرى طويلة فقد مزقت جزءا من جلد معصميه بالفعل، لكنه تحمل ذلك بصبر عجيب، وهو يجزّ على أسنانه من الألم حتى أدماها، واقتادني بالقرب من التواليت.

"اهدئي. اهدئي أرجوكِ".

كنتُ ثائرة، عقلى يكاد يرحل للأبد، بينما يستعد الجنون للمكوث بدلا منه بداخل أعماقي. أي شخص يمكنه أن يرى أننى أقترب من حافة بالجنون فعليا. كنتُ أخمشه وأسبه، وقد احمّر وجهي وأنا أردد اسم نادر دون توقف. كان شابا في منتصف الثلاثينات تقريبا، وكان رأسه يميل للصلع، مع كرش يبرز على استحياء، ويبدو أنه يعاني من مشكلة ما متعلقة بالأملاح؛ لأن وجهه الدهنى اللحيم لم يكف عن إنتاج العرق بغزارة لا يُحسد عليها في الواقع.

"اهدئي من فضلك. اهدئي".

"لقد مات. انفجرت دماغه. ألم تر ما حدث؟".

"وستلحقي به على الفور لو لم تهدئي".

"لن أستطيع العيش بعده. أنها المرة الأولى التي أقابله فيها بعد فترة من تحادثنا على الإنترنت. أنا من تسببتُ بقتله عندما طلبتُ مقابلته بإلحاح. أنا المُلامة على رحيله للأبد".

أنتِ لا تتخيلين ما الذي يفعله بنا عذاب الفقد بنا يا **مفكرتي العزيزة**؛ عالمكِ محدود ذي بعدين، بينما عوالمنا نحن البشر معقدة إلى حدٍ مرعبٍ؛ فما بالك لو كان ألم الفقد وعذاب الضمير معا؟

لذا يمكنكِ تصديقي عندما أقول لكِ أنَّ عينيّ كانتا معلقتين بسكين صغيرة تستقر على منضدة تبدو أمامى واضحة. برزتْ الفكرة أمامي، وشرعتُ في التنفيذ. ومضتْ صورة لي في ذهني، وأنا أمسك السكين، وأقطع شرايين يدي. سيكون الدم غزيرا، لكن الألم سينتهي في لحظات. ويبدو أنها كانت مرة من المرات النادرة التي كنتُ أمتلك فيها إيجابية فعلية؛ فقد وثبتُ بالفعل ناحية السكين، لكن يبدو أن منقذي أدرك مقصدي؛ فكبلني بقوةٍ لا تصدقي أن مثله يملكها.

"لا تفعلي هذا بنفسك".

"لا يوجد حلّ آخر".

"دوما يوجد حل".

قالها؛ مما جعلني أنظر إليه دون أن أستوعب كلماته. فسّر مقصده بقوله:

"أنا خبير في التنويم المغناطيسي. خبير جدًا لو جاز التعبير. يمكننى أن أساعدك قبل أن يحترق عقلكِ من هذا الهول".

قلتُ بعينين زائغتين:

"لا توجد طريقة لمساعدتى. لقد انتهيتُ. أريد الموت".

"يمكننى حجب الحزن عنك. يمكننى حبس الألم في سجن منيع لو تركتنى أفعل ذلك".

أتذكر رأس نادر في حضنى، الدم الذي يسيل منه. خفقات قلبي الذي يركض بألم صارخا، وكل هذا الصراخ بداخل عقلي. هل يمكن لهذا الرجل أن يحقق ذلك؟

أشار إلى معصميه اللذين ينزُّ منهما الدم بغزارة، لكنه أحاطهما بمنديل سميك، حتى يمنع نزول الدم على الأرضية:

"لقد شوهتِ معصمي بأظافركِ يا آنسة، وأغلب الظنّ أن الندبة ستظل لفترة طويلة".

في ظروف عادية كنتُ سأتشكك، سأتهمه بأنه متحرش، بأن لديه أجندة خفية. لكن في تلك اللحظة-يا **مفكرتي العزيزة**-كنتُ هشة ومنهارة، أشبه بطفل صغير يشعر بحزن يُثقل قلبه وعقله، وتكاد تنفجر جمجمته من التفكير؛ فيُسلم قِياده لأول من يمدّ له يده. يمكنكِ إذن أن تتفهمي؛ لماذا أومأتُ برأسى، وأنا أستند للجدار. قال برفق وهو يشير للسلسلة الذهبية حول عنقى:

"أعطنى هذه السلسلة لو سمحتِ. لا تقلقى. سأعيدها إليكِ مرة أخرى".

هل هو لص؟ لا أكترث. نزعتُ السلسلة بحركة آلية وناولتها إليه. كانت دموعى قد نضبت، والحزن أصابه التعب؛ فراح يلهث ويلقتط أنفاسه

توطئة لجولة جديدة من الألم الخانق الذي أشعر بقدومه، لو لم يتحرك هذا ال....

سألته بصوت مبحوح منهك:

"ما اسمك؟".

قال برفق:

"لا يهم أن تعرفيه. ستنسينه على كل حال".

"أنا لا أصدقك. لا يوجد شيء كهذا".

"سترين الآن. سأمسح كل ما هو متعلق بهذا اللقاء من عقلك، بحيث ستنسين لقاءك بحبيبك، وما سبقه من تخطيط، وما حدث في المطعم، والهول الذي عاينته. بعد أن أنتهى منكِ..."

كان صوته رخيما، عيناه عميقتين برغم ضيقهما، وكأن الحزن يمسك عصاه، ويتأهب للرحيل من أعماقي. يُكمل:

".... سوف تعودين لمنزلك، وستنامين، وعندما تستيقظين من نومك سيكون كل شيء على ما يرام، وكأن شيئا لم يحدث. سيظل حبيبكِ هذا مجرد حبيب افتراضي. حتى يحميكِ عقلك من تأثيرات ما رأيته منذ قليل؛ فلابد أن تنسى. أن يُحجب ألمك خلف جدران سميكة. وللأسف حتى يحدث هذا؛ فلابد أن ينخفض مستوى ذكاءك، مستوى تعاملكِ مع الأحداث، مع من حولك من أهلكِ، وربما يعتبرك البعض معتوهة. ستنسين أشياء كثيرة، وسوف تظلين طوال الوقت متعلقة بقصة حبكِ هذه، بحيث يغدو حبيبك هذا هو محور حياتك الخفى. هذا من أجل حمايتك".

قلتُ بآخر وعيي الغارب:

"لا أكترث. المهم أن أنسى هذا الألم".

"سيحدث. سيحدث".

ما زال يحرك السلسلة يمينا وشمالا، ثم بدأ يُصدر من فمه كلاما بلغة غير مفهومة، أشبه بتهويدة جعلت النوم يهجم عليّ بشراسة، ثم... ظلام تام... وعندما فتحتُ عينيّ وجدتنى أبكي.

كنتُ ممددة على الشيزلونج، ودموعى تغرق ثيابي.

أتاني صوت صبحي المميز:

"هذا ما حدث إذن؟".

أومأتُ برأسى. إنه أمجد. أمجد من قام بتنويمي وجعلنى أنسى، ثم عاد مرة أخرى لينضم إلى قائمة العرسان الذين طلبوا يدي. لكن لماذا؟ لماذا أخفى عنى حقيقته. كان هو من يسير خلفى في العتمة حقيقة. ربما لم يفعل هذا بشكل فعلي، لكنه كان السرُّ الذي يخفى السر، وأنا ممزقة بين هذا وذاك.

وراحتْ تنسابُ إلى عقلي أشياء من الماضى، كيف لم أنتبه إليها فى وقتها؟

***

كان العريس يتحاشى النظر لوجهي، ولستُ أدري السبب في الواقع،

هل هو الخجل أم أن هناك سببًا آخر!

***

شمّر عن ذراعيه في سعادة، وهنا أمكنني أن ألاحظ الجروح القطعية بمعصميه. لاحظ نظرتي المتسائلة؛ فقال وهو يبدو محرجًا:

"قطتي المفضلة "بسبس" تهورت وقامت بـ"خربشتي".

"بُسبس!".

"إنه. إنه اسم الدلع".

***

والآن، وعندما أنظر إلى أمجد، ومن فحصي لوجهه الأملس، وتعبيرات وجهه الصادقة فهو بريء؛ إلا لو كان أعظم ممثل في العالم!

***

" أما الذكي الغامض فهو أسوأها طرًا. هو شخص ذكي جدًا، ويعلم أنه ذكي جدًا، ويعلم أن من الأفضل ألا يظهر أنه ذكي جدًا. إنه يمارس ذكائه مع الآخرين، ويحركهم كقطع الشطرنج."

***

"كلنا لديه أسراره".

***

"ومن أدراكِ أنه لا يوجد لدىّ جانب مظلم؟".

***

"لكل منا جنونه الخاص".

***

"إذن، فهو شيء قد حدث منذ عام. أليس كذلك؟"

شددتُ خصلة من شعري:

"لكني لا أعرف ما هذا الشيء".

تمتم شاردا:

"عظيم".

حدقت في وجهه:

"ما هو العظيم في ذلك أيها العبقري؟".

هز رأسه مجددًا:

"ربما هذا لمصلحتكِ. لا تعرفين".

***

"ليست الحقيقة مهمة أو مطلوبة في كل الأحوال. ربما يكون الجهل نعمة كما قال ذلك الخائن في فيلم The Matrix".

***

كنتُ أبكي، وما زلت أبكي عندما أتذكر تلك اللحظة. صوت صبحي المبحوح الفضولي:

"إذن؛ فهذا ما حدث".

نظرتُ إليه، بذقنه الكثيفة، وشاربه المميز، ووجهه العريض، لكن مهلا. كان في العتمة، وهنا بدأت أنتبه أنه لا يوجد لحية أو شارب، وإن كان الصوتُ مشابها لصبحي. تحركتُ بحدة من فوق الشيزلونج، لكن قدميّ ارتطمتا بجسد ما دافي، وإن كان ساكنا. نظرة فزعة عليه لأكتشف أنه

الدكتور صبحي نفسه. تراجعتُ للخف بذعر، بينما المتكلم يبرز للنور، وإذا هو الظل!

***

مفكرتي العزيزة...

أقف الآن في مواجهة الظل. اختفي الفضول الذي كان يتأجج في عينيه كنار مستعرة.

"أنت؟!".

أومأ برأسه بتواضع:

"أنا، أم ظننتِ أنكِ ستُفلتى منى؟".

"كيف عرفتَ أني هنا؟".

"لقد أخبرتني أنتِ عندما تقابلنا لأول مرة فى الفيلا أنك تذهبين إلى طبيب نفسي. طبعا لن أعتبر مقابلتنا فى المطعم منذ عام، عندما رأيتنى على السطح تُحتسب. الحق أني كان من المفترض أن أقتلكما معا، لكن بعد تدخل أمجد هذا، وما فعله بعد ذلك، صارتْ مهمتى صعبة. كان من الممكن أن أقتلكِ، لكنه الفضول كما تعرفين".

وهزّ رأسه:

"بعد أن أفلتِّ من مرمى نيراني شعرتُ بالغيظ من إخفاقي فى نصف مهمتى، لكنى قرأتُ بعدها أن المطعم قد احترق عن بكرة أبيه، لكن أصحابه والموظفين فيه كانوا على قيد الحياة، لكنهم لا يتذكرون شيئا. كان لغزًا معقدًا بالنسبة لي، وكان هذا كفيلٌ بتأجيج نار الفضول بداخلي، وهذا يفسر لكِ لماذا تركتكِ حية حتى أن بعد

عرفتُ بنجاتكِ من الحريق، وببعض التحريات البسيطة عرفتُ بسمعتكِ كمعتوهة فى عائلتك، وببعض الجهد المصاحب لهذه التحريات أدركتِ أنكِ لا تمثلين أو تدعين هذا، وخمنتُ مبدئيا أن رؤيتك لحبيبك ورصاصة تخترم رأسه قد أصابتكِ بصدمة نفسية عنيفة، وكان من الممكن أن أركن لهذا التفسير، لكن شعورا خالجنى بأن الأمر أعقد من ذلك. لهذا كنتُ أتتبعكِ في الليالي التي تخرجين فيها وحيدة. كان ذعركِ حقيقي، وخوفكِ ممن يتعقبك لا مبالغة فيه. طريقتي هذه كانت تُغضب تامر بشدة، حتى أنه هدد بأنه سيتعاقد مع غيري لقتلك، لكنى حذرته؛ وأبرزتُ له أنيابي ومخالبي، وصارحته بأنى أحتفظ به بمقاطع فيديو بجودة ممتازة تُظهره وهو يكلفني بقتل بعضهم، دون أن يعلم الأحمق أنه فى كل مرة نتقابل كنتُ أضع كاميرا دقيقة متصلة بهاتفي المحمول تسجله صوتا وصورة".

وضحك:

"أي أننى كنتُ أحافظ على حياتكِ يا عزيزتي، حتى لو لم تعرفي هذا".

كانت معلومات تُدير الرأس تُنير الكثير من العتمة التى كانت تحيط بي فى العام الأخير. سألته ببرود:

"لم تجب سؤالي: كيف عرفت أنى هنا الآن؟".

ابتسم بسماجة:

"المفترض أن تسألى كيف عرفتُ أنكِ تقابلين مروة، وكيف تتبعتك؟".

ضربتُ جبهتى، وقد برقتْ الإجابة فى ذهنى بوضوح:

"لقد زرعتَ برنامج تعقب فى هاتفي المحمول الذي تركته على المنضدة، كما فعل أمجد من قبل فى هاتفه الذي أهداه لي".

قال ببطء، متفرسا فى ملامحي:

"يبدو أن حجب الألم كان يحجب ذكائك الحاد معه".

شعرتُ بالفخر، حتى لو كان الأمر سينتهى برصاصة في جبهتى. كان على حق.

"لقد زرعتُ برنامج تعقب فى هاتفكِ فعلا، وكنتُ أعرف أنكما ستهربان، واعتمدتُ على أنكِ ستشحنين هاتفكِ المحمول على الفور، لكن هذا لم يحدث".

كان على حق؛ فقد ظللتُ ثلاثة أيام في شقة شقة أمجد دون أن أضعه على الشاحن، قبل أن أفعل ذلك قبيل خروجنا لمقابلة مروة.

"وفجأة عرفتُ مكانكِ فى المطعم؛ فقام تامر بإبلاغ الشرطة أن أحد معارفه رآكما بالصدفة هناك، وبعد هروبكما تعقبتكما بسيارتي".

"لكن التعقب قد انقطع عندما قام هذا المتشرد بسرقة هاتفي المحمول".

"لم يحدث فى الواقع؛ فقد وصلتُ للمتشرد بالفعل، وقد حكى لي كيف قابلكِ تحت ذلك الكوبري، ومن هناك كان من المستحيل تعقبك، وكنتُ أعرف أنكِ من الذكاء بحيث لا تعودي لمنزل أبيكِ أو فيلا أمجد؛ فلا بد أن الشرطة تراقب المكانين تحسبا".

قلتُ بخوف:

"أرجو ألا تكون قد مسسته بسوء".

"لم أفعل".

ثم كشّر عن أنيابه لي:

"والآن يمكننى أن أنهى مهمتى غير المكتملة بعد أن عرفت".

وانقض علىّ بشراسة. كان قوي البنية برغم نحوله. قلتُ بسرعة:

"لكنك لا تعرف أنى كنتُ فى المستشفى التى يُعالج فيها نادر من الرصاصة التى أصبته بها أيها الفاشل".

تجمد الظل فى مكانه من المفاجأة. سرنى هذا. يبدو أن سرعة بديهتى تضاعفت كثيرا. قال غير مصدق:

"نادر حيٌ؟ لكن كيف؟".

هنا انبعث صوت مألوف لم أسمعه منذ ساعات وهو يقول:

"لقد أنقذته فى اللحظات الأخيرة لحسنِ الحظ".

كان هو أمجد!

***

يقف على باب العيادة، وجهه مليء بالسحجات، ويضع يديه خلف ظهره. قلتُ بفرح:

"كنتُ أعرف أنك على قيدِ الحياة يا أمجد. ماذا حدث لك؟".

قال وهو يعرج:

"التوتْ قدمي قبل أن أُلقى بنفسي من السيارة، وعندما سقطتُ فى النيل؛ علِقتْ رجلي المتوية بين صخرتين فى القاع، واضطررتُ لكسرها حتى أُفلت من الغرق".

أمكننى أن أرى خيط من الدم ينساب من قميصه ويُغرق منطقة بطنه.

"أنت مُصاب!".

" سأكون بخير".

"يا لك من مسكين تعس!".

أما الظل فقد قال، مقاطعا حوارنا الذي كان سيستمر للأبد:

"إذن فأنت من أنقذه. لكن كيف؟".

"الرصاصة اخترقت جانب مخه، ومن حسن الحظ أن المطعم قريبٌ من المستشفى التى كنتُ قد اشتريتها منذ وقت قصير".

قلتُ له:

"إذن فهذا هو عملك يا أمجد التي يُدّرُّ عليك ذهبا؛ أن تمحو آلام الناس".

أومأ برأسه. استطرد أمجد:

"للأسف، الرصاصة تسببت في أن يدخل نادر في غيبوبة عميقة".

سألته:

"ماذا كنت تفعل في المطعم حين تقابلنا لأول مرة؟".

ابتسم بشحوب:

"أتظنين أنى سأسمع بافتتاح مطعم جديد يقدم أصنافا مختلفة من اللحوم ولا أجربه؟".

ضحكتُ على دقة الموقف.

"هذا هو أمجد الذي أعرفه".

ثم قلتُ، وقد تذكرت الحقائق الأخيرة التي تكشفت لي:

"أو الذي لا أعرفه".

ثم استدركتُ بلوم:

"لماذا لم تخبرني بالحقيقة يا أمجد؟".

"لو فعلتُ؛ فسينهار هذا الحاجز الذي صنعته لكِ، وستكون العواقب مخيفة. كان من المفترض أن تمر فترة معينة حتى يصير عقلك فى منطقة آمنة. ولكي يحدث هذا؛ فلا بد أن يتم تحت بصري".

قلت وأنا أبتسم بمرارة، لا أعرف من أين أتت:

"لهذا تقدمتَ لخطبتي".

أومأ برأسه:

"كان إحساس المسئولية هو الذي يحركني نحوك، وهو نفس الإحساس الذي كنتِ تحملينه بين ضلوعكِ، وأنتِ تعتبرين نفسك مسئولة عن مقتل نادر. الفرق هنا أني تحملت المسئوليتين معا".

صمتَ لحظة، ثم قال:

"كان هذا فى البداية فقط، لكنى بعدها أحببتكِ".

سرت قشعريرة لذيذة في بدني. كانت هذه هى المرة الأولى التى يصارحنى فيها نادر بحبه يا **مفكرتي العزيزة**. أما الظل فقد صرخ وهو ينقض علينا:

"أُفضِّل الموت على أن أستمع إلى هذا الهُراء".

فجأة أبرز أمجد يديه؛ فإذا هو يحمل مطفأة حريق صغيرة، وهوى بها بقوة على رأس الظل، الذي حدق فينا للحظة بذهول قبل أن يهوى أرضًا، والدم يسيل من جبهته.

حاول أن ينهض بإصرار، لكن ضربة أخرى من مطفأة الحريق أرقدته أرضا، وبدا أنه سيظل هناك لفترة لا بأس بها. ومع سيلان خيط الدم من فمه هذه المرة ضحك الظل:

"لن تستطيع أن تقبض عليّ؛ أو تبلغ الشرطة؛ فأنا بلا سوابق، بلا دليل واحد يورطني في أي شيء".

قلتُ بعصبية:

"يمكنني أن أشهد أنك قتلت نادر".

ضحك الظل:

"ومن سيصدق فتاة معتوهة مثلك؟".

"فليكن أيها الوغد؛ يوجد حل آخر، وأنت من أخبرني به منذ قليل".

نظرة متساءلة في عينيه. جثوتُ على ركبتي، ومددتُ يدي إلى سترته.

قاوم قليلا، لكن بفعل التعب والإرهاق والألم لم يستطع الاستمرار فى المقاومة.

أخرجتُ هاتفه المحمول من جيبه، وطالعتُ الفيديوهات الموجودة عليه، وما توقعته كان صحيحا. سالنى أمجد بفضول عندما رآنى أبتسم:

"ماذا؟".

أريته الفيديوهات:

"دليل إدانة الوغد تامر".

كانت الفيديوهات تصور تامر وهو يكلف الظل بمهمات القتل، والغريب أن هذا الأخير كان يتكلم بنبرة صوت مختلفة.

يبدو أن قدرته على تغيير حنجرته لأي صوت يريده؛ لهي ميزة هائلة.

"حتى لو سقط تامر؛ فلن أسقط أنا. ليست لديك فكرة عن كمِّ الاحتياطات التي اتخذتها من أجل أن أحمى رقبتى من حبل المشنقة. الحل الوحيد هو أن تقتلاني الآن، غير هذا؛ فأنا مشفق على فشلكما الذي سيحدث بدون محالة".

قال الظل هذا بشماتة.

تبادلتُ مع أمجد نظرة حيرة. قلتُ للظل:

"لقد قتلتَ أُناسا كثيرين، مايسة، أبوها، ولا بد أن غيرهما كثير. من الإجحاف أن تنجو من العقاب فى الدنيا".

قال أمجد ببطء وهو ينظر إلىّ:

"ومن قال أن هذا سيحدث؟".

ثم جثا على ركبتيه أمام الظل، الذي ما زال يبتسم بثقة:

"أخبرتك من قبل أني أُسيطر على الكلاب بقدرة سحرية، لكنى لا أملكها على البشر".

وأخذ أمجد نفسا عميقا:

"حسنا، لقد كنتُ أكذب".

قال الظل هازئًا:

"ماذا ستفعل؟ هل ستجعلي أنسى فترة معينة في حياتي؟".

ابتسم أمجد:

"بل العكس".

تلاشتْ ابتسامة الظلّ تدريجيا، بينما أمجد يقول، وهو ينهض، ويفك السلسلة من حول رقبتي، حتى دون أن يطلب منى كعادته:

"مهما بلغ المرء من شرّ؛ فتوجد هناك نقطة خير بداخله. مهما ترك نفسه للشرّ والسواد؛ فهناك خير ضئيل جدًا بداخله. وأراهن أنك تملك البعض منه بداخلك".

"أنت تُحسن الظن بي".

"ربما".

وراح يحرك السلسلة من اليمين للشمال، والعكس، وهو يهمهم بشكل مُنغمَّ.

قاوم الظلّ في البداية من خلال ابتسامة هازئة، وهو يحاول أن يُبعد عينيه عن عينيّ أمجد، لكن كان هذا صعبا؛ نظرا لإصابته. ثم تجمدت عينا الظل، ثم بان ذعر عميق على وجهه وهو يتراجع للخلف برعب حتى كاد يلتصق بالجدار، وهو يصرخ:

"ابتعد عني. لا تمدّ يدك عليّ. وأنت أيضا؟ لا، أنت أيضًا. ارحلوا! ارحلوا".

وراح يصرخ.

قلت لأمجد برهبة، من المشهد المخيف الذي يجري أمامي:

"هل يرى أشباح ضحاياه؟".

أومأ برأسه:

"حتى الوحوش تحتفظ بضميرها في بقعة مُعتمة. كل ما فعلته أني أخرجته من هذه البقعة، ولسوف يري كل من قتلهم يتعقبونه فى الليالة المظلمة، يُسمعونه خطواتهم الحذرة الغامضة، حتى يصيبه الجنون!".

أغمضتُ عينيّ. إنها الكارما!

***

فى الأربعة الشهور التالية جرت مياه أخرى كثيرة تحت الجسر:

تم القبض على تامر، واستعادتْ مروة شركات أبيها، وبدأ حامد يخطب ودها من جديد، ويبدو أن الأمور تتجه لنتيجة مختلفة تلك المرة.

أما الظلّ فقد أُودع مصحة للأمراض العقلية، وقد راح يتفوه بالكثير من الأسرار التى يخبئها بداخله؛ ممن قتلهم ودفنهم، حتى صار حديث الساعة.

بالنسبة لنادر؛ فقد استيقظ يا مفكرتي العزيزة، والأطباء مستبشرون بأن نجاته ستكون كاملة، وهو أمرٌ لم يكن متوقع، لكن رحمة الله لا حدود لها.

وكان أول اسم ينطقه فور استيقاظه هو اسمى، وقد أسعدني هذا كثيرًا. وللطرافة فقد مكث أمجد فى الحجرة المقابلة لحجرة نادر. طبعا بما أنه صاحب المستشفى؛ فيمكنه أن ينزل في أية حجرة، لكنه يفعل هذا حتى يراقبني. كان أمجد يُعالج من الإصابات التى لحقت به جرّاء

مغامرة البحث عن مطلوب عريس غير ممل، والتى كانت نتيجتها غير متوقعة بالمرة.

جلستُ فى الممرّ الذي يواجه الحجرتين، معي كتاب وعدة الحياكة، والكثير من الأفكار، وأنا أفكر فى الاثنين: نادر وأمجد. الاثنان يحباني، وأنا أحبهما؟

هل يمكن أن يحدث هذا؟

لكن كان علىّ أن أبحث عن شيء واحد صادق وأتشبث به. شيء واحد صادق في أحد الرجلين، سوف يجعلني أبنى عليه مملكتى، ولحظتها يمكن للفارس أن يأتى على حصانه الأبيض من مملكة الأساطير.

لكنى أعطيتُ لنفسي المزيد من الوقت. أريد الكثير من التأني، الهدوء، السلام الداخلي، استعادة ذاتي المبعثرة، رؤية جوهر الأشياء، فهم سامية بمعزلٍ عن الأشخاص والحوادث.

وهكذا، ومنذ ساعتين فحسب، نهضتُ واتجهتُ لحجرتي نادر وأمجد، ووقفتُ فى منتصف الممر: حجرة نادر عن يميني، وهو يمثل الماضي البعيد نوعا، وعن شمالي حجرة أمجد، وهو يمثل الماضى القريب، لكن الاثنين صارا فى حاضرى الآن.

رحتُ أتذكر الكثير من ذكرياتهما معي، الكثير جدًا. ابتسمتُ، وضحكتُ، وبكيتُ، وفى كل هذا لم يكفُّ قلبي عن الخفقان بسرعة.

ثم أخيرا، وجدتُ لحظة الصدق إياها... كانت لحظة صغيرة جدا، أشبه بماسة لامعة لا تكاد تُرى، لكنها تتعاظم وتكبر بداخلي، حتى صارتْ شمسا مشرقة.

مرة أخرى يا مفكرتي العزيزة:

أقسى ما يواجه المرء هو الاختيار. ضعي أمامه طريقين، ثم اطلبي منه أن يختار أحدهما. لكمْ سيكون مسرورًا لو أُجبر على اختيار طريقٍ بعينه. لكنى أؤكد لكِ، أننى فى تلك اللحظة كنتُ مسرورة أني أختار.

وهكذا؛ فقد اخترتُ، واستدرتُ ناحية إحدى الحجرتين، وفتحتُ بابها.

***

(انتهت بحمد الله)

عزيزي القاريء... عزيزتي القارئة

أقترح عليكما التسجيل في مدونتى، حيث ستُنشر عليها روايات جديدة، على شكل حلقات أسبوعية، تصدر في موعد محدد، وستكوت روايات متنوعة بين الرعب، والرومانسية، والغموض، والمغامرة، والفانتازيا، وستكون بصيغ متعددة للقراءة: PDF، Epub، Kindle

رابط مدونتى: اضغط هنا

لا تنسوا أن تخبروني بآراءكم فى الرواية على صفحة الرواية على الجودريدز من خلال هذا الرابط

منْ يريد استقبال رسائل خاصة تحتوى على أخبار الرواية الجديدة، وكيفية الحصول عليها؛ فيمكن الإنضمام لي على مجموعتي على الجودريدز، حيث سيُتاح للمشتركين أن يستقبلوا رسائل خاصة تخبرهم بالروايات الجديدة، وكافة التفاصيل عنها. رابط مجموعتي على الجوريدز من خلال هذا الرابط

أيضاً، منْ يريد استقبال رسائل خاصة تحتوى على أخبار الروايات الجديدة، وكيفية الحصول عليها؛ فيمكنك الإنضمام لي على مجموعتي على جوجل، حيث سيُتاح للمشتركين أن يستقبلوا رسائل خاصة على بريدهم الإلكتروني تخبرهم بالروايات الجديدة، وكافة التفاصيل عنها. رابط مجموعتي على جوجل من خلال هذا الرابط

انضم إلىّ على قناتي على تيليجرام أصلا من خلال هذا الرابط

للتواصل؛

يمكنك مراسلتى مباشرة على على بريدي الإلكتروني

aref.fikry@gmail.com